

سلسلة

رُدَّ إليَّ روحي ١

بأي قلب نلقاه؟



د. خالد أبو شادي

بسم الله الرحمن الرحيم



اسم الكتاب : بأى قلب نلقاه

المؤلف : د. خالد أبو شادي

التجهيز الفني : مركز السلام للتجهيزات

الطبعة : الأولى

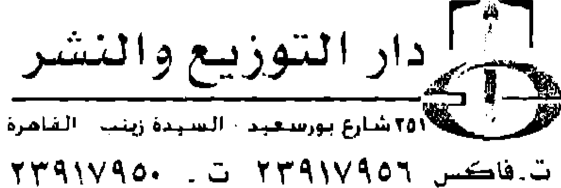
سنة الطبع : ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

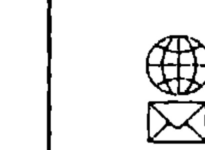
المقاس : ١٥ × ٢١

الناشر : دار التوزيع و النشر

رقم الإيداع : ٢٠١١/٩٦٨٢

الترقيم الدولي : 5 - 813 - 265 - 977





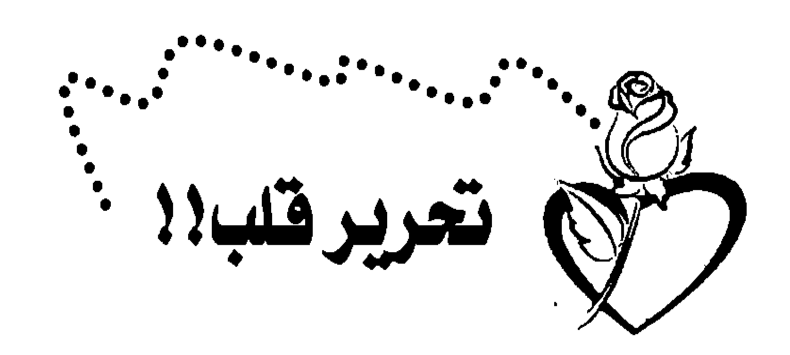

www.eldaawabookshop.com
d.eltwzea@gmail.com





د. خالد أبو شادي


١
موضع
الإصابة
رُدَّ إليَّ روحي



تحرير قلب!!

قال قلبي وهو يرزح تحت الأغلال:

اتركيني يا نفس..

أرهقتني ذنوبك

أفقدتني صوابي..

أهلكتني عيوبك

زادت من عذابي

ضاقت عليَّ الأرض

واختَنَقْت.. اختنقت

من طول غيابي

يا نفس..

كم طمحتُ إلى الخير

وهممت بإجابة داعي الله

وكدتُ أضع قدمي في قطار الصالحين

وأمضي معهم في طريق النور

فحرمتِني

وحُلتِ بيني وبين النجاة

أما آن لك أن ترحميني

وتدعيني أنجو

فكّيني من أسارك

أطلقيني من قيدك المرير

إن رضيتِ الهجر فأنا لا أطيق منه لحظة

بطاقة دخول

- **موضع الإصابـة:** القلب
- **تاريخ الإصابـة:** غير معلومة
- **تاريخ آخر كشف:** أول كشف في حياته
- **درجة الإصابـة:** شديدة الخطورة
- **القســـم:** قسم الحالات الحرجة
- **أعـراض الحالـة:** نبض الإيمان ضعيف لا يكاد يُسمع .. فطرة أوشكت على الانقراض .. فرح بالمعصية .. نفور من الطاعة.. عين جفت من قلة بكائها من خشية الله .. قلب راحته في معصية ربه .. روح وحشتها من الصالحين .. نفس أنسها بالعصاة والمذنبين .. جسد ما عرف طريق المسجد منذ سنين ..
- **التوصيـــة:** يُرسل فورًا إلى الرعاية المركزة الإيمانية ..

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾، أما بعد:

فهذا الكتاب يُعدُّ موسوعة عصرية شاملة تغطِّي موضوع القلب، وما يتصل به من أعراض وأمراض وطرق علاج ليعالج ظاهرة **الجفاف الروحي** التي عمَّت الجميع حتى شملت كثيرًا من الملتزمين الذين أصبح بعضهم يعاني ظاهرة **الاكتفاء الذاتي**، وهي ظاهرة تراها من بعض المربين والدعاة وهي انصرافهم عن مجالس الوعظ والرقائق بحجة الاكتفاء الذاتي، وأن تربية المواعظ والرقائق قد تجاوزوها من زمن، فالمواعظ وترقيق القلوب إنما هي للمبتدئين أو من هم على عتبة باب الدعوة!! أما هم فقد تخرَّجوا من جامعة الإيمان وتسلموا شهادات التفوق منها، ولم يعد لهم في هذا الميدان مطمع، هذا لسان الحال وإن لم يُفصح عنه المقال.



ادفع الثمن أولاً

كان عكرمة حريصًا كل الحرص على أن لا يصل هذا العلم إلى من لا يستحق؛ لذا قال رحمه الله:

لا تعلِّموا العلم إلا لمن يعطي ثمنه، فقيل له: وما ثمنه؟ قال: «يضعه العالم عند من يعمل به»(١).

وبيَّن سفيان الثوري السبب في ما قال عكرمة، فانطلق يشرح:

> **«إذا رأيتم طالب العلم يطلب الزيادة من العلم دون العمل فلا تعلِّموه، فإنَّ من لم يعمل بعلمه كشجرة الحنظل كلما ازداد ريًّا بالماء ازداد مرارة، وإذا رأيتموه يُخلِّط في مطعمه ومشربه وملبسه ونحو ذلك ولا يتورع، فكُفُّوا عن تعليمه تخفيفًا للحجة عليه غدًا»(٢)**

وصدق الشاعر حين قال:

لو كان العلم دون التقى شرف
لكان أشرف خلق الله إبليس

لذا لما بعث قوم إلى سفيان الثوري يطلبون أن يُحدِّثهم اشترط عليهم: «حتى تعملوا بما تعلمون، ثم تأتوني فأحدِّثكم»، ثم أردف في صراحة فاضحة:

«يدنِّسون ثيابهم ثم يقولون تعالوا اغسلوها!!»(٣).

ولذا خوَّفك سري بن المغلِّس السقطي فقال:

---

(١) تنبيه المغترين ص ١٥، مطبعة البابي الحلبي.
(٢) تنبيه المغترين ص ١٩.
(٣) اقتضاء العلم العمل ١/ ٨٥، رقم:١٣٧.

«كلما ازددت علمًا كانت الحجة عليك أوكد»[(١)].

وأهمية عودة الروح كانت واضحة وأخذت ما تستحق من سلفنا المبارك، ومن هذا ما ذكره الإمام الذهبي في ترجمة عبد الرحمن بن شريح رحمه الله: قال هانئ بن المتوكل: حدثني محمد بن عبادة المعافري قال: كنا عند أبي شريح فكثرت المسائل فقال: «قد درنت قلوبكم، فقوموا إلى خالد بن حميد المهري استقلوا قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق؛ فإنها تُجدِّد العبادة وتورث الزهادة، وتجر الصداقة، وأقلّوا المسائل فإنها في غير ما نزل تقسِّي القلب وتورث العداوة»[(٢)].

وحضارة اليوم وهي تسدِّد سهام خداعها صوب القلوب الغافلة لتصيب لُبَّها؛ تحتاج إلى درع حصينة تتكسَّر عليه، فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردمًا، وما هذه الدرع سوى تربية إيمانية راسخة تورث النظر في العاقبة، واليقين بالآخرة، والتنافس في الخيرات، والزهد في الفانيات، ولا يتم ذاك إلا إذا ردَّ الله إليك روحك.

وما أشبه هذه الحضارة ببساط يسحب الناس ببطء تجاه نهايتهم المحتومة، وهم عنها غافلون وبغيرها مشتغلون، والشيطان يرقص بينهم فرحًا، ويقهقه وهو يشُدُّهم بعيدًا عن طريق النجاة، حتى إذا ما وقعت بهم الداهية أفاقوا لكن.. هناك.. على أعتاب الحساب وفي ظلمة القبر؛ فيا إخوان.. أترضون أن يكون هذا حالكم: تغفلون تغفلون، ثم تموتون فتندمون!!

ذلك مبلغهم من العلم

اشتاط وهب بن منبه غضبًا فصاح معلنًا:

> **«واعجبًا من الناس!! يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد»[(٣)].**

---

(١) اقتضاء القول العمل ١/ ٥٣، رقم: ٧٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٣، ونزهة الفضلاء ٢/ ٦٩١، ٦٩٢.
(٣) تنبيه المغترين ص ٦٦.

وصدق رحمه الله؛ فأكثر الخلق يخافون موت أبدانهم ويركضون سراعًا لشفائها إن مرضت، ولا يبالون بموت قلوبهم ولا يُحرِّكون ساكنًا إن هي صرخت من الشكوى والألم، فليست الحياة عندهم إلا حياة الجسد، والحياة في هذه الحالة ليس لها سوى معنى واحد: الموت، فليس الميِّت من خرجت روحه من جنبيه، وإنما الميِّت من لا يفقه ماذا لربه من الحقوق عليه!!

ولذا لما قال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتي وأخذ متاعي قال له: اشكر الله تعالى!! لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك، ماذا كنت تصنع؟![1]

أخي.. أتبكي في بيت الله ندمًا على ما سرقت، فإذا عدت إلى بيتك أكلت المسروق؟! يا غافل.. أنفقت ما سرقت وبقي قطع اليد!! أتحفر قبرك بظفرك؟! أتقطع أنفك بسيفك؟! أتقتل نفسك بنفسك؟!

أخي.. قلبك قلبك.. أنقذه منك قبل أن تهلكه، قلبك.. سفينة نجاتك الوحيدة إلى الجنة وليس لك غيرها، فإياك والغرق، والغرق اليوم معناه عدم التألم باقتراف المعصية، واللامبالاة بمواطن الزلل، ومجاراة أهل السوء دون أدنى ندم، وعدم إنكار المنكر ولو بالقلب، فإن وجدت نفسك تنجرف منك في هذا السيل؛ فأعلن حالة الطوارئ، واجذبها نحو النجاة بقوةٍ تفوق قوة الغريق الذي يتشبث بأي شيء لإدراك النجاة، وأسرع قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة، وإلا فإنها المحرقة!!

ويحك.. كيف تنفصل عنه، وما خلقك إلا لتتصل به!!

أخي.. هذا الكتاب باب من أبواب الخير، «والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٩٣.

الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يُمكِّنه بعدُ من إرادته عقوبة له، فمن لم يستجب لله ورسوله إذا دعاه، حال بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد صرَّح سبحانه بهذا في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[التوبة: ١١٥]، وهو كثير في القرآن»[1].

أخي..هذا الكتاب بضاعة وشراؤها بالعمل، فاقرأه موقنًا أن قراءتك هي سبيل الرقي في الدنيا قبل الآخرة «اقرأ وارقَ»، واستعد بعد قراءته للتسابق وتهيَّأ للانطلاق، وطلِّق زمن اللهو وانس أيام الغفلة، واحطم اللات والعزى لديك، وتزوَّد بالوقود لتبدأ الرحلة، واتخذه زادًا لتشغيل آلة القلب لتستأنف المسير وتتحمل المشاق وتستعذب الألم لتستوجب الثمن، واقبله مني هدية متواضعة ولمسة رقيقة ليكون جليس روحك وهي تولد من جديد من رحم الغفلة وتتحرر من أسر البدن.

هذا الكتاب رحلة سفر أخروية، ومن المعلوم أنه «لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب فقال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها؛ لم يجد مس الجوع ولا النصب، فإنه سفر إلى ربه تعالى، وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»[2].

هذا الكتاب نهر صافٍ يسقي القلوب العطشى ويغسل الأرواح التي دنستها

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٥٧٤، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٠٣.

الذنوب على مدى سنين، وليس هدف الكتاب صبَّ الإيمان في قلبك كلا، بل إثارة بواعثه الكامنة في عروقك، ولست أزعم أنني هنا الآن لأجعلك خيرًا مما أنت عليه، بل لأُعلِمك أنك خيرٌ بكثير مما تظن، وأصيح فيك بأن رصيد الفطرة الراقد فيك ينتظر شرارة تقدح الحماسة وتطرد الغفلة والكسل، وأسأل الله أن يجعل هذه الشرارة بين ثنايا هذه الصفحات وفي بطن هذا الكتاب.

أخي !! أجِب دعوة محمد إقبال يهيب بك ويصرخ فيك:

شُقَّ قلب الطود عن جوهرهِ ... شُقَّ موج البحر عن دُرٍّ بهِ[1]

وقد عطَّرت هذا الكتاب بعبير القصص لأمتِّع به القارئ وأرسِّخ به المعنى، مستحضرًا إجابة طلب وتحقيق أمنية أحمد بن حنبل حين قال: «ما أحوج الناس إلى قاص صدوق»[2].

ولا تتم الفائدة من هذا الكتاب إلا إذا انتقلت روحك من شعور إلى شعور ومن حال إلى حال، فإذا سافرت في ثنايا هذا الكتاب وهمُّ الدنيا يملأ قلبك، وأشغالها تشغلك، وهمومها تُهِمك، فكأنك قرأت وما قرأت، وحفظت وما فهمت.

أسأل الله أن يشرح صدرك، ويُيَسِّر أمرك، ويُلهِمك رشدك، ويُوفِّقك إلى أعظم الاستفادة من هذه الصفحات، ويجعل هذه الكلمات من العلامات الفارقات في حياتك، وأن تؤثِّر في جنبات روحك التأثير الدائم الذي لا يتغير حتى تلقى الله، وإني على ثقة برحمة ربي أنه لن يخذلني وسيُحقِّق أمنيتي بأن يكون هذا الكتاب من تباشير الصحوة الإيمانية وباكورة اليقظة الروحية.

كتبه لك أخوك

د. خالد أبو شادي

---

(١) ديوان الأسرار والرموز ص ١٣٠.

(٢) تلبيس إبليس ١/ ١٤٦.



ابدأ هذا الباب بسؤال:

قد يقوم إنسان بعملية زراعة قلب، ويحيا بقية حياته بقلب رجل آخر، فهل تتغيَّر مشاعره وتتبدل أفكاره وعواطفه تبعًا لهذا القلب الذي زُرِع فيه؟!

كلا، فالمشاهد أنه لا يتغيَّر دينه ولا محبته لأهله وقرابته، وهذا دليل دامغ على أن كل ما يظنه الناس من وظائف القلب ودوره في الحب والعاطفة، واعتباره مركز الفكر وموطن العقائد والسلوك مسألة فيها نظر، فهل يتعارض هذا مع ما ورد في القرآن والسنة من ذكر القلب مرتبطًا بهذه المعاني؟!

لقد استطاع الإمام أبو حامد الغزالي أن يحل هذه الإشكالية ويميِّز بوضوح بين المعنيين اللذين يختلطان في أذهان كثير من الناس، فقال رحمه الله في كتاب عجائب القلب من موسوعته القلبية: «إحياء علوم الدين» كلامًا كالبشرى بالولد الكريم يُقرع به سمع الشيخ العقيم وجاء فيه:

«لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص، وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته؛ إذ يتعلق به غرض الأطباء، ولا يتعلق به الأغراض الدينية، وهذا القلب موجود للبهائم؛ بل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب لم نعن به

ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة؛ إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين.

والمعنى الثاني هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني»[١].

والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب أردنا به المعنى الثاني، وهدفنا هو ذكر أوصاف الروح وأحوالها التي تعتبر سرا مغلقا، والتعرض لأصناف النفوس وتقلباتها رغم أنها أمر مبهم، ورغم أن آيات وأحاديث القلب قد يشتبه في بعضها الأمر ويتبادر إلى الذهن أنها مرتبطة بالقلب العضلي، إلا أن المقصود منها على الحقيقة: القلب المعنوي كما قال الإمام الغزالي: «وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب، فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يُكنَّى عنه بالقلب الذي في الصدر؛ لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة»[٢].

لكن لماذا الحديث عن القلب بالذات دون سائر الأعضاء؟! لقد أحصيت في هذا الباب عشرين سببًا لهذا، وتبدأ بما يلي:

1 إنه الملك:

القلب أمير الجسد وملك الأعضاء، فهو راعيها الوحيد وقائدها، وإنما الجوارح والحواس تبع له وآلات تصدع بما تؤمر، فلا تصدر أفعالها إلا عن أمره، ولا يستعملها في غير ما يريد، فهي تحت سيطرته وقهره، ومنه تكتسب الاستقامة أو الزيغ، وبين القلب والأعضاء صلة عجيبة وتوافق غريب بحيث تسري مخالفة كل منهما فورا إلى الآخر، فإذا زاغ البصر فلأنه مأمور، وإذا كذب اللسان فما هو غير عبد مقهور، وإذا سعت القدم إلى الحرام فسعي القلب أسبق، لهذا قيل عن المصلي العابث في

---

(١) الإحياء ٣/ ٣.
(٢) السابق ٣/ ٥.

صلاته: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»، وقال ﷺ لمن يؤم من المصلين: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[1]، فأعمال الجوارح ثمرة لأعمال القلب، والخلاصة: القلب هو خط الدفاع الأول والأخير، فإذا ضعف القلب أو فسد أو استسلم انهارت الجوارح!!

وإلى هذا أشار حجة الإسلام أبو حامد الغزالي حين قال:

«اعلم أن آداب الظواهر عنوان آداب البواطن، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر، والأعمال نتائج الأخلاق، والآداب رشح المعارف، وسرائر القلوب هي مغارس الأفعال ومنابعها، وأنوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها. ومن لم يخشع قلبه، لم تخشع جوارحه، ومن لم يكن صدره مشكاة الأنوار الإلـٰهية، لم يفض على ظاهره جمال الآداب النبوية»[2].

وفي المقابل إذا ذكر العبد ربه فلأن القلب ذَكَر، وإذا أطلق يده بالصدقة فلأن القلب أذِن، وإذا بكت العين فلأن القلب أمر، فالقلب مملي الكلام على اللسان إذا نطق، وعلى اليد إذا كتبت، وعلى الأقدام إذا مشت، وقد عرف النبي ﷺ للقلب حقه ومكانته حتى وصفه بأنه: «مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»، وتوجه أول ما توجَّه إليه ليربيه ويهتم به ويزكِّيه.

فكل الأفعال مردها إلى القلب وانبعاثها من القلب، وكل الأفعال تعني كل الأفعال ولو كانت لبس ثيابك وزينة بدنك!! وهذا ما أدركه مستودع القرآن الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فقال: «لا يشبه الزي الزي حتى تشبه القلوب القلوب»[3].

هدف الحبيب الأول

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل منه (القرآن) سورة من المُفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدًا»[4].

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم والنسائي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٩٦١.
(٢) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٥٧.
(٣) الزهد لهناد ١/ ٤٣٨.
(٤) صحيح: رواه البخاري عن يوسف بن ماهك رقم: ٤٦٠٩.

فقد حرَّم الله الخمر في العام الثاني من الهجرة أي بعد البعثة بخمس عشرة سنة، وفرض الزكاة في العام الثاني من الهجرة كذلك، وفرض الحجاب في العام السادس من الهجرة بعد تسع عشرة سنة من بعثة النبي ﷺ، وهي كلها تكليفات تأخَّر نزولها حتى زكى القلب ولان وتمكَّن منه الحق واستبان.

ولشرف القلب جعله الله أداة التعرف عليه ووسيلة الاهتداء إليه، بل إذا غضب الله على عبد كان أقصى عقوبة يُنزلها به أن يحول بينه وبين قلبه، وحيلولته هي أن يحرمه من معرفته وقربه، لذا كان الاهتمام به تعبير عن الاهتمام بالأهم عن المهم وبالأصل عن الفرع.

2 الهدف المشترك:

وقد أدرك الشيطان دور القلب ومكانه فلم يضيِّع وقته في معارك جانبية أو مناوشات هامشية، بل صوَّب جهده نحو هدف واحد وغاية ثابتة. قال ابن القيِّم:

«ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه؛ أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّن له من الأقوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمدَّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق»(١).

فالقلب هو الهدف المشترك بين الملك والشيطان، كلاهما يستهدفه، فهو موضع الصراع، والنقطة الملتهبة، وساحة القتال، وأرض المعركة، ونتيجة هذه المعركة: إما هداية القلب وحياته، وإما قساوته وموته وهلاكه، فواعجبًا ممن أخذ نصيحة العدو، وردّ وصية الحبيب، واشترى صداقة الشيطان بعداوة الملائكة، وأعلن الحرب على ما تبقى من إيمانه بالتعاون مع عدوه اللدود، وهي صيحة التعجب التي سبق وأن أطلقها ابن الجوزي حين قال:

«كيف طابت نفسك أن تكون ظهيرًا لفئة النفس على فئة القلب، وفئة القلب مؤمنة وفئة النفس كافرة؟!»(٢).

(١) إغاثة اللهفان من مكائد الشيطان ص ١٠، ط مكتبة الدعوة الإسلامية.
(٢) التذكرة ص١٩٧.

عن الجوارح مختلف

وقد يقول قائل: لكن الأعضاء والجوارح كذلك مستهدفة من قبل الملائكة والشياطين، فما الفارق بينها وبين القلب؟!

وأقول على لسان أبي حامد الغزالي الذي بيَّن الفارق الجلي في قوله:

«العوارض له أكثر، فإن الخواطر له كالسهام، لا تزال تقع فيه، وكالمطر؛ لا تزال تُمطر عليه ليلاً ونهارًا لا تنقطع، ولا أنت تقدر على منعها فتمنع، وليس بمنزلة العين التي بين الجفنين، تغمض وتستريح، أو تكون في موضع خال، أو ليل مظلم فتُكفى رؤيتها، أو اللسان الذي هو وراء الحجابين: الأسنان والشفتين، وأنت قادر على منعه وتسكينه، بل القلب غرض للخواطر، لا تقدر على منعها والتحفظ عليها بحال، ولا هي تنقطع عنك بوقت»[1].

3 طهارته شرط الدخول:

والسبب الثالث في أهمية القلب أن طهارته شرط دخول الجنة؛ لذا ذم الله خبثاء القلوب فقال: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ** ﴾ [المائدة: ٤١]، والآية دليل دامغ على أن من لم يطهِّر قلبه فلا بد أن يناله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، ولهذا حرَّم الله سبحانه الجنة على من كان في قلبه مثقال ذرة من خبث، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[2].

ولا يدخلها أحد إلا بعد كمال طيبه وطهره، لأنها دار الطيبين؛ ولذا يُقال لهم وهم على مشارف الجنة: ﴿ **فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ** ﴾ [الزمر: ٧٣].

---

(١) منهاج العابدين ص ٩٥.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٧٤، وقد أبان ابن قدامة سر اختصاص الكبر بجعله حجابًا عن الجنة فقال: «وإنما صار حجابًا دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم، فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه».

ويُبشَّرون عند موتهم دون غيرهم على لسان الملائكة الكرام: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

قال ابن القيِّم: «فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا مَن فيه شيء من الخبث، فمن تطهَّر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوِّق، ومن لم يتطهر في الدنيا؛ فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حُبِسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهَذَّبون وينقَّون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هُذِّبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة»(١).

من أجل ذلك جاء الأمر الرباني جازمًا للنبي ﷺ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

قال ابن القيِّم: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ها هنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأعمال والأخلاق»(٢).

النجاسة الكبرى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

فعبَّر سبحانه وتعالى عن نجاستهم بالمصدر للمبالغة؛ وكأنهم عين النجاسة لأن خبائث الباطن أولى بالاجتناب وهل أخبث من الشرك؟! فإن خبائث القلب مع خبثها في الحال مهلكات في المآل، ومعنى آخر: هو أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظاهر، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس القلب، وهذا الذي ذهب إليه أهل المذاهب الأربعة إلى أن الكافر ليس بنجس الذات؛ لأن الله سبحانه أحل طعامهم، وثبت عن النبي ﷺ في ذلك من فعله وقوله، فأكل في آنيتهم، وشرب منها، وتوضأ فيها، وأنزلهم في مسجده.

وإضافة إلى هذا؛ فالنجاسات المعنوية ليست على درجة واحدة بل تتفاوت، وليس محلها قلوب

(١) إغاثة اللهفان ص ٧١.
(٢) إغاثة اللهفان ص ٦٧.

الكفار فحسب، بل قد توجد في قلوب المسلمين، فالغضب والكبر والحسد وغيرها من أمراض القلوب نجاسة، وإذا كان ﷺ قد قال: «**لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة**»(١)، فإن أبا حامد الغزالي [ت: ٥٠٥] قد تأمل في هذا الحديث تأملاً قد يكون بعيدًا عن الظاهر لكنه ذو دلالة فقال:

«والقلب بيت هو منزل الملائكة، ومهبط أثرهم، ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنَّى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب، ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء، وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المُطهَّرون المُبرَّءون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيبًا، ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبًا طاهرًا»(٢).

4 موضع نظر الله:

من القلوب قلب كقبور الموتى ظاهرها الزرع والورد وباطنها الجيف والموت، أو كبيت مظلم على سطحه سراج وباطنه ظلام، والنبي ﷺ يقول في هذا: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم**»(٣).

إنها حياة القلب وإن كانت البطون خاوية والثياب بالية، وقد أبان الحديث أن القلب هو موضع نظر الرب، فلا عبرة إذن بحسن الظاهر مع خبث الباطن، فاعجب ممن يعتني بمظهره وهندامه الذي هو محل نظر الخلق؛ فيغسل ثوبه ويعطِّره، وينظِّف بدنه ويطهِّره، ويتزيَّن بما أمكن، لئلا يطَّلع مخلوق على عيب فيه، ولا يهتم بقلبه الذي هو محل نظر الخالق؛ فيطهِّره ويزيِّنه لئلا يطلع ربه منه على دنس أو خبث أو أحد غيره.

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي طلحة الأنصاري كما صحيح الجامع رقم: ٧٢٦٢.
(٢) الإحياء ١/ ٤٩.
(٣) صحيح: غاية المرام ٤١٥، والصحيحة ٢٦٥٦، وتحقيق رياض الصالحين ص ١٤، وأخرجه مسلم.

وتأمَّل ما يلي لتعلم أهمية القلب:

إن العمل قد يكون ظاهره العصيان وصاحبه مُثاب، كأن ينطق الرجل بكلمة الكفر مُكرَها وقلبه مطمئن بالإيمان، أو يشرب مُسكِرا بغير رضاه، وفي المقابل قد يكون ظاهر العمل الإحسان وصاحبه في النار، كأن يُقتل المرء في ساحة قتال ليتغنى الناس بشجاعته، ويُنفق ماله في طرق الخير ليُثني الناس على كرمه، ويقرأ القرآن ليلفت إليه أعناق الغير، والقلب في كل هذه الأحوال واقف وحده في قفص الاتهام أو مُسجَّل بأزهى الحروف في لوحة الشرف.

مذنب وبريء!!

وتأمل قول النبي ﷺ: «**إذا عُمِلَت الخطيئة في الأرض كان من شهِدها؛ فكرِهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»[(١)].

سبحان الله! غائبٌ عن ساحة الجريمة لكنه أول المتهمين واسمه في سجل المذنبين، وآخر حضر الجريمة بنفسه ورآها بعينه ومع ذلك يأتي الحكم له بالبراءة!! والسبب في ذلك كله القلب الذي أنكر فسلِم أو رضي فأثم.

وفي الحديث بشارة ونذارة؛ بشارة لمن اضطر إلى حضور مجلس يُعصى الله فيه ولم يستطع أن ينكره بيده أو بلسانه بل ولم يقدر حتى على مغادرة المكان؛ فيقوم القلب بالواجب وينبري للإنكار، ونذارة لرجل أراد الله له الخير فأبى لنفسه إلا الشر، وعصمه من المنكرات فأبى إلا التلطخ بها، وصرف جسده عن مكان الإثم فسافر إليه بقلبه وروحه فعوقب بمساواته مع مرتكب الجرم.

إنه القلب حين يزني!! نعم يزني، ومع شدة وقع هذه الكلمة على النفس إلا أن الذي أطلقها هو من وصفه ربه أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ومن رحمته ورأفته بأمته تحذيره الصريح لها بقوله: «**وزنا القلب: التمني**»[(٢)]. قال الشيخ أ[illegible] [illegible]د الرحمن البنا: «**زنا القلب التمني**: أي

(١) حسن: رواه أبوداود عن العرس بن عميرة كما في صحيح الجامع رقم:

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي هريرة كما في مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٢٩ م[illegible] حكام شعيب الأرناؤوط، وتتمة الحديث: «**العين تزني، والقلب يزني، فزنا العين النظر، وزنا القلب التمني، والفرج يصدِّق ما هنالك أو يُكذِّبه**».

يهوى وقوع ما تحبه النفس من الشهوة»[1].

إن للقلب كسبًا ككسب الجوارح وعملاً كعملها، والله سبحانه أعلن أنه يؤاخذ على كسب القلب ثوابًا وعقابًا، فقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ويشهد لعمل القلب هذا وأن الله يحاسب العبد عليه حديث:

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فقتل أحدهما صاحبه، فالقاتل والمقتول في النار». قيل: يا رسول الله!! هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[2].

فدخل هذا المسلم النار بشيء وقر في قلبه وهلك بسبب عمل قلبي؛ ليس غير.

الظاهر والباطن!!

نعم.. صورة القلب هي الأصل، فإن وافق الظاهر الباطن كان ما في القلب حقيقيًّا، وإن خالف الظاهر الباطن كان ما في القلب مزيفًا، وعلى القلب أيضًا يتوقف صحة الظاهر أي قبوله عند الله، أما الناس فإنهم مكلَّفون بقبول الظاهر فحسب والحكم على أساسه والله يتولى السرائر، ومن هنا كان مقصد الشهادتين هو توجيه رسالة ملموسة إلى الناس بإسلام الناطق بها، في حين أن الله وحده هو المطلع على غير الملموس من محتوى الباطن، وقد نطقت ألسنة المنافقين بالشهادتين، فعصمت دماءهم في الدنيا، لكن مستقرهم في النهاية هو الدرك الأسفل من النار بما حوت قلوبهم.

واسمعوا إلى ارتباط الظاهر بالباطن في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن حب الله في القلب يورث اتباع الجوارح ولا بد؛ وإلا كان ادعاء وكذبًا وزورًا.

---

(١) الفتح الرباني ١٦/ ٧٣.

(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أبي بكرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٨٣٤.

5 النافع الوحيد:

قال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فلا القول ينفع، ولا العمل يشفع، بل سلامة القلب هي أصل كل نجاة؛ كما أن فساده أصل كل بلية، لكن ما هو القلب السليم؟!

والجواب: هو القلب الذي سلم من كل شيء إلا من عبوديته لربه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر؛ فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يُمدح به»(١).

وتأمل كيف جعل الله المال والبنون بمعنى الغنى، كأن المعنى: يوم لا ينفع أحد غناه إلا غنى من أتى الله بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل الحقيقي هو في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه فى دنياه بماله وولده، وعلى هذا يكون من معاني القلب السليم أي من فتنة المال والبنين.

لكن تلميذًا نجيبًا من تلامذة ابن تيمية أفاض في شرح معنى القلب السليم؛ يبغي بذلك إزالة أي لبس أو غموض حتى يسهل الوصول إلى المراد، فقال الإمام ابن القيِّم [ت: ٧٥١]:

«والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا، وفى جنة فى البرزخ، وفى جنة يوم المعاد، ولا يتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والاخلاص، وهذه الخمسة حُجُب عن الله»(٢).

---

(١) الفتاوى الكبرى ٥/ ٢٤٩.

(٢) الجواب الكافي ص ٨٤.

لذا كان غرض كل العبادات في الإسلام الوصول إلى القلب السليم ، فالصلاة من أجل القلب ، والصيام من أجله ، والحج والزكاة وكل أحكام الدين هدفها أن تطهِّر قلبك لكي تلقى الله بقلب سليم تدخل به الجنة.

والقلوب تمرض كما تمرض الأبدان ، وتحتاج إلى قوتها من الإيمان كما تحتاج الأبدان إلى الغذاء وإلا ماتت ، وبدون هذا الزاد تهلك وتبلى كما يبلى الثوب ، وبهذا أخبر النبي ﷺ حين شبّه غائبا غير ملموس بحاضر محسوس فقال :

«إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله تعالى : أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم»[1].

وفي آية سورة ق: ﴿ **هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴾ [ق: ٣٢، ٣٣].

وتأمل قوله تعالى في الشعراء: ﴿ **أَتَى** ﴾، وفي سورة ق: ﴿ **جَآءَ** ﴾، وكأن المعنى الذي يريد أن يوصله لك ربك: ائتني بقلب سليم وجئني بقلب منيب تنجُ من عذابي وتنل رضائي، فأنت يا أخي وحدك الذي تملك أن تأتي بمثل هذا القلب وليس أحد غيرك.

وفي المقابل قد يدخل عبد النار بسبب قلب كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا** ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل إن حال العبد في قبره ما هو إلا انعكاس لحال قلبه في الدنيا كما قرَّر ذلك ابن القيم وهو يزيدنا في كتابه زاد المعاد:

«فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيمًا وعذابًا وسجنًا وانطلاقًا»[2].



---

(١) صحيح : رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم : ١٥٩٠ .
٢) زاد المعاد ٢/ ٢٢.

6 بيت الإيمان والتقوى:

قال خبير القلوب وكاتم سِرِّ النبي ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيتُ أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: **حدَّثنا أن الأمانة نزلت في جِذر قلوب الرِّجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السُّنة**، وحدَّثنا عن رفعها قال: «**ينام الرجل النوْمة فتُقْبَض الأمانة من قلبه،..**»[1].

والأمانة المذكورة في الحديث هي الأمانة التي جاءت في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وهي عين الإيمان، فالأمانة هنا هي الإيمان، وقد أخبرنا ﷺ في هذا الحديث أن الإيمان نزل أول ما نزل في القلب تعبيرًا عن الفطرة السوية التي يولد بها العبد، ثم يزيد الإيمان بعد ذلك اكتسابًا بتعلم القرآن والسنة،، وتأتي أهمية الأمانة من أنها إذا تمكنت من قلب العبد؛ قام بأداء ما أُمِر به واجتنب ما نُهِيَ عنه بكل طواعية وتسليم.

وفي الشطر الثاني من الحديث أشار ﷺ إلى أن الإيمان يُنزع أول ما يُنزع كذلك من القلب، فمن القلب الزيادة ومنه النقصان، وفيه نشأة الخير ومولد الشر، ولو لم يكن للقلب من فضل إلا أنه وعاء الإيمان لكفاه وفضل عليه.

والقلب كذلك هو وعاء التقوى، وقد قال النبي ﷺ: «**التقوى ها هنا**»، وأشار إلى صدره، علامة على أن مكان التقوى هو القلب، والقلب وحده، فليست التقوى مجرَّد نبرة خشوع أو دمعة عين أو إطالة سجدة أو غير ذلك من المظاهر إذا كانت فارغة من الروحانية والخشوع، إنما هي سِر قلبي مستودع في القلب لا يطلع عليه أحد إلا الله.



(١) صحيح: رواه الشيخان والترمذي وأحمد وابن ماجة عن حذيفة كما في اللؤلؤ والمرجان، رقم: ٨٧.

7 هشاشة المصاب:

قال ابن القيِّم:

«ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك، فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته»[1].

فمريض القلب أي نفحة هواء أو هبة تراب تصيبه في مقتل، وأي شهوة عابرة أو زلة تتسبب في فتنته، وأعرى فخ للشيطان يسقط فيه، وأسهل مكيدة لعدوه يسارع إليها، والسبب في ذلك كله ضعف قلبه وانهيار أجهزة المناعة لديه.

8 السرطان:

أصعب المرض عدم معرفة المرض، وأصعب منه عدم معرفة أنك مريض، وأصعب وأصعب أن ترفض الاستماع إلى وصية الطبيب، وهذه ثلاثتها تجتمع في أمراض القلوب، فمرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه؛ لذلك يغفل عنه، وأمراض القلوب هي سرطان الروح، وخطورتها في أنها كالمرض الخبيث تتسلل إليك دون أن تشعر، فلا ارتفاع حرارة ولا ضغط مرتفع ولا نزيف يؤلم أو جرح ينذر؛ لذا يمرض فيها الطب ولا ينفع.

قال لنا ابن القيِّم بعد أن زرناه في عيادته الربانية:

«وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألّم بورود القبيح عليه، وتألّم بجهله بالحق بحسب حياته، وما لجرح بميت إيلام»[2].

---

(١) إغاثة اللهفان ص ٢٤.

(٢) إغاثة اللهفان ص ٨٣،٨٤.

ومما يجعل مرض القلب أخطر من مرض البدن بكثير أن مرض القلب عذابه دائم بعد الموت لا ينقضي؛ بعكس مرض البدن الذي يُتخَلَّص منه بالموت، مما يجعل الاهتمام بأمراض القلوب أوجب، والسعي في علاجها أدعى.

إن ما يصيب البدن من أسقام في هذه الحياة يؤجر عليه الإنسان، أما ما يصيب القلب من أمراض فهو الإثم كله والهلاك كله في الحياة وبعد الممات، إنك إذا دخلت معركة فقتلك العدو الظاهر وسلبك حياتك لمت شهيدًا، أما إذا غلبك العدو الباطن بأسلحة الشهوات والشبهات لمت حينئذٍ طريدًا، وشتان عند الله ما بين شهيد وطريد، شتان شتان.

9 وحده مالك دوائه:

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: ١٥].

هذه الآية تصف حال نفر من المنافقين امتلأت قلوبهم غيظًا من رسول الله ﷺ ومن علوه ونصره، فقال الله لهم: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة؛ فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله لن يفعل ويغيظه أن يظفر نبينا بموعود الله له؛ فليستقص وسعه وليستفرغ جهده في إزالة ما في قلبه من غيظ بأن يفعل أقصى ما يستطيع فعله، ولو كان ذلك أن يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مدَّ حبلاً إلى سماء بيته فشنق به نفسه، فإنه وإن فعل ذلك فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من غيظ، كلا والله فلن يذهب غيظه ولن يزول مرضه إلا أن يشاء الله، فالله وحده هو شافي الصدور ورافع وحر القلوب.

والمعنى:

✍ إذا كنت تعاني الكآبة والحزن واليأس والجزع، فهل تملك قوى الأرض جميعًا أن تغيِّر من ذلك مثقال ذرة؟!

✍ إذا حيزت لك الدنيا بحذافيرها وصارت تحت قدميك؛ لكن امتلأ قلبك كمدًا وغمًّا فهل تهنأ من دنياك بشيء؟!

✍ إذا غرق قلب في الشك والشبهات والزيغ والرِّيَب؛ فهل يملك نزع ذلك المرض من صدرك أحد من أهل الدنيا ما لم يشأ ربك؟!

✍ إذا رأيت نعيم الدنيا مقبلاً على غيرك ومُعرِضًا عنك، فممدت عينيك حسدًا ولسانك حقدًا وقلبك غلاًّ، فهل يملك تطهيرك مما أنت فيه أحد غير الله؟!

✍ إذا أحب قلبك شهوة وأُشرِبها ومال إلى خطيئة وعشقها، فهل يملك أن يعدل قلبك المنكوس ويحيي فطرتك السليمة أحد سوى خالقه؟!

✍ إذا كره قلبك طاعة واستثقلها وملَّ المداومة عليها حتى كاد ينقطع، فهل يملك أحد أن يحبِّبك فيها ويدنيك منها سوى الذي حبب إلينا الإيمان وزيَّنه في قلوبنا؟!

هذا ما أدركه مطرف بن عبد الله حين انخلع من رؤية عمله واعترف بقمة عجزه وغاية ضعفه وردَّ الفضل كل الفضل إلى الله وحده حين قال: «لو أُخرِج قلبي فجُعِل في يدي هذه في اليسار، وجيء بالخير فجُعِل في هذه اليمنى، ثم قُرِّبت من الأخرى ما استطعت أن أولج في قلبي شيئًا حتى يكون الله -عز وجل- يضعه»(١).

إلى كل مريض:

يستطيع الإنسان أن يحرِّك رجله إن أراد أو يهوي بيده أو يرفعها، لكن هل يستطيع أن يفعل ذلك مع قلبه؟! كلا والله.. فكيف تتعامل مع قلب لا سلطان لك عليه بل لا سلطان عليه إلا لله، ولا معرفة لك بأسراره وكنهه بل لا يعرف ذلك إلا الله؟! ألا فليعلم كل من أراد علاج قلبه اليوم دون الاستعانة بربه أنه لن يزداد إلا مرضا، ألا وقل لطالبي الشفاء من عند غير الله: يا عظم خسرانكم، ألا قل للواقفين بغير بابه: يا طول هوانكم، ألا قل للمؤمِّلين لغير فضله: يا خيبة أملكم، ألا قل للعاملين عند غيره: يا ضلال سعيكم.

---

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٠٨.

من الذي يستطيع أن يحول بينك وبين الدواء، ويمنع عنك الطاعة؟! ومن الذي يُبدِّل الأمن خوفًا والجبن جراة؟! ومن الذي يقلب الكره حبًا والحب كرهًا ؟!

أخي.. دواؤك عنده فلا تلتمسه عند غيره، وشفاؤك بيده فلا تُتعِب الأطباء معك، وإن من شيء إلا عنده خزائنه؛ وأنت تائه على أبواب الفقراء تتسول!!

10 موضع الانقلاب:

القلب هو أرق أعضاء الجسم وأسرعها تأثرًا بما يحيط به ويغشاه، ومن رقته أن تؤثِّر فيه أدنى خاطرة وأقل هاجس، وأثر القليل عليه كثير، فالآفات إليه أسرع، وهو إلى الانفلات أدنى، ومن الانقلاب أقرب، فإن قلب المرء وإن صفا زمنًا، وثبت على الإيمان فترة، واستلذ بحلاوته حينًا، فإنه معرَّض للانتكاسة، وهذه هي طبيعة القلب ومنها اشتُقَّ اسمه، قال القرطبي وهو يشرح معنى كلمة القلب:

«وهو في الأصل مصدر قلبت الشيء أقلبه قلبًا إذا رددته على بداءته، وقلبت الإناء: رددته على وجهه، ثم نُقِل هذا اللفظ فسُمِّي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه ولترددها عليه كما قيل:

ما سُمِّي القلب إلا من تقلُّبه   فاحذر على القلب من قلب وتحول»[١].

قال النبي ﷺ: **«إنما سُمِّي القلب من تَقَلُّبِه، إنما مثل القلب مثل ريشة بالفلاة تعلقت في أصل شجرة يُقلِّبها الريح ظهرًا لبطن»**[٢]، وإن القلب شديد التقلب سريع التحول، ويضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً فيقول: **«لقلب ابن آدم أسرع انقلابًا من القدر إذا استجمعت غليانًا»**[٣].

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٢٣٢.

(٢) صحيح: رواه الطبراني عن أبي موسى كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٢٣٦٥.

(٣) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن المقداد بن الأسود كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٥١٤٧.

ولأن القلب سريع التقلب والتغيُّر من حالة الصحة إلى الوعكة الخفيفة إلى المرض العابر ومنه إلى المرض المزمن ، وكل هذا في لحظة واحدة أطلق ابن الجوزي صيحته فيك :

«ويحك!! تعاهد قلبك»[1].

إن بقاء قلب المؤمن على الدرجة الرفيعة من الإيمان التي يجدها بعد أعظم العبادات قدرًا، وعقب أكثر المواسم خيرًا وفضلًا؛ أمر مستحيل؛ لشدة انشغال القلب بالدنيا وملذاتها، وما يعتريه فيها من أفراح وأتراح، بل وتعرّضها لغزوات الشيطان المتلاحقة، وتلاعب اليهود بالعورات، وعزفهم على وتر الأهواء، ومع ذلك أريد أن أطمئنك وأُخوِّفك في الوقت ذاته مادام تقليب القلوب بيد الله وحده.

يقول النبي ﷺ: **«إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرِّفه حيث يشاء»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك»**[2].

أخي.. لقد صليت اليوم خمس صلوات فأجبني صادقًا: كم مرة دعوت بهذا الدعاء؟! مع أنك أحوج إليه من رسول الله ﷺ، والفتن اليوم أعم وأطغى، والقلب أضعف وأوهن، فاحرص على ما بينك وبين الله، وصِل ما انقطع من حبالك معه حتى يثبِّتك على مرضاته اليوم ويهديك.

11 أطباؤه مرضى :

وطب القلوب من العلوم التي شحَّت في زماننا، ونتج عنه المرض الذي عمَّ وانتشر حتى أصاب كثيرًا من علمائنا وحاملي دوائنا؛ فحفظت أذهانهم الشروح والمتون، ونسيت جوارحهم الهدى والمنون، وقالت ألسنتهم إنهم عالمون ونطقت أفعالهم أنهم جاهلون.

---

(١) المدهش ص ٤٩٩.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ٤/ ٢٠٤٥ حديث رقم: ٢٦٥٤.

وأكثر علماء زماننا نوعان:

نوع منكبٌّ على حطام الدنيا لاهث وراءها، لا يمل جمعها، ويتقلب شهره ودهره في ملذاتها، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه، ولزمه خوف الفقر وحب التكاثر؛ وأكثر هؤلاء دُفِع إلى ذلك دفعا وأُريد له أن ينشغل بالسعي وراء لقمة العيش والكدِّ من أجل الرزق وأُعطوا في مقابل ذلك الكفاف؛ ليس غير الكفاف، ليظلوا دومًا غارقين في الإعصار، دائرين في الرحى، لا يبلغون ما يأملون، ولا يتركون السعي إلى ما يطمحون؛ وبذلك نسوا أسمى مهامهم وأشرفها وهي وراثة الأنبياء والقيام بوظيفة الرُّسل.

ونوع آخر اختصر الطريق على نفسه، ورضي بالحرام السهل، والشبهة المربحة، واتخذ الإيمان سلعة، يبيع بعضه أو كله، ويقبض الثمن توسعة وإكرامًا وإغداقًا وأموالاً، أهل تصنُّع ودهاء، وتزيُّن للمخلوقين، وتملُّق للحكام، يلتقطون الرُّخص ويفتون بها، ديدنهم المداهنة، وطريقتهم المنافقة؛ ولذا عمَّ البلاء وعزَّ الدواء، وقد سبق للعالم المجاهد عبد الله بن المبارك أن رأى أحد إخوانه يسلك أول هذا الطريق فقام بواجبه في النصح على الفور، ومدَّ له يد العون، وما أطيب سيرة رجل كابن المبارك كأريج الزهور تنقلها الريح من سهل إلى سهل ومن عصر إلى عصر متجاوزة حدود الزمان والمكان، لتنقل لنا أنه لما قيل له: إن إسماعيل بن علية قد ولي الصدقات كتب إليه ابن المبارك أبياتًا من الشعر تصلح لكل زمان سرى فيه هذا الداء فقال:

يا جاعل العلم له بازيا ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنونا بها بعد ما ... كنت دواءً للمجانين
أين رواياتك في سردها ... عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك والقول في ... لزوم أبواب السلاطين
إن قلت أُكرهتُ فماذا كذا ... زلَّ حمار العلم في الطين

فلما قرأ الكتاب بكى واستعفى(١).

(١) صفة الصفوة ٤/ ١٤٠.

وإن كان لموت القلب علامات تختلف من شخص إلى آخر ومن مهنة إلى أخرى؛ فإن أبرز علامات موت قلب العلماء وأشهرها هي ما عرفناه من مالك ابن دينار الذي قال:

«سألتُ الحسن: ما عقوبة العالم؟ قال: موت القلب. قلت: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة»[1].

وسمّاهم ربيعة الرأي بالسفلة وسفلة السفلة، فقد روى الإمام الجليل مالك ابن أنس:

«قال لي أستاذي ربيعة الرأي: يا مالك! من السفلة؟ قلت: من أكل بدينه، فقال: فمن سفلة السفلة؟ قال: من أصلح دنيا غيره بفساد دينه»[2].

أظهـــروا لله دينًا ... وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصلوا ... وله حجـــوا وزاروا
لو بـدا فوق الثريا ... ولهم ريـــش لطاروا[3]

عالم السوء الذي لا يعمل بعلمه فتنة ووبال على نفسه وغيره، ومَثَله مثل صخرة وقفت في فم النهر؛ لا هي تشرب ولا هي تدع الماء يخلص إلى الزرع.. ارحمونا يا علماء السوء!!

إن الفقيــه إذا غوى وأطاعه ... قومٌ غووا معه فضاع وضيَّعــا
مِثل السفينة إن هوت في لجة ... تغرقْ ويغرقُ كلُّ من فيها معا



(١) شعب الإيمان ٢/ ٢٩٦.
(٢) شعب الإيمان ٥/ ٣٥٧.
(٣) العقد الفريد ٣/ ١٧٠،١٦٩.

12 رسالة تحذير:

قال ﷺ: «أول ما يُرفع من الناس الخشوع»[(١)].

وهو إشارة إلى أن علم القلوب سيضمحل وسط طغيان علوم الدنيا، وأن أسراره ستضيع وبركاته ستذهب وسط الزحام، وهو أول فساد يمس الأرض بعد رسول الله، ليكون علامة على خبث الباطن، ومخالفة السر العلن، وعندها فساد كل شيء: تذبل القلوب لموت الأرواح فيها، وتقرأ الألسنة العربية القرآن وكأنها أعجمية، فلا فهم ولا تدبر ولا امتثال، وتنشغل الأمة - إن انشغلت - بمظهر العبادة دون جوهرها، وتهتم بأركانها دون مقاصدها، ويكثر البهرج الزائف وإن اتَّشح بوشاح القرآن. قال ﷺ: «أكثر منافقي أمتي قرَّاؤها»[(٢)].

وإذا فشا النفاق في أمة رأيتَ العجب العجاب، ليس في زماننا فحسب، بل وفي زمان من هم أزكى منا وأطهر، وليس بين العوام بل بين حفظة كتاب الله.

قال **النووي**: ما أخاف على ذِمِّي إلا القُرَّاء والعلماء، فاستنكروا منه ذلك، فقال: ما أنا قلته وإنما قاله **إبراهيم النخعي**، وقال **عطاء**: احذروا القُرَّاء واحذروني معهم، فلو خالفتُ أودَّهم لي في رمانة؛ أقول إنها حلوة ويقول إنها حامضة ما أمنته أن يسعى بدمي إلى سلطان جائر.

وقال **الفضيل** لابنه: اشتروا دارًا بعيدة عن القُرَّاء؛ ما لي والقوم! إن ظهرت مني زلة قتلوني، وإن ظهرت علي حسنة حسدوني[(٣)].

وهل هذا إلا لفساد الباطن وخبث السريرة؛ مع أن الله قد يهدي بقراءتهم الألوف من الناس، لكن ذلك لا يُغني عنهم من عذاب الله من شيء إن هم فسدت قلوبهم، وهذا ما سبق وحذَّرنا منه رسول الله ﷺ فروى عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله:

«إن أخوف ما أخاف على أمتي كلُّ منافق عليم اللسان»[(٤)].

---

(١) صحيح: رواه الطبراني عن شداد بن أوس وانظر حديث رقم: ٢٥٧٦ في صحيح الجامع.

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمرو، وأحمد والطبراني عن عقبة بن عامر، والطبراني وابن عدي عن عصمة بن مالك كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٢٠٣.

(٣) فيض القدير ٢/ ٨٠.

(٤) صحيح: رواه أحمد عن عمر بن الخطاب كما في صحيح الجامع حديث رقم: ١٥٥٤.

قال المناوي شارحًا:

«أي كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها ذا هيبة وأبهة يتعزز ويتعاظم بها؛ يدعو الناس إلى الله ويفرُّ هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويُظهِر للناس التنسك والتعبد ويسارر ربه بالعظائم، إذا خلا به ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذَّر منه الشارع ﷺ هنا حذرا من أن يخطِفك بحلاوة لسانه، ويُحرِقك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجَنانه»(١).

وسبب تحديث عمر ﷺ بهذا الحديث أن الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة كان فاضلاً فصيحًا مفوَّها، فقدم على عمر فحبسه عنده سنة يأتيه كل يوم وليلة، فلا يأتيه عنه إلا ما يحب، ثم دعاه فقال: تدري لم حبستك عني؟! قال: لا. قال: إن رسول الله ﷺ حدَّثنا فذكر الحديث، ثم قال: «خشيتُ أن تكون منافقًا عليم اللسان، وإن رسول الله ﷺ حذَّرنا منه، وأرجو أن تكون مؤمنًا، فانحدر إلى مصرك»(٢).

وهو ما يؤدِّي حتمًا إلى عدم تأثير الموعظة في القلوب لأن الرامي غير ماهر والسهم غير نافذ، مما دعا الحسن البصري - رحمه الله - إلى أن يتهم قلبه أو قلب الواعظ الذي وعظه حين لم تؤثِّر فيه موعظته قائلاً له: «يا هذا! إن بقلبك لشرًّا أو بقلبي».

13 أعمال القلوب أولى وأغلى:

لعمل القلب المكانة العظمى والمنزلة الأسمى في دولة الإيمان؛ لذا ذكر العلماء أن عمل القلب أهم من عمل الجوارح، قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يُميَّز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميَّزت بينهما؟! وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟! وعبودية القلب أعظم من عبودية

(١) فيض القدير ٢/ ٤١٩.
(٢) فيض القدير ٢/ ٢٢١.

الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في كل وقت»[(١)].

وقال في موضع آخر:

«فعمل القلب هو روح العبودية ولبها، فإذا خلا عمل الجوارح منه كان كالجسد الموات بلا روح»[(٢)].

وقال أيضًا:

«فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها»[(٣)].

ولهذا يسبق أصحاب القلوب أصحاب الجوارح بمراحل وعلى الدوام، «فالكيِّس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتُطيِّب السير، والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإن ساواه في همته تقدَّم عليه بعمله»[(٤)].

14 عليه مدار الأجر وتفاوته:

فتتفاوت الأجور في كل عمل حسب محتوى القلوب، ففي الصلاة: قد يصلي الرجلان في صف واحد وبين ثوابهما كما بين السماء والأرض، وقد ينفق الأخوان مبلغًا واحدًا فينال أحدهما أجرًا واحدًا بينما الآخر ينال سبعمائة أجر أو أكثر، وقد يدرك قلبان ليلة القدر فيتضاعف أجر أحدهما عن الآخر أضعافًا مضاعفة، بل حتى في الجهاد؛ ففي غزوة مؤتة لما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدَّم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم أخذ سيفه

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٧١٠.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) بدائع الفوائد ٣/ ٧٠٥.
(٤) الفوائد ١/ ١٤٢.

وتقدم فقاتل حتى قُتِل ﷺ. قال ﷺ: «لقد رُفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه، فقلت: عمَّ هذا؟! فقيل لي: مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ثم مضى»[1].

لحظة واحدة من عمل القلب كانت سببًا في تأخر ابن رواحة، ولمحة من طرْف العين أنزلته دون صاحبيه، ليحوز شهادة دون شهادة، وفوزًا دون فوز، وهذ كله من عمل لحظة!! لكنها لحظة قلبية، لكن كيف بمن غرق قلبه الأيام والأعوام في غفلات متتابعات وسكرات متلازمات؟! تُرى كم يتأخر في الجنة؛ هذا إن دخلها!!

لذا أدرك ابن عطاء السكندرى قيمة عمل القلب فانطلق يرسي قاعدة وزن الأعمال، وهي قاعدة سارية المفعول في زمانه وغير زمانه:

«ما قلَّ عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب»[2].

وأكَّدها يحيى بن معاذ في قوله الأخَّاذ:

«مفاوز الدنيا تُقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطع بالقلوب»[3].

بل وشهد لأعمال القلوب من قبل هؤلاء جميعًا الصحابي المُعلِّم عبد الله بن مسعود ﷺ حين قال مخاطبًا جموع التابعين المجدين في عبادات الجوارح: «أنتم أطول صلاة، وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله، وهم كانوا أفضل منكم». قيل له: بأي شيء؟ قال: «إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم»[4].

15 رفعة الدنيا وشرف الآخرة:

واسمع كيف رفعت القلوب قوما كانوا خدمًا وعبيدًا، وسمت بذكرهم فوق السحاب، ووالله لو كانت قلوبهم غير نقية أو خالصة لطمس الله ذكرهم وبعثر علمهم ومحا سيرتهم، أو قرنها بكل

(١) فقه السيرة ص ٣٦٨، وقد رواه ابن إسحاق منقطعًا.
(٢) شروح الحكم العطائية ص ١٨٤.
(٣) حلية الأولياء ١٠/ ٥٢.
(٤) صفة الصفوة ١/ ٤٢٠، ٤٢١.

خبيث وسوء، ولكنه القلب الحي يظل ينبض بعد موت صاحبه يتغنى بالذكر الجميل والسيرة العطرة، بذا نطق الأمير شوقي فقال:

الناس صنفان: موتى في حياتهم   وآخرون ببطن الأرض أحياءُ

قال ابن أبي ليلى:

«قال لي عيسى بن موسى وكان جائرًا شديد العصبية للعرب: من كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان.

قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، ومجاهد بن جبر، وسعيد ابن جبير، وسليمان بن يسار. قال: فما هم؟ قلت: موالي.

فتغيَّر لونه، ثم قال: فمن كان أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي، وابن أبي الزناد، قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي.

فاربدَّ وجهه ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس، وابنه، وهمام بن منبه. قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالي.

فانتفخت أوداجه فانتصب قاعدًا، ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني. قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى.

فازداد تغيظًا وحنقًا، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران. قال: فما كان؟ قلت: مولى.

قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قلت: فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عُيينة، وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم، والشعبي. قال: فما كانا؟ قلت: عربيان. قال: الله أكبر! وسكن جأشه»[1].

لله درُّهم.. عبيدٌ أشرف من سادة، وهم تناطح الجبال؛ ونجوم ساطعة وإن رآهم الجاهل في أدنى سلم المجتمع أو في القاع، وملوك آخرة ولو لم يجدوا ما يسد الرمق، والسر من وراء هذا كله القلب، وما يضرهم أن يكونوا من الحطام الفاني والعز الراحل فارغي اليد إذا كانوا من كنوز

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٣٢٨، ٣٢٩، تحقيق محمد سعيد العريان، ط دار الفكر.

الشفاء ونوافع الدواء ممتلئي القلب؟!

وصدق إقبال وهو يجزم:

بامتثال الأمر يعلو من رَسَب وهوى الطاغي ولو كان اللهب[(١)]

16 العلم الحقيقي:

وهو علم القلوب، وقد فهم سلفنا الصالح أهمية هذا علم القلوب على سائر العلوم، فقال عنه أبو حامد الغزالي: «وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة»[(٢)]، وقال عمرو بن قيس الملائي[(٣)]: «حديث أُرقِّق به قلبي، وأتبلَّغ به إلى ربي، أحب إليَّ من خمسين قضية من قضايا شُرَيح»[(٤)] بل لما قيل للإمام أحمد: من نسأل بعدك؟! قال عبد الوهاب الوراق. قيل له: إنه ليس له اتساع في العلم قال: إنه رجل صالح مثله يُوفَّق لإصابة الحق، وسُئل كذلك عن معروف الكرخي؛ فقال: كان معه أصل العلم: خشية الله[(٥)].

واستُفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال: «وهل رأيت فقيهًا قط؟! الفقيه: القائم ليلة الصائم نهاره الزاهد في الدنيا»[(٦)].

وعن ليث قال: «كنت أسأل الشعبي فيُعرِض عني ويجبهني بالمسألة، فقلت: يا معشر العلماء! يا معشر الفقهاء! تروون عنا أحاديثكم وتجبهوننا بالمسألة، فقال الشعبي: يا معشر العلماء! يا معشر الفقهاء! لسنا بفقهاء ولا علماء، ولكنا قوم قد سمعنا حديثًا، فنحن نحدثكم بما سمعنا، إنما الفقيه من ورع عن محارم الله، والعالم من خاف الله»[(٧)].

---

(١) ديوان الأسرار والرموز ص ٣٨، ط دار الأنصار، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

(٢) الإحياء ١/ ٢١.

(٣) قال الثوري: عمرو بن قيس هو الذي أدَّبني، علمني قراءة القرآن والفرائض، وكنت أطلبه في سوقه، فإن لم أجده، ففي بيته، إما يصلِّي، أو يقرأ في المصحف، كأنه يُبادر أمرًا يفوتُه، فإن لم أجده، وجدتُه في مسجدٍ قاعدًا يبكي، وأجدُه في المقبرة ينوح على نفسه، وقد ازدحم في جنازته خلق أبيض لم يُرَ في خلقتها وحسنها وعليهم ثياب بيض، فلما صلوا عليه فُقِدوا!!.

(٤) حلية الأولياء ٥/ ١٠٢، ١٠٣.

(٥) جامع العلوم والحكم ١/ ٩٥.

(٦) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٨٩.

(٧) الحلية ٤/ ٣١١.

وليس الوصول إلى الله والدار الآخرة بكثرة العلم والرواية بل بثمرة العلم والهداية، وما قيمة علم لا يدفع صاحبه إلى العمل؟! وهل هو إلا حجة عليه ودليل إدانته وعلامة عدم اكتراثه بربه؟! لذا كان نهج السلف تجهيز تربة القلب وإعدادها جيدًا قبل أن يبذروا فيها أي بذرة علم. قال **سفيان الثوري**: «كان الرجل لا يطلب الحديث حتى يتعبَّد قبل ذلك عشرين سنة»[(١)].

يا من تباعد عن مكارم خلقه ... ليس التفاخر بالعلوم الزاخرة
من لم يهذِّب علمُه أخلاقَه ... لم ينتفع بعلومه في الآخرة

لن ينتفع وسيخسر ويُخبر عن نفسه عند انكشاف غطائه وطلب الرسل له لقدومه على ربه فقال وصدق:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيَّعتُ أيامي
أمنية ظفرَت نفسي بها زمنًا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

المحتالون

وإذا مرِض قلب العالم استخدم علمه في حِيَل يظن بها أن يتخلص من حكم الشرع وعاقبة البغي وكأن الله غير مطلع عليه، وقد انتشرت هذه الحيل عندما وهن الإيمان في الصدور واستثقل الناس أحكام الشرع؛ حتى أفرد **ابن القيم** في كتابه إغاثة اللهفان فصولاً عن الحيل وأقسامها، واسمع إلى واحدة من هذه الحيل يرويها لك **أبو حامد الغزالي**:

«وحُكي أن **أبا يوسف القاضي** كان يهب ماله لزوجته آخر الحول، ويستوهب مالها إسقاطًا للزكاة، فحُكِي ذلك **لأبي حنيفة** رحمه الله؛ فقال: ذلك من فقهه، وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا، ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية، ومثل هذا هو العلم الضار»[(٢)].

لذا كان عليك وأنت تدرس أي علم من علوم الشرع اليوم أن تقرأه بروح جديدة، وقلب

(١) حلية الأولياء ٦ / ٣٦١.
(٢) إحياء علوم الدين ١/ ١٨.

كأنه وُلِد اليوم ولم يتلطَّخ بخطيئه بعد، وخذ مثلاً على ذلك: عِلم السيرة الذي حثّ الأستاذ البهي الخولي على قراءته بهذه الطريقة الجديدة باستخدام قلبك قبل عينك، وبروحك وعاطفتك مع عقلك، وأرشدك إلى الطرح الحي فقال:

«أن تُكثِر مصاحبة مولانا رسول الله ﷺ في سيرته المطهرة مصاحبة وجدانية عميقة، تجعلك في مجلسه - عليه السلام - إذا جلس، وفي ركابه إذا ركب، وفي معيته إذا سار، وتُسمعك قوارع وعظه، وتُسرِّب إلى قلبك رقة مناجاته إذا ناجى ربه في جوف الليل، أو في خلوات النهار، وتصل عواطفك بعواطفه صلوات الله عليه، حتى تكاد تشعر بخلجات قلبه العظيم إذا غضب، وبشاشته وسماحته إذا تسهل لشيء وتهلل، وتسلكك في صفوف المؤمنين به، فأنت معهم حين يسامون العذاب، تألم كما يألمون، وتهاجر كما يهاجرون، تهاجر معهم بوجدانك وخيالك وعواطفك إلى الحبشة أو غيرها من بلاد الله، فإذا شُرِع له الجهاد في المدينة، فأنت تحت لوائه المُظفَّر، تشهده ممتطيًا صهوة جواده، وقد لبس لامة الحرب، وتقلَّد السيف، وأخذ برمحه، فهو فارس الميدان، وقائد الفرسان، تزهر عيناه الشريفتان من تحت مغفره، فما يصعد شرفًا ولا يهبط واديًا، ولا ينال من عدو نيلاً إلا وأنت معه عليه السلام، تكاد تضرِب إذا ضرب، وتُقدِم إذا أمر، وتفديه بما تملك، وتحوطه بكل ما في سويداء قلبك من حب وعاطفة»[(١)].

17 شرط الطبيب الناجح:

قال ابن القيم في كتابه الطب النبوي عندما تكلم عن الطبيب الحاذق وذكر أنه يجب أن يراعى في علاجه عشرين أمرًا كان منها:

«أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان، فإن انفعال البدن وطبيعته عن القلب والنفس أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفًا بأمراض القلب والروح وعلاجها كان هو الطبيب الكامل، والذي لا خبرة له بذلك وإن كان حاذقًا في علاج الطبيعة وأحوال البدن نصف طبيب، وكل طبيب لايداوي العليل بتفقد قلبه

---

(١) تذكرة الدعاة ص ٢٠٤، ط مكتبة التراث.

وصلاحه، وتقوية أرواحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والإحسان والإقبال على الله والدار الآخرة فليس بطبيب بل مُتَطبِّب قاصر»[(١)].

إن غاية ما وصل إليه طب الدنيا أنه يصف الدواء، لكنه لا يضمن لك حتمية الشفاء، أما دواء الآخرة فالله هو الذي ضمن لمن تناوله تمام الشفاء، ولو علم الناس ما للطاقة الروحية من فوائد علاجية على الجسم والنفس لتخلو عن استعمال كمية وافرة من الأدوية التي في معظمها لا تعالج إلا الأعراض، ولا تنفذ إلى الأسباب، وقد كان سلفنا الصالح أدرى ما يكونون بذلك، فأرشدوا أطباء الدنيا إلى ما غاب عنهم من طب الآخرة، وعلَّموهم أن راحة قلب للمريض وسعادته لها أعظم الأثر في محاصرة داء الجسد ودفع بلائه.

قال ابن القيِّم وهو يصف حال شيخه ابن تيمية:

«وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأني مرض، فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك؛ وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قويت الطبيعة فدفعت المرض، فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم، فتقوى به الطبيعة، فأجد راحة، فقال: هذا خارج عن علاجنا»[(٢)].

18 قلب يقلب المعركة:

قد يدخل قلبٌ المعركة فيقلب الهزيمة الساحقة نصرًا مبينًا خاصة إن كان من نوع قلب أبي طلحة ﷺ الذي شهد له النبي ﷺ: «**صوت أبي طلحة في الجيش خير من ألف رجل**»[(٣)].

صوته فحسب بألف فكيف بسيفه؟! وهل بلغ هذا إلا بقلبه وما يحوي قلبه؟ وهل هذا إلا نتاج شجاعته وإقدامه وثباته وإيمانه وهي كلها أعمال قلوب؟! رحمة الله عليه وكأنه يشرح بفعله معنى قول ابن الجوزي: «الشجاع يلبس القلب على الدرع، والجبان يلبس الدرع على القلب»[(٤)].

---

(١) الطب النبوي ص ١٣٩، ١٤٠، ابن قيم الجوزية، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
(٢) روضة المحبين ١/ ٧٠.
(٣) صحيح: رواه سمويه عن أنس كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٣٨٠٠.
(٤) المدهش ص ٤٦٥.

ليدخل بذلك في زمرة من عناهم رسول الله ﷺ بقوله: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قلة»[١].

ومعنى آخِر مقطعٍ في الحديث: «ولا تُهزَم اثنا عشر ألفًا من قلة»: أن هزيمة أي جيش إن بلغ هذا العدد لا تكون بسبب قلته لكن بسبب قلوب جنوده، فهل علمتم الآن سبب غثائية الأمة وكثرة زبدها وضعف قوتها ووهن عزيمتها وتبوئها ذيل الأمم؟

وفي المقابل: قد ينقلب قلب نصر الأمة هزيمة ماحقة، فإن مرضًا واحدًا من أمراض القلب وهو الوهن كان كافيًا لتسلط حفنة من اليهود لا تجاوز ملايينها عدد أصابع اليدين على مقدَّرات أمة فاق عددها الألف ومائتي مليون مسلم، إن قلوبنا هي سلاحنا الحقيقي في معركتنا الفاصلة مع العدو؛ لذا كانت ولا زالت هي هدف العدو الأساسي ومرمى سهامه الوحيد، يبث فيها السم ليتفشى فيها الداء؛ فتبقى دومًا طريحة فراش الشهوات والأمنيات، وتترك بوابة الأمة مفتوحة على مصراعيها لغارات العدو بعد أن رفعت رايتها البيضاء مستسلمة.

ويعضِّد هذا قول رسولنا الكريم ﷺ: «صلاح أول هذه الأمّة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»[٢]، وهي كما ترى ليست أعمال جوارح بل أعمال قلوب، فاعلم قدر قلبك وأعطه ما يستحق واعتن به يا غافلا عن أثمن ما يملك!! نصر الأمة في قلب وهزيمتها من قلب، فأي القلبين قلبك؟!

19 مستودع الأخلاق والمشاعر:

إن قلب المرء هو الذي يتحكم في أخلاقه ويكظم انفعالاته ويضبط سلوكه ويهذِّب الشارد من طباعه، وهل تسكن أخلاق الأمانة والوفاء والصبر والحلم والرحمة والعفو والصدق والعدل بيتًا غير القلب؟! ولذا قال الأحنف بن قيس:

ولربما ضحك الحليم من الأذى ... وفؤاده من حرِّه يتأوَّه

(١) صحيح: رواه الترمذي وأبو داود والحاكم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٣٢٧٨.
(٢) حسن: رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في ص ج هـ رقم: ٣٨٤٥.

ولربما شَكِل الحليم لسانه حذر الجواب وإنه لمُفوَّه[(١)]

فحُسْن الخلق من حياة القلب، وسوء الخلق من مرض القلب أو موته، وقد كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا؛ ولذا فقد كان قلبه أعمر القلوب بالحياة حتى أيقظ قلوب كل من كان حوله في حياته وبعد رحيله.

قال أبو حامد الغزالي:

«القلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس، وكل معنى خطير، أولها: العقل، وأجلُّها: معرفة الله تعالى التي هي سبب سعادة الدارين، ثم البصائر التي بها التقدُّم والوجاهة عند الله تعالى، ثم النية الخالصة في الطاعات التي بها يتعلَّق ثواب الأبد، ثم أنواع العلوم والحكم التي هي شرف العبد، وسائر الأخلاق الشريفة الخصال الحميدة التي بها يحصل تفاضل الرجال، وحُقَّ لهذه الخزانة أن تُحفظ وتصان عن الأدناس والآفات، وتُحرس وتُحرز من السُّرَّاق والقُطَّاع، وتُكرم وتُجَلّ بضروب الكرامات؛ لئلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس، ولا يظفر بها - والعياذ بالله - عدو»[(٢)].

إن قلبًا عزيزًا يمتلئ بالحزن سوف يرسل الأوامر إلى الوجه ليبتسم حتى لا يعلم الناس ما به من أذى، فإن علموا ما به ظلَّ متألمًا بذُلِّ الشكوى محترقًا بنار شفقة الناس عليه.

وهكذا كان قلب العزيز النبيل أسامة بن منقذ حين قال:

نافقتُ قلبي فوجهي ضاحكٌ جذل طلق وقلبي كئيب مُكْمد باكِ

وراحة القلب في الشكوى ولذتها لو أمكنت لا تساوي ذلة الشاكي

إن القلب والباطن هو من يضبط ويتحكم في الجوارح والظاهر ليظهر أمام الناس ما يسمح به القلب فحسب، ويأذن به ويرضاه، واسمع مرة ثانية إلى قول أسامة بن منقذ وتمثيله الجميل:

---

(١) العقد الفريد ٢/ ١٤١.

(٢) منهاج العابدين ص ٩٤، ط دار الحكمة الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، تحقيق وتعليق موفق فوزي الجبر.

انظر إلى حسن صبر الشمع يُظهِرُ للرائين نورًا وفيه النار تستعِر
كذا الكريم تراه ضاحكًا جذلا وقلبه بدخيل الغم منفطر

20 بين الموت والحياة:

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وهذا مثل ضربه الله للذي هداه بعد الضلالة وشبَّهه بأنه كان كالميت الذي أحياه الله، وجعل له نورًا يمشي به في الناس مستضيئًا به، فيميز بعضهم من بعض، ويفصل بين أبيضهم وأسودهم وجميلهم وقبيحهم ومن يعرف منهم ومن لا يعرف، ويسير فلا يتعثَّر أو ينكب على وجهه، ويعرف طريقه بل يساعد غيره على معرفة طريقه: يرشد العميان ويهدي الحيران، أهذا مثله مثل من بقي على الضلالة المتخبط في الظلمة لا ينفك منها ولا يتخلص؟!

ولكي تفهم الفارق جيدًا بين الفريقين وترى التناقض الكبير والبون الشاسع بين طريقين، فاسمع ما قاله زيد بن أسلم والإمام السُّدِّي في تفسير هذه الآية: «﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾: عمر ﷺ، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أبو جهل لعنه الله»[(١)].

إنه الفارق بين السماء والأرض، لكن الصحيح أنها عامة في كل مسلم وكافر، أو ضالٍّ ومهتدٍ، ووصف الموت هذا أحد عشرة أوصاف وصف الله بها قلوب الكافرين في القرآن.
قال الإمام القرطبي: «وقال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرين والموت والقساوة والانصراف والحمية والإنكار...

فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[النحل: ٢٢]، وقال في الحمية: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[التوبة: ١٢٧]، وقال في القساوة: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ

(١) القرطبي ٧/ ٧٠.

قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال في الموت: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال في الرين: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال في المرض: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال في الضيق:﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[الأنعام:١٢٥]، وقال في الطبع: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة:٨٧]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾[النساء: ١٥٥]، وقال في الختم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]»(١).

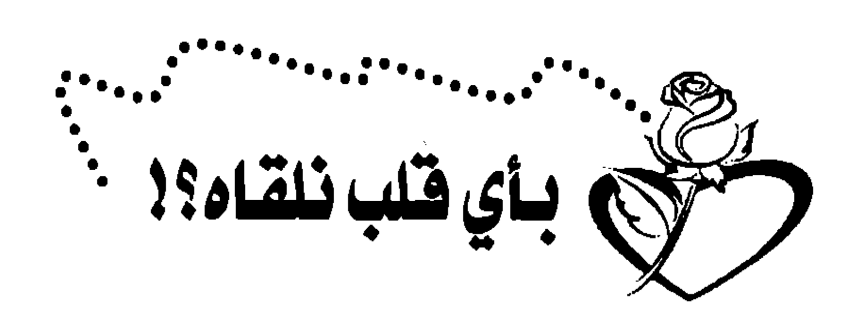
وفي مقابل وصف: ميت؛ أطلق الله على كل من قُتِل جهادًا في سبيله لفظ: حي، بل حرَّم علينا أن نطلق عليهم لقب أموات، وما ذلك إلا لحياة قلبه، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

فنهانا سبحانه أن نطلق على الشهيد كلمة: ميت، فهو حي في حياته وبعد رحيله، لذا قال النبي ﷺ عن طلحة بن عبيد الله وهو حي: «طلحة ممن قضى نحبه».

فالحي حي في حياته وبعد مماته، وميت القلب ميت في حياته وبعد موته، وحياة قلب الشهيد توحي بها معنى كلمة شهيد والتي تعني أنه شهد على الغيب حتى صار عنده شهادة، ولأنه رأى بقلبه ما لا يراه الناس إلا بعد موتهم؛ فأقدم على التضحية بأغلى ما يملك؛ كوفئ باستمرا إطلاق صفة الحياة عليه حتى بعد الموت.




٢
بأي
قلب
نلقاه؟!
رُدَّ إليّ
روحي



تُرى لو قبضنا الله الآن فبأي قلب نلقى الله؟! واسأل نفسك اليوم صادقًا: قلبك معك أم عليك؟! عندك أم عند غيرك؟!

ومن العجب أن الرجل فينا كلما لقي أخاه أو صاحبه سأله عن أولاده وعن عمله وعن أهله وعن صحته وعن تجارته وعن كل شيء، لكنه لا يسأله أهم سؤال: ما حال قلبك؟

ولو سُئل أحدنا هذا السؤال لاستغرب أشد الاستغراب هذا إن فهمه في الأصل، فأي القلوب قلبك؟! أم أنك لا تملك قلبًا من الأساس؟!

قال ابن القيِّم:

«اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن؛ فسل الله أن يمن عليك بقلب فإنه لا قلب لك»[1].

ولذا لما قابل رجلٌ قلبًا من القلوب الحية من أمثال الربيع بن خيثم وسأله عن حاله انصرف عقل الربيع أول ما انصرف أنه يسأله عن قلبه وحياة روحه، فلما قال له قائل: كيف أصبحت؟

قال: «أصبحنا مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا»[2].

فكم منا يفهم ما فهم الربيع، ويجيب مثل ما أجاب؟! فالحياة حياة القلب، والموت موت القلب، والمرض مرض القلب، وإلى أقسام القلوب نتجوَّل في هذه الصفحات.

---

(١) الفوائد ص ١٤٨، ١٤٩.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٠٧.



1 إذا ذُكِر الله وجل قلبه:

ولا تزال قصة الطبيب المسلم الذي عاد أحد مرضاه قديمًا دالة على معنى وجل القلب، وذلك أنهم حكوا أن طبيبًا ذهب ليتفقد أحد المرضى، والذي كان طريح الفراش لا يُدرى سبب مرضه، ولا يُعرف له علة ظاهرة، فتناول الطبيب يد المريض ليقيس النبض، وأخذ أثناء ذلك يسأل من حوله عن أحواله، ثم عرَّج فسأل عن جيرانه، فأخذ النبض عندها يسرع شيئًا فشيئًا، حتى إذا سأل عن جار بعينه وهنا أسرع النبض أكثر؛ حتى إذا سأل عن أبناء هذا الجار اضطربت أوصال المريض وازداد النبض علوا، فلما ذُكِر أن له ابنة حسناء وأتى ذكر اسمها سَرَت الرعشة من نبضه إلى جسده الذي بدأ يرتجف، وبصره الذي زاغ، ووجهه الذي أمطر العرق، فقال الطبيب لأهله عندها: هذا ليس بمريض!! هذا رجل عاشق!!

ولله المثل الأعلى! أيحضر القلب عند ذكر الحبيب ولا يحضر عند ذكر المجيب؟! أتخشع الجوارح لذكر المخلوق ولا تبالي بذكر الخالق؟! أينقطع الفؤاد كمدًا لغياب فانٍ وزائل ولا يبالي بهجران باقٍ ودائم؟!

من علامات المحب انزعاجه عند ذكر محبوبه، فإذا أردت اختبار قلبك لتعرف أي القلوب هو؟! فاسأل نفسك: أيحضر القلب عند ذكر ربه؟ أيخشع لسماع كلامه؟ أينصت لترديد أذانه؟ أيسرع ليلبِّي نداءه؟! أبكى ليلة خوفًا من عذابه؟ أضطرب يومًا لاحتمال طرده من جواره؟ أقلق من خاتمة أعماله؟ كن صادقًا وإن لم يطلع عليك أحد، فإنه سبحانه أدرى منك بسريرتك وأعلم بك منك، فاعرف موقعك من الإيمان كما سبق وعرف الحسن البصري لما سأله رجل فقال: يا أبا سعيد! أمؤمن أنت؟ فقال له: «الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن، وإن كنت تسألني عن

قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤] فوالله ما أدري أنا منهم أم لا»(١).

أحياء القلوب إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًّا، بينما غيرهم خرَّ عليها صمًّا وعميانًا، لأنهم أصحاب حياة يسمعون بقلوبهم قبل أسماعهم؛ ولذا قال ابن زيد في قوله ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢] واعية: «إنما تعي القلوب ما تسمع الآذان من الخير والشر»(٢).

قال ابن القيِّم:

«فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه والرسول الموصل إليه العلم؛ كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن حقها أن توصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعى القلب»(٣).

2 له في كل شيء عبرة:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، والمتوسِّمون هم المتفكرون المعتبرون الذين يتوسمون في الأشياء ويتفكرون فيها ويعتبرون، ويدققون نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته.

قال العلماء: التوسُّم من الوسم وهي العلامة التي يُستدل بها؛ يُقال: توسَّمت فيه الخير إذا رأيت ملامح ذلك فيه، ومنه قول عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ:

إني توسَّمت فيك الخير أعرفه   والله يعلم أني ثابت البصر

---

(١) القرطبي.
(٢) جامع البيان ١٢/ ٢١٢.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/ ١٢٥.

واتسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها، والواسم: الناظر إليك من فرقك إلى قدمك، وأصل التوسم التثبت والتفكر مأخوذ من الوسم، وهو التأثير بحديدة في جلد البعير وغيره.

والإشارة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى جميع ما تضمنته القصة التي بدأت بقوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، ففيها من الآيات الكثير: آية نزول الملائكة في بيت إبراهيم عليه السلام كرامة له، وبشارته بغلام عليم، وإعلام الله إياه بما سيحل بقوم لوط، ونصر الله لوطًا بالملائكة، وإنجائه - عليه السلام- وآله، وإهلاك قومه وامرأته لمناصرتها إياهم، وآية عمى أهل الضلالة عن أنوار الهداية، وآية غضب الله على المُصِرِّين على عصيان الرسل، وفي هذا إهانة للذين لم تردعهم العبر بأنهم دون مرتبة النظر، وتعريض بمشركي مكة الذين لم يتعظوا؛ بأن يحل بهم ما حلَّ بالأمم من قبلهم التي عرفوا أخبارها ورأوا آثارها، وتعريض كذلك بمن سلك نفس الطريق من العصاة والغافلين.

للفراسة رجالها

ولا تكون الفراسة إلا بتفريغ القلب من هَمِّ الدنيا، وتطهيره من أدناس المعاصي وسيئ الأخلاق وفضول المباحات، وعندها يجري على مرآة القلب كل حق لا خيال، لأنه تقلب بين آيات الحق وأنوار الطاعات فانهالت عليه الفيوضات والإشراقات، ومثل ذلك قول ابن عباس ﷺ: ما سألني أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه.

وما رُوِي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فقال أحدهما: أراه نجارًا، وقال الآخر: بل حدادًا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال: كنت نجارًا وأنا اليوم حداد!!

ورُوي عن جنذب بن عبد الله البجلي أنه أتى على ... يقرأ القرآن فوقف فقال: من سمَّع سمَّع الله به، ومن راءى راءى الله به، فقلنا له: كأنك عرَّضت بهذا الرجل، فقال: إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم ويخرج غدًا حروريًّا؛ فكان رأس الـ... ـة واسمه مرداس.

ورُوِي عن الحسن البصري أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال: هذا سيد فتيان البصرة إن لم يُحدِث، فكان من أمره من القدَر ما كان حتى هجره عامة إخوانه.

وقال لأيوب: هذا سيد فتيان أهل البصرة ولم يستثن.

ورُوِي عن الشعبي أنه قال لداود الأزدي وهو يماريه: إنك لا تموت حتى تُكوى في رأسك وكان كذلك.

ورُوي أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل عليه قوم من مذحج فيهم الأشتر فصعَّد فيه النظر وصوَّبه وقال: أيهم هذا؟ قالوا: مالك بن الحارث فقال: ما له قاتله الله! إني لأرى للمسلمين منه يومًا عصيبًا، فكان منه في الفتنة ما كان.

ورُوِي عن عثمان بن عفان ﷺ: أن أنس بن مالك دخل عليه وكان قد مرَّ بالسوق، فنظر إلى امرأة فلما نظر إليه قال عثمان: يدخل أحدكم علي وفي عينيه أثر الزنا! فقال له أنس: أوحيًا بعد رسول الله ﷺ؟! فقال: لا! ولكن برهان وفراسة، وصدق، ومثله كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين[1].

من ألوان الفراسة

التفاعل مع الأحداث اليومية: صاحب القلب الحي إذا رأى ظلمة حسبها ظلمة القبر، وإذا وجد لذة ذكر نعيم الجنة، وإذا صرخ من ألم خاف عذاب النار، وإذا شمَّ شواء ذكر جهنم، وإذا رأى ضاحكًا على معصية رقَّ لحاله في الآخرة، وإذا رأى مطيعًا على فاقة استبشر بنعيمه في الجنة.

كان عمر بن عبد العزيز من أرباب القلوب الحية وكان واقفًا مع سليمان بن عبد الملك، فسمع سليمان صوت الرعد فجزع ووضع صدره على مقدِّمة الرحل، فقال عمر وهو المعتبر المتدبر بكل ما حوله: هذا صوت رحمته فكيف إذا سمعت صوت عذابه؟![2]

---

(١) القرطبي ١٠/ ٤٤ – طبعة دار الشآم للتراث.
(٢) الإحياء ٢/ ١٤٧.

ومثله الحسن البصري الذي روى عنه سلام: «أُتي الحسن بكوز من ماء ليفطر عليه، فلما أدناه إلى فيه بكى؛ وقال: ذكرت أمنية أهل النار؛ قولهم: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وذكرت ما أُجيبوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠]»[(١)].

إن حياة القلب تمنح العين حياة فوق الحياة وبصيرة فوق البصر، فإذا هي مثل عين أبي الفرج بن الجوزي الذي أبصر وتبصَّر فقال حاكيًا إحدى تأملاته التي لا يدركها إلا من كان مثله:

«رأيت كل من يعثر بشيء أو يزلق في مطر يلتفت إلى ما عثر به فينظر إليه طبعًا موضوعًا في الخلق، إما ليحذر منه أن جاز عليه مرة أخرى أو لينظر - مع احترازه وفهمه - كيف فاته التحرز من مثل هذا، فأخذت من ذلك إشارة وقلت: يا من عثر مرارًا.. هلا أبصرت ما الذي عثَّرك فاحترزتَ من مثله، أو قبَّحت لنفسك - مع حزمها - تلك الواقعة»[(٢)].

قراءة الرسائل الربانية: وصاحب القلب الحي إذا وفَّقه الله لطاعة سأل نفسه: بأي عمل صالح أثابني الله بهذه الطاعة؟ أبدعوة إلى خير أم بصلاة ليل أم بسعي في حاجة مسلم أم بعفو عن مسيء أم بإنظار معسر؟! فيراجع شريط ذكرياته ليُكرِّر صالح أعماله فينعم بنفس الثواب مرات كثيرة، وقد جعل الله ثمارًا عديدة تربو على الخمسين لمن حرس ثغور قلبه من عدوه، ولم يُدخِل منها سوى الحسنات الموالية للقلب والعاملة على مصلحته ومنفعته، لكن قضى الله أن لا يتذوق لذة هذه الثمرات إلا من زكى قلبه وسمت روحه؛ ولذا قال ابن القيم وهو يحاول أن يقنعك بجدوى هذه الحراسة وفاعلية ترك الذنوب:

«لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا إقامة المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصيانة المال الذي جعله الله قِوامًا لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق، وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش، وراحة البدن، وقوة القلب، وطيب النفس، ونعيم القلب، وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفُساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، وعز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير عليه الرزق من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب

(١) حلية الأولياء ٦/ ١٨٩.
(٢) صيد الخاطر ص ١٣.

الفسوق والمعاصي، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن في الناس، وكثرة الدعاء له، والحلاوة التي يكتسبها وجهه، والمهابة التي تُلقى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذي وظُلِم، وذبِّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرب الملائكة منه، وبُعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه، وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت، بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَر الدنيا في قلبه، وكِبَر الآخرة عنده، وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة الإيمان، ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له، وإقباله عليه، وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه»(١).

لكن.. تُرى هل يلمح هذه المكافآت أحد غير أحياء القلوب؟! وهل يقوم بشكرها غير من يتمتَّعون بالرقة الإيمانية والحساسية النورانية والفطرة النقية التي لم تتدنس بعد؟

ومن أحياء القلوب هؤلاء وأرباب المشاعر الرقيقة هذه: يحيى بن معاذ الذي لمح ذلك بما حباه الله من بصيرة إيمانية ثاقبة فقال:

«إن العبد على قدر حبه لمولاه يُحبِّبه إلى خلقه، وعلى قدر توقيره لأمره يُوَقِّره خلقه، وعلى قدر التشاغل منه بأمره يشغل به خلقه، وعلى قدر سكون قلبه على وعده يطيب له عيشه، وعلى قدر إدامته لطاعته يُحلِّيها في صدره، وعلى قدره لهجه بذكره يديم ألطاف بِرِّه، وعلى قدر استيحاشه من خلقه يُؤنسه بعطائه، فلو لم يكن لابن آدم الثواب على عمله إلا ما عُجِّل له في دنياه لكان كثيرا»(٢).

العقوبات إشارات

وفي المقابل إذا حُرِم القلب الحي من طاعة بادر على الفور بالسؤال: بأي معصية حُرِمت وبأي خطيئة مُنِعت؟ أبكلمة غيبة؟ أبنظرة محرَّمة؟ أبعقوق والدة؟! أبسماع فحش؟! يسأل نفسه

(١) الفوائد ص ١٩٨، ١٩٩، ط دار النفائس.
(٢) الحلية ١٠/ ٥٨، ٥٩.

خاصة بعد أن ارتجف خوفًا واضطرب وجلا واقتنع بسلامة تحليل ابن القيم الذي انتهى إلى (أن الله سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم، فجعل عقوبة الكاذب إهدار كلامه ورده عليه، وجعل عقوبة الغالِّ من الغنيمة لَّما قصد تكثير ماله بالغلول: حرمانه سهمه وإحراق متاعه.

وجعل عقوبة من اصطاد فى الحرم أو الإحرام: تحريم أكل ما صاده وتغريمه نظيره.

وجعل عقوبة من استكبر عن عبوديته وطاعته: أن صيَّره عبدًا لأهل عبوديته وطاعته.

وجعل عقوبة من أخاف السبيل وقطع الطريق: أن تُقطع أطرافه وتُقطع عليه الطرق كلها بالنفي من الأرض؛ فلا يسير فيها إلا خائفًا.

وجعل عقوبة من التذ بدنه كله وروحه بالوطء الحرام: إيلام بدنه وروحه بالجلد والرجم فيصل الألم إلى حيث وصلت اللذة.

وشرع النبي ﷺ عقوبة من اطلع في بيت غيره: أن تقلع عينه بعود ونحوه؛ إفسادًا للعضو الذي خانه، وأولجه بيته بغير إذنه.

وعاقب من حرص على الولاية والإمارة والقضاء بأن شرع منعه وحرمانه ما حرص عليه، ولهذا عاقب أبا البشر آدم – عليه السلام- بأن أخرجه من الجنة لما عصاه بالأكل من الشجرة ليخلد فيها، فكانت عقوبته إخراجه منها ضد ما أمَّله.

وعاقب الناس إذا بخسوا الكيل والميزان بجور السلطان عليهم؛ يأخذ من أموالهم أضعاف ما يبخس به بعضهم بعضًا.

وعاقبهم إذا منعوا الزكاة والصدقة ترفيهًا لأموالهم بحبس الغيث عنهم، فيمحق بذلك أموالهم، ويستوي غنيهم وفقيرهم في الحاجة.

وعاقبهم إذا أعرضوا عن كتابه وسنة نبيه ﷺ وطلبوا الهدى من غيره: بأن يضلهم ويسد عليهم أبواب الهدى.

وهذا باب واسع جدًّا عظيم النفع لمن تدبَّره يجده متضمنًا لمعاقبة الرب سبحانه لمن خرج

عن طاعته، بأن يعكس عليه مقصوده شرعًا وقدرًا دنيا وآخره..)[١].

وممن تدبر هذا الباب: عمر بن الخطاب ﷺ ولا أعقل، فقد روى الزهري أن عمر بن الخطاب ﷺ أصابه حجر وهو يرمي الجمار فشجَّه فقال: «ذنب بذنب، والبادي أظلم»[٢].

وآخر على الدرب يقتفي أثر الفاروق خطوة خطوة وقدمه في إثر قدمه وهو أبو زرعة الرازي، فعن عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي قال:

«اعتلَّ أبو زرعة الرازي، فمضيت مع أبي لعيادته، فسأله أبي عن سبب هذه العِلَّة، فقال: بِتُّ وأنا في عافية، فوقع في نفسي أني إذا أصبحت أخرجتُ ما أخطأ فيه سفيان الثوري، فلما أصبحتُ خرجتُ إلى الصلاة، وفي دربنا كلبٌ ما نبحني قطُّ، ولا رأيته عدا على أحد، فعدا عليَّ وعقرني، وحُمِت، فوقع في نفسي أن هذا لِما وضعتُ في نفسي، فأضربتُ عن ذلك الرأي»[٣].

وثالثهم سجَّان!! نعم سجَّان. قال بعض السجانين: «كنتُ سجَّانًا نيِّفًا وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى العشاء في جماعة؟! فكانوا يقولون: لا»[٤].

وصدق ﷺ حين قال: «لا يصيب عبدًا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[٥]، بل وأكَّد: «المصائب والأحزان في الدنيا جزاء»[٦].

الراشد يَرْشُد ويُرْشِد

وليست هذه الرسائل الربانية بحرمان الطاعات والقربات فحسب، بل قد تكون كذلك بتعسير دنيا وتضييق رزق وعقوق ولد وتنغيص عيش وشجار زوجة، لينتبه كل من لم ينتبه إلى عقوبة حرمان أجر الآخرة إن كان دنيوي الهمة لا تقلقه الآخرة بحال، ولا يستيقظ إلا بحرمان دنيوي، وللأستاذ الراشد إسقاط لطيف يقول فيه:

---

(١) إغاثة اللهفان بتصرف ١/ ٣٧٢-٣٧٤.
(٢) الزهد ١/ ٥٢٠ - الإمام هناد بن السري الكوفي التميمي - ط قطر.
(٣) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٢١ نقلا عن صفحات مضيئة من حياة السابقين - الجزء الثاني - إبراهيم محمد علي - دار القلم.
(٤) الإحياء ١/ ٣٥٦.
(٥) حسن: رواه الترمذي عن أبي موسى كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٧٧٣٢.
(٦) صحيح: رواه سعيد بن منصور في سننه وأبو نعيم في الحلية مرسلاً عن مسروق كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٦٧١٧.

«فلو أسلف مسلم حسنة في المساء من صدقة، أو صلاة بوقتها، أو أمر بمعروف، أو إغاثة لهفان، أو تفهيم علم، أو بذل شفاعة، أو ستر عرض، أو تخذيل عن شر، أو خلافة غاز مجاهد، فماذا يحدث له فى الصباح؟

يستيقظ فإذا زوجه مبتسمة فى وجهه، وإذا أولاده يستيقظون مع أول نداء، على أتم نظافة، وكلٌّ قد كتب واجبه المدرسي وجمع كتبه، فإذا أفطر كان طعامه لذيذًا، وتودِّعه زوجه بابتسامة أيضًا حتى إذا ركب سيارته -وهي دوابنا اليوم- وجدها سلسة تشتغل مع أول إدارة للمفتاح، ووجد الإشارات الضوئية خضراء تفتح له الطريق مُرحِّبة به، والسائق الذي أمامه يسير وفق الأصول بأدب وهدوء، حتى شرطي المرور يرفع له يده بالتحية.

فإذا دخل مكتبه الوظيفي: وجده نظيفًا، وجاءه من المراجعين أهل الرفق والأخلاق، فإذا رجع: لم يجد ألذ من طعامه، وهكذا سائر يومه!

ثم لو أسلف سيئة في ليلة أخرى: من غيبة، أو بخل، أوتقاعس عن نجدة، أو تأخير صلاة، أو تنابز بالألقاب، أو منع خير، أو أذى جار، أو انتصار بالباطل لزوجه في تعاملها مع زوج صاحبه، فماذا يحدث له؟

يستيقظ فإذا زوجه ذات عبوس وتأفف، ولا يدري سببًا منه مباشرًا في إغضابها، ثم من بعد قليل إذا بها تولول، ولربما فتَّش عن الفرد الضائع من حذاء ابنه نصف ساعة، حتى يتأخر عن دوامه المدرسي، ويكون طعامه مالحًا لا يكاد يسيغه، وتعذِّبه سيارته نصف ساعة أخرى كي تشتغل، وتكون كالدابة الشموس، ويجد الإشارات الضوئية حمراء في وجهه، ويُبتلى بسائق طائش عن يمينه، ثم يوقفه شرطي مرور كان قد تشاجر مع زوجه هو الآخر فيُفرِّغ همومه فيه ويحرِّر له مخالفة هو منها برئ، وقد يُبتلى ثالثة في مكتبه بمراجع فوضوي ملحاح يعكِّر عليه ويشكوه لدى الرئيس، ولربما يجد في الآخِر طعام غدائه دخانًا محضًا وتكون زوجه قد نسيت القدر على النار حتى احترق، ويظل سائر يومه قلقًا كئيبًا، حتى أن أقل عقوبته أن توقظه رنة الهاتف وهو في عز نوم القيلولة، فيزعجه.

وكلنا يمر بمثل هذه الأحوال، ولكن الأقل هم الذين يرجعون بذاكرتهم إلى ما أسلفوا من حسنات أو سيئات تكون سببًا لهذه الأحوال، والمُوَفَّق هو الذي يسرع إلى بديهته هذا المعنى فيعلم

موطن قدمه، فيزداد خيرًا وصعودًا، أو يحذر المنزلق، ويجد في هذه المعاكسات الخفيفة اللطيفة تحذيرًا يمنعه من الاسترسال في الغي وركوب الشهوات، بل هي إشارات تحذير ربانية توازي اللمم والصغائر تنبِّهه إلى وجوب فطم النفس عن هواها، وإلا عوقب بأكبر من ذلك، من تضييق رزق، وضياع تجارة، وجلاء بركة، ومرض متعب، وتسلط ظالم، وطلاق، وقذف عرض، وفشل في امتحان، وسفاهة جار، وربما هو أكبر من ذلك ربما، ولهذا فإن هذه المعاكسات هي من تمام اللطف الرباني بمؤمن يفهمها ويستوجب موعظتها، من أجل أن لا يتمادى، بل قيل: هي مداعبة من الله للعبد، يُذكِّره أنه معه وتحت رقابته ليستقيم»[1].

يا إخوتاه.. النظر في العاقبة نجاة، ومن كثر اعتباره قلَّ عثاره، فما لنا لا ننتبه؟! مع ما قد ينتظرنا بعد لطيف العتاب من عنيف العقاب؟!

والحر تكفيه الإشارة

وهاك تجربة عملية ومقياس واقعي تعرف به حالة قلبك ومنسوب الإيمان فيه:

كم من الليالي تنام متأخِّرًا مع شدة التعب ومع ذلك تجد نفسك تنهض لصلاة الفجر أو للقيام دون أن يوقظك أحدا! وكم من الليالي نمت فيها فورًا بعد العشاء ومع ذلك طلعت عليك الشمس بعد أن ضاعت عليك الصلاة!! إنها والله حياة قلبك ليس غير، وقد علمت أن العبد يُقرع بالعصى، والحر تكفيه الإشارة، وهذه ليست إشارة واحدة بل إشارات، وأنت لست عبد شهوة أو شيطان، ولست ملك هوى أو غفلة بل أنت من سادات الأحرار وسالكي طريق الأبرار.

3 انتفاضة الأحياء:

فمع أن العين مبصرة لما حولها، لكنها لو رأت مشهدًا محرمًا فلن يُمكِّن القلبُ الحي الخواطرَ منه بحال، ومع أن الأذن مصغية؛ لكنه لو كان الحرام لارتعدت وجلا، وبنت على الفور سدًّا منيعًا وحجابًا حاجزًا بينها وبين ما يُغضب الله، وإذا جلس صاحب هذا القلب

---

(١) صناعة الحياة ص ٨، ٩، محمد أحمد الراشد، ط دار المنطلق، الطبعة الأولى ١٤١٠/ ١٩٨٩.

مجلسًا وتسلل إليه الحرام للمحه على الفور وهبَّ خارجًا في الحال إن لم يقدر على التغيير والمواجهة، وهذا هو مصدر سلامة هذا القلب وعنوان نقائه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وتأمل قوله ﴿ مَسَّهُم ﴾ الدال على إصابة غير مكينة، وذلك بسبب فزعهم إلى الله ليعصمهم من الشيطان عند ابتداء خواطره؛ فإن الخواطر ولادة إن أُهملت لم تلبث أن تصير شهوة، ثم تصير الشهوة إرادة، ثم تصير الإرادة عزمًا، ثم يتحول العزم عملاً.

وتأمل قوله ﴿ طَٰٓئِفٌ ﴾ وكأن خواطر الشر طافت بهم، ودارت حولهم فلم تقدر أن تدخل إليهم وتؤثّر فيهم لقوة قلوبهم ويقظة إيمانهم، فهم كمن طاف به الخيال ولم يجرؤ على أن يدفعهم إلى الفعال، والطائف يُطلق على الذي يمشي حول المكان ينتظر الإذن له بالدخول، فشبَّه الله الخاطر في ابتداء وروده في النفس بحلول الطائف على المكان دون أن يستقر فيه.

4 حلو اللسان:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات»(١).

والبال هو القلب، وتأمل قوله «لا يُلقي لها بالاً»، أي أنها تخرج رغمًا عنه دون تفكير أو تدبر ودون أن يُمِرَّها على قلبه، ومع ذلك تخرج منه طيبة نقية، لأن كل وعاء بما فيه ينضح، وحديقة الورد لا يفوح منها غير شذى الورد، إن حي القلب يتذوَّق كل كلمة بقلبه قبل النطق بها، فإن كانت حلوة علم أن طعمها في الآخرة سيكون أحلى فأطلقها، وإن كانت مُرَّة عرف أن طعمها في الآخرة أشد مرارة فسكت.

واسمع إلى طهارة لا تدانيها طهارة، وقلب طهور كالماء الطهور طاهر ومطهِّر لما حوله من القلوب، وهو قلب عبد الله بن عون الذي قال عنه خارجة بن مصعب: **«صحبتُ عبدالله أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة»**(٢).

---

(١) صحيح: انظر الحديث ٦١١٣ في صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٧.
(٢) الحلية ٣/ ٣٧.

فمهما استفزه الشيطان ببعض جنده وكافة حيله واجتمع عليه من أعوانه ما اجتمع؛ فلن يفلحوا إذًا أبدًا، فعن بكار بن محمد وابن قعنب قال: «كان ابن عون لا يغضب فإذا أغضبه الرجل قال: بارك الله فيك»[١].

ومن ذلك أن جاءه غلام له فقال: فقأت عين الناقة!! قال: بارك الله فيك. قال: قلت فقأت عينها، فتقول بارك الله فيك!! قال: أقول.. أنت حر لوجه الله.

أي تربية؟! وأي صفاء ونقاء؟! وأي مجاهدة أورثت هذا السمو الراقي من سماحة النفس وطيب الكلم وروعة التقى حتى صار مضرب الأمثال، ومنتهى غاية الصالحين، وأسمى أمنيات المخلصين؛ في عصره وغير عصره، فعن معاذ بن معاذ قال:

«حدثني غير واحد من أصحاب يونس بن عبيد قال: إني لأعرف رجلاً منذ عشرين سنة يتمنى أن يسلم له يوم من أيام ابن عون فما يقدر عليه، وليس ذاك أن يسكت رجلٌ لا يتكلم، ولكن يتكلم فيسلم كما يسلم ابن عون»[٢].

لكنه ليس وحده في الميدان بل ينافسه في الحلبة أطهار كُثر، منهم الفضيل الذي أراد أن يعطِّر ألسنتنا ويطيِّب كلامنا بطريقته الخاصة وأسلوبه المقنع فقال: «حسناتك من عدوك أكثر منها من صديقك!! قيل: وكيف ذلك يا أبا علي؟! قال: إن صديقك إذا ذُكِرتَ بين يديه قال: عافاه الله، وعدوك إذا ذُكِرت بين يديه يغتابك الليل والنهار، وإنما يدفع المسكين حسناته إليك، فلا ترضَ إذا ذُكِر بين يديك أن تقول: اللهم أهلكه.. لا، بل ادعُ الله: اللهم أصلحه.. اللهم راجِع به، ويكون الله معطيك أجر ما دعوت به، فإنه من قال لرجل: اللهم أهلكه، فقد أعطى الشيطان سؤله، لأن الشيطان إنما يدور على هلاك الخلق»[٣].

رحمة الله على أصحاب تلك القلوب، وصدق فيها وصف من وصفها بقوله: «إن من الرجال ما هو كالنسخة المخطوطة؛ ربما كانت ناقصة أو مخرومة، أو مسَّ الزيت أطرافها فأفسدها، ولكنها أثمن وأغلى لأنها واحدة لا ثانية لها»[٤].

---

(١) السابق ٣/ ٣٨.
(٢) الحلية ٣/ ٣٨.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ٩٧.
(٤) رجال من التاريخ ص ٤٢١ - الطبعة الثامنة - دار المنارة عام ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.



الرسول قدوتنا

ولماذا نذهب بعيدًا وبين أيدينا سيد القدوات نبينا ﷺ الذي روى عنه جابر ابن سمرة ﷺ: «**كان رسول الله ﷺ طويل الصمت قليل الضحك**»[1]، وهو مع صمته كان إذا تكلم لا يُخرِج غير الرحيق والعبير والدواء والشفاء، وبهذا وصفه رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن مثل النحلة؛ لا تأكل إلا طيبًا ولا تضع إلا طيبًا**»[2].

قال ابن الأثير: «ووجه المشابهة بينهما: حذق النحل وفطنته، وقلة أذاه، وحقارته، ومنفعته، وقنوعه، وسعيه في الليل، وتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله، وأنه لا يأكل من كسب غيره، ونحوله، وطاعته لأميره»[3].

إنه قطعة ذهب نقية ليس فيها شائبة واحدة ولا ذرة غريبة من غير الذهب، فلا زيف ولا خبث ولا تلوُّن أو تغير بل ثبات وطهارة تمامًا، وليس فيها أدنى خبث تنفيه النار، مصداق وصف رسول الله ﷺ للمؤمن:

> **«ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب؛ إن نُفِخت عليها احمرَّت، وإن وُزِنت لم تنقص»[4].**

5 غزير الدمع:

أخي المريض إن ساعدك الدمع وإلا فتباكَ، فليس مثل الدموع علامة على القلب الحي، وإنما يحصد الزرع يوم القيامة من روَّى أرض قلبه قبل الندامة، فماذا أنت حاصد إذا حُرِمت الدموع؟!

---

(١) حسن: رواه أحمد عن جابر بن سمرة كما في ص ج ص رقم: ٤٨٢٢.

(٢) حسن أو صحيح كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥٥، وتأمل ما تقوم به النحلة من أجل إطعامنا كيلو جرام واحدًا من العسل، فقد ذكر العلماء أنها تقوم بما يقرب ٦٠٠ ألف إلى ٨٠٠ ألف طلعة، وتقف على مليون زهرة، وتقطع ما يزيد على ١٠ أضعاف الكرة الأرضية رغم الرياح والأنواء، ولا تترك عندها بطالاً إلا نفته وأبعدته وأقصته عن الخلية، لأنه يُضيِّق المكان ويُفني العسل، ويعلم النشيط الكسل، وهو درس بليغ في علو الهمة.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٢٩.

(٤) حسن: رواه البيهقي عن ابن عمرو، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: ٥٨٤٦.

حي القلب يبكي شوقًا وقلقًا: قال عبد الواحد بن زيد:

«**يا إخوتاه!** ألا تبكون شوقًا إلى الله؟ ألا إنه من بكى شوقًا إلى سيده لم يحرمه النظر إليه..

يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من النار؟ ألا إنه من بكى خوفًا من النار أعاذه الله منها..

يا إخوتاه! ألا تبكون خوفًا من العطش يوم القيامة؟ ألا إنه من بكى خوفًا من ذلك سُقِي على رؤوس الخلائق يوم القيامة..

يا إخوتاه! ألا تبكون؟ بلى فابكوا على الماء البارد أيام الدنيا لعله أن يسقيكموه في حظائر القدس مع خير الندماء والأصحاب من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا»، ثم جعل يبكي حتى غُشِي عليه![1].

حي القلب قد يبكي من الأذان: كان أبو زكريا النهشلي إذا سمع النداء تغيَّر لونه وأرسل عينيه فبكى، فسُئل عن ذلك فقال: أشبِّهه بالصريخ يوم العرض، ثم غُشِي عليه[2].

حي القلب قد يبكي من الوضوء. كان عطاء السليمي إذا فرغ من وضوئه انتفض وارتعد وبكى بكاء شديدًا، فيُقال له في ذلك فيقول: «إني أريد أن أُقدِم على أمر عظيم.. أريد أن أقوم بين يدي الله عز وجل»[3].

حي القلب تُبكيه الذنوب: نظر حذيفة المرعشي إلى رجل يبكي فقال: ما يبكيك يا فتى؟ قال: ذكرت ذنوبًا سلفت فبكيت. قال: فبكى حذيفة ثم قال: نعم يا أخي! فلمثل الذنوب فليُبكَ، ثم أخذ بيده فتنحيا فجعلا يبكيان![4]

حي القلب يزعجه الختام فيبكي. قال محسن بن موسى: كنت عديل سفيان الثوري إلى مكة فرأيته يُكثِر البكاء فقلت له: يا أبا عبد الله بكاؤك هذا خوفًا من

---

(١) الرقة والبكاء ١/ ٥١.
(٢) الرقة والبكاء ص ١٢٣، ١٢٤.
(٣) حلية الأولياء ٦/ ٢١٨.
(٤) الرقة والبكاء ص١٤١.

الذنوب؟ قال: فأخذ عودًا من المحمل فرمى به فقال: «إن ذنوبي أهون عليَّ من هذا، ولكني أخاف أن أُسلَب التوحيد»[1].

لكن من الناس أجدب العينين، فلا يستطيع البكاء مع أن قلبه تعمره الخشية، ومنهم في المقابل من هو رقيق الحس سريع الانفعال والدمع؛ وإن لم يصاحب ذلك منه عمل صالح أو خشية دائمة، وعندما نفاضل بين الاثنين نقول: بكاء القلب أولى وأعلى، لأن بكاء العين شهادة على حيوية القلب لكن الشهادة قد تكون مزورة أحيانًا إذا لم يصاحبها عمل، أما بكاء القلب وخشيته فشهادة دامغة على حيوية القلب، وهي شهادة لا تقبل التزوير على الإطلاق.

بكاء الحبيب

قال ابن القيِّم:

«وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفًا على أمته وشفقه عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال مصاحب للخوف والخشية، ولما مات ابنه إبراهيم دمعت عيناه وبكى رحمة له وقال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون**»، وبكى لما شاهد إحدى بناته ونفسها تفيض، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء، وانتهى فيها إلى قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١]، وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كسفت الشمس وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته وجعل ينفخ ويقول: «**رب ألم تعدني ألا تعذبهم وأنا فيهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك**»، وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكان يبكي أحيانًا في صلاة الليل.

والبكاء أنواع

أحدها: بكاء الرحمة والرقة.

والثاني: بكاء الخوف والخشية.

(١) شعب الإيمان ١/ ٥٠٨.

والثالث: بكاء المحبة والشوق.

والرابع: بكاء الفرح والسرور.

والخامس: بكاء الجزع من ورود المؤلم وعدم احتماله.

والسادس: بكاء الحزن.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو: أن تدمع العين، والقلب قاسٍ، فيظهر صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلبًا.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه كبكاء النائحة بالأجرة فإنها كما قال عمر بن الخطاب: تبيع عبرتها وتبكي شجو غيرها.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو: أن يرى الرجل الناس يبكون لأمر ورد عليهم فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون فيبكي»[1].

6 همومه أخروية:

فإن فات حي القلب ورده من قرآن أو صلاة وجد لفواته ألـمًا أشد من فوات ماله، وتقلَّب بالليل على فراش كالجمر، فما عسانا نقول لمن ليس له وِرْد بالأساس؟! بل ماذا عسانا نقول لمن إذا فاتته الصلاة المفروضة لم يجد ألـمًا ولا حسرة؟! وكأن رسول الله ﷺ لا يخاطب بالحديث التالي إلا أحياء القلوب حين يقول: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُتِر أهله وماله»[2].

أي كأنما فقد أهله وماله وهلكوا، لكن صاحب القلب الحي فحسب هو من يشعر بهذا وأما غيره فهيهات هيهات، ولما كان حاتم الأصم رجلاً كريمًا من أرباب القلوب الحية، فقد أراد أن

(١) زاد المعاد ١/ ١٨٣.

(٢) صحيح: متفق عليه وهو عن عبد الله بن عمر كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٣٦٤.

يبعث الحياة في قلوب من حوله، فكان أن روى لنا تجربته قائلاً وهو يحمل هم فوات الخير:

«فاتتني صلاة الجماعة مرة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزَّاني أكثر من عشرة آلاف؛ لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا»[١].

وآخر كان يحمل هَمَّ الأمة وهو أويس القرني الذي كان رغم فقره المدقع وبؤسه الشديد مستشعرًا مسئوليته تجاه كل مسلم جائع أو عريان، ويسأل الله أن يغفر ذنبه هذا!! فكيف بنا يا أصحاب النعيم والترف؟! قال عنه سفيان الثوري: «كان لأويس القرني رداء إذا جلس مسَّ الأرض، وكان يقول: اللهم إني أعتذر إليك من كبد جائعة وجسد عارٍ، وليس لي إلا ما على ظهري وفي بطني»[٢].

ومن القرن العشرين يُطِل علينا الإمام حسن البنا الذي حمل الهَمَّ حتى أطار النوم من عينيه، وذلك لما انتشرت موجتا الإلحاد والإباحية في آن واحد على أرض مصر، واسمع إليه يقول:

«وصرتُ أرقب هذين المعسكرين فأجد معسكر الإباحية والتحلل في قوة وفتوة، ومعسكر الإسلامية الفاضلة في تناقص وانكماش، واشتد بي القلق حتى إني لأذكر أنني قضيت نحوا من نصف رمضان هذا العام في حالة أرق شديد لا يجد النوم إلى جفني سبيلاً من شدة القلق والتفكير في هذه الحال».

ومثله في حمل هذا الهَمِّ كان الشيخ رشيد رضا الذي دخلت عليه أمه يومًا فوجدته مهمومًا فقالت له: «مالك؟! هل مات مسلم بالصين؟!»[٣].

ورابع ممن يحمل حيوية القلب يحمل معها هَمَّ الخاتمة، فلا يدري أيختم له بخير أم يودِّع الدنيا بسوء؟! قال يحيى بن معاذ: «التائب يُبكيه ذنبه، والزاهد يُبكيه غربته، والصديق يُبكيه خوف زوال الإيمان»[٤].

وخامس يحمل هَمَّ التقصير حتى أبكاه وهو يحيى بن معاذ كذلك الذي قال: «لست أبكي على نفسي إن ماتت؛ إنما أبكي على حاجتي إن فاتت»[٥].

---

(١) المستطرف ١/ ٢١.
(٢) شعب الإيمان ١/ ٥٢٣.
(٣) علو الهمة ٢٥٨، ٢٥٩.
(٤) الحلية ١٠/ ٥٤.
(٥) السابق ١٠/ ٥١.

7 توحيد الخوف:

حي القلب لا يخشى إلا الله، فلا خوف من بشر ولو كان جائرًا، ولا من حدث ولو كان قاهرًا، ولا خوف على رزق أو أجل، ولا خوف على ولد أو متاع، بل ويسبب حياة قلبه؛ كلما علا وعزَّ من أمامه كلما هوى وهان في عينيه، وهكذا كان طاووس اليماني، فعن الصلت بن راشد قال: كنت جالسًا عند طاووس فسأله سلم بن قتيبة عن شي فانتهره قال: قلت هذا سلم بن قتيبة صاحب خراسان. قال: «ذلك أهون له عليَّ»[1].

ولا يخاف أحد من غير الله إلا لمرض في قلبه، وقد حكى الله أن من صفات الذين في قلوبهم مرض أنهم قالوا: ﴿ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وحكى أن أحياء القلوب الذين سلمت قلوبهم قالوا: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وهؤلاء امتثلوا أمر ربهم الذي طمأن قلوبهم بقوله: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد ربط الله سبحانه الخوف منه وحده بالإيمان، وجعل الخشية منه حكرًا على أحياء القلوب، فقال على سبيل التقرير والتوبيخ:

﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣]، وقال آمرًا وناهيًا في آن واحد: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وعدم الخوف إلا من الله دليل على حياة القلب وجسارته كما ذكروا أن رجلاً شكا إلى الإمام أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة فقال: «لو صححت لم تخف أحدًا»[2].

وذلك مع التسليم بأن الخوف الجبلي الذي لا يمنع من أداء الواجب لا يقدح في صحة

(١) حلية الأولياء ٤/ ١٢.
(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية – ابن قدامة المقدسي – دار الكتاب العربي.

القلب كخوف الإنسان من عدوه ومن المخاطر والأهوال، أما الخشية الكاملة فلا تكون إلا من الله وحده.

8 غيرة الأنبياء:

قال ﷺ وهو يحكي قصة المعراج إلى السماء: «**ثم انطلقنا حتى انتهينا إلى السماء السادسة، فأتيت على موسى عليه السلام، فسلمت عليه، فقال: مرحبا بالأخ صالح والنبي الصالح، فلما جاوزته بكى فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب!! هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي**».

قال العلماء:

«لم يكن بكاء موسى حسدًا معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى؟! بل كان أسفًا على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه من أمته في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة، وأما قوله «غلام» فليس على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه؛ إذ أعطى لمن كان في ذلك السن ما لم يعطه أحدًا قبله ممن هو أسن منه»[1].

وانظروا مثلاً إلى حياة قلبي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهل أشد حياة من قلبي أقرب وأحب صحابيين إلى رسول الله؟! وتأمَّل أثر ذلك على تنافسهما في الخيرات، وليس ذلك في ميدان العبادات فحسب بل تعدَّاها إلى العادات والذوقيات، وعن ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«إنا سهرنا ليلة في بيت عند أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي ﷺ، ثم خرجنا ورسول الله ﷺ يمشي بيني وبين أبي بكر، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ فقام النبي ﷺ يستمع إليه، ثم قال: «**من سرَّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد**»، فعلمت أنا وصاحبي أنه عبد الله بن مسعود، فلما أصبحت غدوت إليه لأبشِّره، فقال: سبقك بها أبو بكر!!»[2].

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢١١.

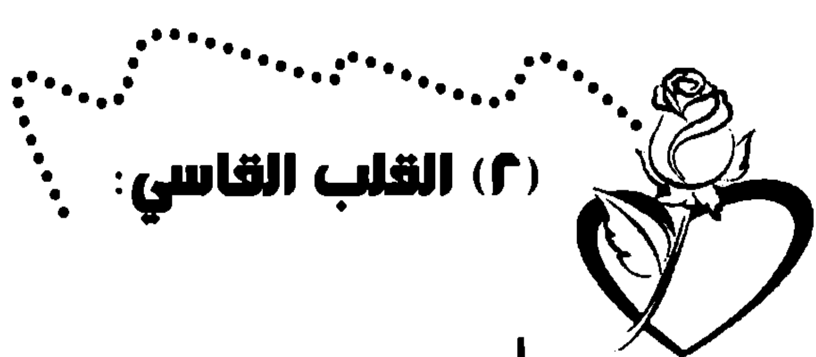
(٢) البداية والنهاية ٩/ ١٢٩ بتصرف.

وموقف آخر لا يقل غرابة في الحرص على الخير يرويه **أبو صالح الغفاري** أن **عمر بن الخطاب** ﷺ كان يتعاهد عجوزًا كبيرة عمياء في بعض حواشي المدينة من الليل، فيستسقي لها، ويقوم بأمرها، وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة، فلا يسبق إليها، فرصده **عمر** فإذا هو **بأبي بكر الصديق** الذي يأتيها وهو خليفة [1].

لذا اعترف **عمر** ﷺ بفضل **أبي بكر** وأقرَّ له قائلاً: «ما سبقتُ أبا بكر قطُّ إلى خير إلاَّ سبقني إليه، ولودِدْتُ أنِّي شعرة في صدر أبي بكر».



(١) كنز العمال ١٢/ ٧٣١.



والقسوة هي الموت، والقساوة عبارة عن غلظة مع صلابة، وهي عبارة عن خلو القلب من الإناب والإذعان لآيات الله تعالى، وهي أشد عقوبا القلب على الإطلاق؛ ولذا ضُرِبت بها قلوب الكافرين والمنافقين.

قال مالك بن دينار: «إن لله عقوبات في القلوب والأبدان: ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضُرِب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»(١).

وأكّد على نفس المعنى حذيفة المرعشي فقال:

«ما أُصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه»(٢).

وتأمل قول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٤].

إشارة الى ما ذكره الله من آية إحياء القتيل أو إلى جميع العظات والقوارع التي مرَّت ببني إسرائيل، والتي تزول منها الجبال وتلين لها الصخور؛ وكان الأجدر أن تلين لها قلوبهم، أما وقد لم تفعل فقد استحقت أن توصف بالقسوة لنفورها من الإيمان بعد معاينة أسبابه وموجباته، فهذه القلوب ﴿كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر مثل يضرب للقساوة لأنها محسوسة لديهم، ومع ذلك فقد عذر الله الحجارة

(١) حلية الأولياء ٦/ ٢٨٧.
(٢) السابق ٨/ ٢٦٩.

لكنه لم يعذر القاسية قلوبهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

وتأمل قول الله المُعجِز يصف صاحب القلب القاسي: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي استولت عليه، وشملت جميع أحواله حتى صار محاطًا بها لا ينفذ إليه من حوله شيء، وذلك أن من أذنب ذنبًا ولم يُقلع عنه جرَّه ذلك إلى العودة لمثله، والانهماك فيه، وارتكاب ما هو أكبر منه؛ حتى تستولي عليه الذنوب، وتأخذ بمجامع قلبه، فيتحول طبعه مائلاً إلى المعاصي، مستحسنًا إياها، معتقدًا أن لا لذة سواها، مُبغِضًا لمن يحول بينه وبينها، مُكذِّبًا لمن ينصحه بالبعد عنها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

فتصبح ذنوبه كالخيمة تحجب عنه كل شيء: نظر الله إليه، ونعيم الجنة المنتظر، وعذاب النار المترقِّب، وكيد إبليس المتحفِّز، وحسرة الملائكة المشفقة، كل ذلك يغيب عنه عند وقوعه في الذنب ولا يراه، وهو معنى قول النبي ﷺ:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»(١).

القساوة الموسمية

قاسي القلب يموت أقرب الناس إليه ولا يتأثر، وحي القلب يموت أبعد الناس عنه ومع ذلك يخشع لموته، بل قد يقسو القلب في وقت ويلين في آخر، فحي القلب نفسه قد تمرُّ به حالات قساوة، فيسمع الآية من كتاب الله في يوم فيبكي، ويسمع قوارع الآيات في يوم آخر ولا يتأثر، والسبب: أنه سمع الأولى حال سلامة قلبه والثانية حال قسوته.

---

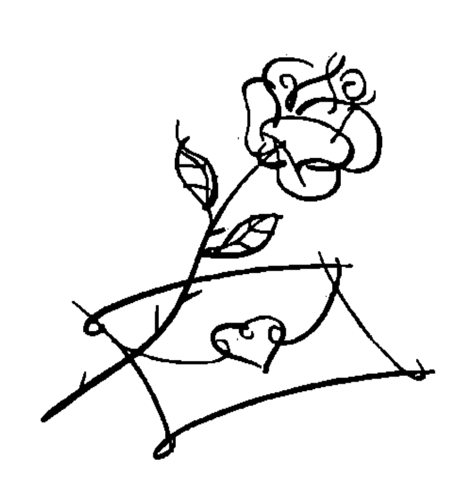
(١) صحيح: أخرجه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٣٦.

وقد تأتيه الموعظة فتسري في جسده كالكهرباء في يوم، وتنزل عليه في اليوم الذي يليه كما تنزل على عمود الرخام!! والسبب قلبه.

وقد تجود يداه بالصدقة حينًا وتمسك أنامله عليها أحايين كثيرة وكأنها صخرة، والسبب أيضا قلبه.

ولا تستثني القسوة أحدًا حتى أنها لتضرب قلوب الذين يحملون مفاتيح القلوب، ويسقون الناس شراب حيوية الأرواح، ألا وهم قُرَّاء القرآن؛ لذا بعث **أبو موسى الأشعري** ﷺ إلى قُرَّاء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال لهم:

«أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم»(١).



---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٧٢٦.

علامات القسوة

لكل شيء علامة، وبمعرفة هذه العلامة يسهل الاكتشاف المبكِّر لهذا الداء الوبيل، ألا وإن أبرز علامات القلب القاسي:

1 تعطل الحواس:

القلب القاسي لا القرآن يُزكِّيه ولا النظر في آيات الله يحييه، والسبب موت حواسه وتعطل عملها.

قال ابن الجوزي: «رأيتُ هذه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٦] فلاحت لي فيها إشارة كدتُ أطيش منها، وذلك أنه إن كان عنى بالآية نفس السمع والبصر، فإن السمع آلة لإدراك المسموعات والبصر آلة لإدراك المبصرات، فهما يعرضان ذلك على القلب فيتدبر ويعتبر، فإذا عرضت المخلوقات على السمع والبصر أوصلا إلى القلب أخبارها من أنها تدل على الخالق، وتحمل على طاعة الصانع، وتحذِّر من بطشه عند مخالفته.

وإن عنى معنى السمع والبصر؛ فذلك يكون بذهولها عن حقائق ما أدركا شُغِلا بالهوى، فيُعاقب الإنسان بسلب معاني تلك الآلات، فيرى وكأنه ما رأى، ويسمع كأنه ما سمع، والقلب ذاهل عما يتأذى به لا يدري ما يُراد به، لا يؤثِّر عنده أنه يبلى، ولا تنفعه موعظة تُجلى، ولا يدري أين هو، ولا ما المراد منه، ولا إلى أين يُحمل، وإنما يلاحظ بالطبع مصالح عاجلته، ولا يتفكر في خسران آجلته، فلا يعتبر برفيقه، ولا يتعظ بصديقه، ولا يتزود لطريقه، فنعوذ بالله سبحانه من سلب فوائد الآلات، فإنها أقبح الحالات»(١).

---

(١) صيد الخاطر ص ١٠٥.

لا أرى لا أسمع لا أتكلم

ومن قسوة القلب كونه «أصم لا يسمع الحق أبكم لا ينطق به أعمى لا يراه، فيصير النسبة بين القلب وبين الحق كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات والحقيقة، والجوارح بالفرض والتبعية، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر، وإنما المراد أن العمى التام على الحقيقة: عمى القلب، حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه أمر هيِّن حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته»[1]، واسمع إلى تفاصيل تعطل حواس القاسية قلوبهم حاسة حاسة:

أ- السمع:

وصف الله حال الكفار حال سماعهم الهدى أنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأطلق الله اسم الأصابع على الأنامل على وجه المجاز، فإن الذي يُجعل في الأذن الأنملة لا الأصبع كله، لكنه عبَّر عن الأنامل بالأصابع للمبالغة في إرادة السامعين سد المسامع؛ بحيث لو أمكن لأدخلوا الأصابع كلها، فإن حدث ووصلت إلى آذانهم كلمة واحدة من كلمات الحق قبل أن يسدوها، ونفذ إليها سهم من سهام الخير، لارتد من على أبواب الآذان المؤصدة.

لذا قال تعالى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ أي صممًا وثقلاً مانعًا من سماع الحق، بل لو أزال الله انسداد هذه الأسماع حتى تصل الموعظة إلى قلوبهم لوصلت؛ لكن إلى قلوب غلفاء لا تُنفِذ النور، ظلمات بعضها فوق بعض؛ لذا قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]

والإسماع المطلوب هو إسماع القلوب وهو أعلى درجة من إسماع الآذان، فإن الكلام له لفظ ومعنى، فسماع لفظه هو حظ الأذن، سماع معناه هو حظ القلب، ومتى لم ينصت القلب ضاع

(١) الجواب الكافي ص ٨٢ بتصرف.

الحديث والحدث، وقد نفى سبحانه عن الكفار غلاظ القلوب سماع المعنى الذي هو حظ القلب، وأثبت لهم سماع اللفظ فقط الذي هو حظ الأذن، وهذا النوع من السماع لا يفيد السامع بل يضره لقيامه حجة عليه.

وهو ما يلخصه قول أهل الكتاب لنبينا: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ [النساء:٤٦] أي اسمع غير مسموع منك، فآذاننا معك وقلوبنا مع غيرك، فقاسي القلب لا يسمع، وإذا سمع لا ينصت، وإذا أنصت لا يعي، وإذا وعى لا يُدرك، وإذا أدرك لا يعمل، وإذا عمل أتبع عمله برياء وسمعة، فعمله كله عليه مردود، وعاقبته ضلال وحسرة.

وإن كان هذا هو وصف القرآن لسمع أصحاب القلوب القاسية فإن وصف النبي ﷺ لهم قريب من قريب.

قال ﷺ: **«ويل لأقماع القول!! ويل للمصرِّين الذين يُصِرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون»**(١).

فكما أن القمع يدخل ما يوضع فيه من جانب ويخرج من الآخر؛ فكذلك قاسي القلب أذناه طرفا قمع!! يدخل الكلام من الأذن اليمنى ليخرج من اليسرى دون أن يستقر في القلب منه شيء.

ب- البصر:

ما أشقى قساة قلوب رانت عليها ذنوب، فلم تعد عيونهم تبصر دلائل الحق وآيات الخير، ولا ترى رسل الله نظرًا لِما غطَّى أبصارها من قساوة وجهالة.

قال تعالى: **﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا * ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾** [الكهف: ١٠٠، ١٠١].

قال ابن القيم: «وهذا يتضمن معنيين: أحدهما أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٨٩٧.

آيات الله وأدلة توحيده وعجائب قدرته، والثاني أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره والاهتداء به، وهذا الغطاء للقلب أولاً ثم يسري منه إلى العين»[1].

لذا كان الكافرون - وقلوبهم أشد القلوب قساوة - لهم عيون لا يبصرون بها، فهم عُمي عن الحق لا يبصرونه؛ لذا وصفهم ربهم وهو الأعلم بهم بقوله: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

فشبَّه تعطّل حاسة البصر بسكر الشراب، أي غشيهم ما غطّى أبصارهم كما غشي السكران ما غطّى عقله، فلم ير شيئًا، وإن كان لصاحب القلب الحي في الآية الواحدة آيات، فإن صاحب القلب القاسي نظرًا لتقلبه في ظلمات الذنب وغوصه في أعماق الخطيئة يُعاقَب بأشد العقوبة وهي: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وهذا يشمل كلاً من آيات الله المنظورة في كونه أو المستورة في كتابه، فمرور الآيات عليه شبيه بطلوع الشمس والقمر على العميان.

الا رُبَّ ذي عينين لا تنفعانه وهل تنفع العينان من قلبه أعمى

قد يُنصَح من بعينيه رمد بِعدم البروز إلى الشمس، وما في الشمس مِن عيب ولا مرض! والمرض في عيني الأرمد! وقد يُنصح المريض بِعَدم شمِّ الطِّيب.. وما في الطِّيب إلا الشذى والعطر.

فقل للعيون الرُّمْد للشمس أعينُ تراها بحقٍّ في مَغيبٍ ومَطلعِ
وسامِح عيونــا أطفأ الله نورها أبصارها لا تستَفيق ولا تَعي

ج- اللسان:

قاسي القلب الخرس أحسن من معانيه والعي أبلغ من بيانه، وقال فيه نبينا ﷺ: **«وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»**[2].

(١) شفاء العليل ١/ ٩٣.
(٢) صحيح: صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٧.

واسمع مثلاً إلى ابن هانئ الأندلسي وهو يمدح الخليفة المعز بقوله:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فابتلاه الله بمرض شديد على إثر هذا الكلمة، صار يعوي فيه من شدة الألم نادمًا على ما قال، لسان حاله:

أبعين مفتقرٍ إليك نظرتَ لي فأهنتني وقذفتني من حالق

لســتَ الملوم أنا الملوم لأنني أنزلت آمالــي بغير الخالــق

فقاسي القلب على الإجمال ما سلمت له يد ولا قدم ولا عقل ولا جارحة، وهذا حال القلب حين يقسو ويذبل ويفقد رطوبة إيمانه، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا، فكل شيء طالح، وهل يخرج من الفاسد إلا فاسد؟! وهل يلد الضال غير (ضلَّ) (يضلُّ) (ضلالًا)؟!

قاسي القلب غافل عن الغاية التي خلق الله لأجلها لسانه فلا ذكر ولا دعاء ولا خير ولا بناء، بل غيبة وفحش، وخشن قول واعتداء، والقساوة القلبية ستؤدي إلى قساوة اللفظ ولا بد.

مثل فقهي

وحتى تقترب الصورة وتكون أوضح، وتعرف معنى تعطل الحواس عند قاسي القلب وتُصدِّق ما أقول هاك هذا المثل العملي في هذا الحديث:

عن صفية بنت شيبة قالت: حدثتني عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا طلاق ولا عِتاق في إغلاق»**[(١)].

والإغلاق هو شدة الغضب أو الإكراه، ذلك أن الإنسان في حالة الغضب الشديد قد يفقد إحساسه بمن حوله فلا سماع لصوت الحق ولا إبصار لعواقب الأمر ولا عقل يُرشد للصواب، تمامًا كما يُغْلَق البابُ على الإنسان، فلا يدرك ما حوله؛ ولذا جعل الشارع الحكيم لا عبرة عندها بالطلاق أو الإعتاق، وهو شبيه بما يحدث لقاسي القلب الذي لجَّ في عصيانه

(١) حسن: الإرواء حديث رقم: ٢٠٤٧ عن عائشة وصحيح أبي داود حديث رقم: ١٩١٩.

حتى ذهب عقله، وكما تأتي الإنسان حالات يفقد فيه عقلة وسيطرته على حواسه من جراء غضب عارم؛ تأتيه كذلك أوقات وحالات تتعطَّل فيها حواسه من جراء غفلة عارمة أو قساوة شديدة أو طول غياب عن أنوار الحق.

يا مؤثر الأمراض على العافية.. يا مختار الكدر على الصافية:

إذا كنت تضجر من حجاب الشمس ساعة، فكيف لا يضجر من شمس عقله محجوبة عن الحق أربعين عامًا؟!

ومن القلوب القاسية، القلوب الممسوخة، قال ابن القيِّم وهو يتكلم عن أثر الذنوب:

«ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تُمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يُمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوَّس في ثيابه كما يتطوس الطاووس فى ريشه، ومنهم من يكون بليدا كالحمار»[١].

ويعلِّق أبو سليمان الخطابي على كلام سفيان بن عيينة قائلًا:

«ما أحسن ما تأول أبو محمد -رحمة الله عليه- هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله -تعالى- عن وجود المماثلة بيننا وبين كل دابة وطائر، وكان ذلك ممتنعًا من جهة الخلقة والصورة، وعدمًا من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون مصروفًا إلى المماثلة في الطباع والأخلاق»[٢].

---

(١) الجواب الكافي ص ٨٢.

(٢) العزلة ص ٨٤ - الخطابي - مكتبة التراث الإسلامي.

ومن أقسام القلوب القاسية، القلوب المحجوبة، فقد قال ابن القيِّم وهو يُكمل كلامه عن أثر الذنوب:

«ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال الله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]، فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها، فيروا ما يصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه، فتفوز بقربه وكرامته وتقرَّ به عينًا، وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين قلوبهم، وحجابًا بينهم وبين ربهم وخالقهم»[١].

ومن أقسام القلوب القاسية، القلوب المطبوعة. قال تعالى: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وأصل الطبع: الصدأ يكون على السيف ونحوه، فلا يدخلها شيء من ضوء الهدى، فصاروا بسبب استغراقهم في ذنوبهم مطبوعًا على قلوبهم لا يصل إليها من النور شيء، فلا يسمعون ما يُتلى من الوعظ والإنذار، والإصرار على الذنب من أخطر مفاتيح الطبع على القلب؛ لذا قال ﷺ في الحديث: **«من ترك الجمعة ثلاث مرات متواليات من غير ضرورة طبع الله على قلبه»**[٢].

ومن أقسام القلوب القاسية، القلوب المكنونة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وهي جمع كِنان، وأصله من الستر والتغطية، فذكر الله في هذه الآية غطاء القلب وهو الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب، والمعنى: إنا في ترك قبول أي شيء منك بمنزلة من لا يسمع ما تقول ولا يراك.

فهذا الصنف من الناس لا يكتفي بما قاله أصحاب القلوب المغلفة: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، إنما يتجاوز ذلك، ويبدي كراهيته لسماع أي خير، بل وعدم رغبته حتى في رؤية من يرشده إلى الخير، فمجرد رؤيتُه تُنغِّص عليه لذته الدنيوية، وهذا النوع من أقسى أنواع القلوب، وقد قال تعالى في تشبيه هؤلاء

---

(١) الجواب الكافي ص ٨٣.

(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن أبي قتادة كما في ص ج ص رقم: ٦١٤٠.

المعرضين عن كلامه وهديه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١].

قال ابن القيم: «شبَّههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحُمر رأت الأسد أو الرماة ففرَّت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر وهي لا تعقل شيئًا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يُهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا وحضَّه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدرًا زائدًا على الفعل المجرد، فكأنها تواصت بالنفور وتواطأت عليه»[(١)].

وهل تنفع الموعظة مع أمثال هؤلاء؟! كلا والله..

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة ... كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر

2 احتلال الدنيا القلب:

ما فائدة شراب الدنيا الحلو إذا كان يورثُ الشرق. قال ﷺ:

«تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة؛ إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخِط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[(٢)].

قال الطيبي: «خصَّ العبد بالذكر ليؤذن بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها، كالأسير الذي لا يجد خلاصًا، ولم يقل: مالك الدينار ولا جامع الدينار، لأن المذموم من المُلك والجمع: الزيادة عن قدر الحاجة»[(٣)].

وكذلك خصَّ الشوكة بالذكر لأنه أقل ما يُتصوَّر من الألم، فإذا دعا بعدم زوال أقل الألم انتفى زوال ما فوقه بالأوْلى، فهو دعاء من النبي ﷺ على عاشق الدنيا بالتعاسة والكآبة وفقدان السعادة.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ١٦٤.
(٢) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٢٩٦٢.
(٣) فتح الباري ١١/ ٢٥٤.

ومن معاني التعاسة في اللغة: سقوط العبد من فوق دابته وتعثره وانكبابه على وجهه، فيكون معنى الدعاء: سقوطه الدائم مع ما في هذا السقوط من هوان وذلة وصغار.

وأما الدعاء عليه بالانتكاس، فالانتكاس هو الانقلاب على الرأس كناية عن الخيبة والخسار، ومنه انتكاسة المريض وهو رجوع المرض إليه بعد أن ظن أنه منه شُفِي.

فكأن الرسول ﷺ دعا على عبد الدنيا أن يظل في سقوط دائم أي كلما أفاق سقط وكلما نهض تعثر؛ ولذا تجد الغارق في دنياه وأمواله قلما يفيق، وإذا أفاق كان ذلك على قارعة وقعها شديد تهزه هزًّا عنيفًا ليس غير.

بالمؤمنين رؤوف رحيم

ونظرًا لتسلل مرض حب الدنيا إلى القلوب، وغزوه لها في هدوء وكتمان وتدرج وخبث فلا يشعر به أحد؛ كان من رحمة النبي ﷺ بأمته أن علَّمها هذه الدعوات لاطلاعه من وراء ستار الغيب على المستقبل، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الكلمات لأصحابه:

«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تُبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مصيبات الدنيا، ومتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا»(1).

وكان هذا في مجالس النبي ﷺ وأصحابه وهي مجالس آخرة لا تُذكر فيها الدنيا إلا لتزرع للآخرة، وهو دعاء موجه إلى قلوب القرن الأول التي لم يكن لغير الله فيها شيء، فكيف بمجالس القرن الواحد والعشرين ورسول الله عنها غائب، وقلوبنا تشكو فيها توالي غارات المادية عليها، وتعاني إزاحة همِّ الآخرة تحت مطارق التنافس المادي الشرس والتكالب الدنيوي الشره؟! فيا إخوتاه!! يا أهلاه!! أفيقوا قبل أن تُضرب على قلوبكم القسوة التي يعجز معها أبرع الأطباء،

---

(١) حسن: رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ١٢٦٨.

أفسحوا لأخراكم نصيبًا من دنياكم قبل نزول الموت، وأيقنوا أنكم إن لم تركعوا لله بقلوبكم وأجسامكم في خشوع؛ ستركع قلوبكم وتسجد للدنيا في تذلل وخضوع، ومن رغِب عن عبودية الله ابتُلي بعبودية الخلق ولا بد، ومن زهد في حب الله عوقب بحب الدنيا حتى الثمالة، ألا فاهدموا هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون.

قال ابن القيِّم:

«ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل، والتماثيل جمع تمثال وهو الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام؛ ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفا عليها؛ فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي عبدًا لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال: تعس عبد الدينار»[1].

رحم الله رجالاً سلمت منهم القلوب وطهروا من العيوب، فكانت الدنيا عندهم أحقر من أن تحتاج إلى محاربة أو تتطلب مجاهدة.

قال ابن الجوزي: «ويحك!! إنما يكون الجهاد بين الأمثال، ولذلك مُنِع من قتل النساء والصبيان، فأي قدر للدنيا حتى يحتاج قلبك إلى محاربة لها؟! أما علمت أن شهواتها جيف ملقاة؟! أفيحسن ببازي الملك أن يطير عن كفه إلى ميتة؟!»[2]. لسان حال أحدهم:

الله يعلم أني لست أعشقها ... ولا أريد بقاءً ساعة فيها
لكن تمرَّغت في أدناسها زمنًا ... وبتُّ أنشرها حينا وأطويها
وكم تحمَّلت فيها غير مكترث ... من شامخات ذنوب لستُ أحصيها

---

(١) الفوائد ص ١٩٦.
(٢) المدهش ص ٣١٦.

فقلت أبقى لعلي أهدم ما بنيتُ منها وأدناسي أنقيها
ومن ورائي جبال لست أقطعها حتى أخفّف أحمالي وألقيها
يا ويلتي وبحار العفو زاخرة إن لم تُصبني برشٍّ في تثنيها

3 انتكاسة الفطرة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يصف حال عاشق انتكست فطرته:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

«فقد أحب سوداء فأحب جنس السواد حتى في الكلاب، وهذا كله مرض في القلب في تصوراته وإرادته»(١).

واسمع هذه القصة التي تثبت لك صحة كلام ابن تيمية والتي أوردها ابن الجوزي في المنتظم عن رجل كان صريع شهوته وقتيل هواه، واسمه أحمد بن كليب هذا المسكين المغتر؛ وكان قد عشِق عشقًا حرامًا، ولو كان مع امرأة لكان مع جرمه معذورًا بحال مع الأحوال، لكنه كان عشقًا قبيحًا فاحشًا انتكست به فطرته مع غلام!! والغلام اسمه أسلم بن أبي الجعد من بني خلد، وكان فيهم وزارة أي كانوا وزراء للملوك وحجابًا، فأنشد فيه أشعارًا تحدث الناس بها، وكان هذا الشاب أسلم يطلب العلم في مجالس المشايخ؛ فلما بلغه عن ابن كليب ما قال فيه استحى من الناس، وانقطع في دارهم، وكان لا يجتمع بأحد من الناس، فازداد غرام ابن كليب به حتى مرض من ذلك مرضًا شديدًا بحيث عاده منه الناس، ولا يدرون ما به، وكان في جملة من عاده بعض المشايخ من العلماء، فسأله عن مرضه، فقال: أنتم تعلمون ذلك ومن أي شيء مرضي وفي أي شيء دوائي؛ لو زارني أسلم ونظر إليَّ نظرة، ونظرته نظرة واحدة لبرأت!! فرأى ذلك العالم من المصلحة أن لو دخل على أسلم وسأله أن يزوره ولو مرة واحدة متخفيًا، ولم يزل ذلك الرجل العالم بأسلم حتى أجابه إلى زيارته؛ فانطلقا إليه فلما دخلا دربه ومحلته تردَّد الغلام، واستحى من الدخول عليه، وقال للرجل العالم لا أدخل عليه وقد ذكرني ونوَّه بأسمي؛ وهذا مكان ريبة وتهمة، وأنا لا أحب أن أدخل مداخل التهم، فحرص به

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ١٠/ ٨٢ - دار الوفاء - الطبعة الثانية ١٤٢٢/ ٢٠٠١.

الرجل كل الحرص ليدخل عليه فأبى عليه، فقال له إنه ميت لا محالة، فإذا دخلت عليه أحييته، فقال:

يموت وأنا لا أدخل مدخلا يُسخِط الله علي ويغضبه، وأبى أن يدخل وانصرف راجعًا إلى دارهم، فدخل الرجل على ابن كليب، فذكر له ما كان من أمر أسلم معه؛ وقد كان غلام ابن كليب دخل عليه قبل ذلك، وبشَّره بقدوم معشوقه عليه، ففرح بذلك جدًّا، فلما تحقق رجوعه عنه اختلط كلامه واضطرب في نفسه، وقال لذلك الرجل الساعي بينهما: اسمع يا أبا عبد الله واحفظ عني ما أقول ثم أنشده:

أسلم يا راحة العليل ... رفقًا على الهائم النحيل

وصلك أشهى إلى فؤادي ... من رحمة الخالق الجليل

فقال له الرجل: ويحك!! اتق الله تعالى!! ما هذه العظيمة!! فقال: قد كان ما سمعت أو قال: القول ما سمعت. قال: فخرج الرجل من عنده فما توسط الدار حتى سمع الصراخ عليه وسمع صيحة الموت وقد فارق الدنيا على ذلك[١].

وهو ما عبَّر عنه ابن الجوزي بمثل من عالم الحيوان حين قال: «هيهات.. إن الطبع الرديء لا يليق به الخير، هذه الخنفساء إذا دُفِنت في الورد لم تتحرك، فإذا أُعيدت إلى الروث رتعت، وما يكفي الحية أن تشرب اللبن حتى تمُجَّ سُمَّها فيه، وكلٌّ إلى طبعه عائد»[٢].

4 الفرح بالخطيئة:

الفرح بالمعصية والتفاخر بها والدعوة إليها كل هذه أدلة على شدة الرغبة فيها والجهل بسوء عاقبتها والاستهانة بقدر من عصاه العبد، فكل من اشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه، وليبك على موت قلبه، فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه، ولا يحس القلب الميت بذلك فحيث، فما لجرح بميت إيلام.

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٨.
(٢) المدهش ص ٥٢٦.

قال ابن عطاء:

«من علامات موت القلب: عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلته من وجود الزلات»[1].

وقد سمى ابن القيم هذه العلامة: الخسف بالقلب كما «يُخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والرذائل، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوَّالاً حول البر والخير ومعالي الأمور والأعمال والأقوال والأخلاق»[2].

5 ألعوبة الشيطان:

تذكَّر دائمًا أن العقل السليم في الجسم السليم، ومعنى هذا أن التغذية الإيمانية وتعاهد الرجل قلبه لابد وأن تثمِر بإذن الله تصحيح مفاهيمك وضبط أفكارك في إطار الشرع الحنيف ودوائر الهدى، والعكس بالعكس في حالة قسوة القلب ويبوسته، فيتبع قسوة القلب فساد يحصل له يُفسِد تصوره للحق، فلا يرى الحق حقًّا، أو يراه باطلاً، أو ينقص إدراكه له، وتنعدم إرادته له، فيبغض الحق النافع، ويحب الباطل المهلك.

واسمع إلى حالة مستعصية من حالات تلاعب الشيطان بالقلب، وإفساده لتصوراته، وعكسه لإدراكاته، ومثل جليٍّ على الفطرة حين تنتكس والشيطان حين يتحكم والغواية وقد غلبت، وذلك في قصة قاتل علي بن أبي طالب ﷺ وهو عبد الرحمن بن ملجم:

كان عبد الرحمن بن ملجم قد أبصر امرأة من بني تميم يُقال لها قطام، وكانت من أجمل أهل زمانها، وكانت ترى رأي الخوارج فولع بها فقالت: لا أتزوج بك إلا على ثلاثة آلاف وقتل علي بن أبي طالب، فقال لها: لك ذلك، فأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع يقال له شبيب بن بجرة ليعاونه في قتل علي، فقال له: هل لك في شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وما ذاك؟ قال: قتل علي بن أبي طالب!! فاتفقا على قتله وقد كان، واسمع إلى خاتمته وكيف سخر الشيطان منه حتى آخر لحظات حياته:

---

(١) شرح الحكم ص ١٨٧.

(٢) الجواب الكافي ص ٨٢.

«ثم إن الحسن بن علي استحضر عبد الرحمن بن ملجم من السجن فأحضر الناس النفط والبواري ليحرقوه فقال لهم أولاد علي: دعونا نشتفي منه، فقُطعت يداه ورجلاه فلم يجزع ولا فتُر عن الذكر!! ثم كحلت عيناه وهو فى ذلك يذكر الله!! وقرأ سورة اقرأ باسم ربك إلى آخرها، وإن عينيه لتسيلان على خديه، ثم حاولوا لسانه ليقطعوه فجزع من ذلك جزعًا شديدًا، فقيل له في ذلك فقال: إني أخاف أن أمكث في الدنيا فواقًا لا أذكر الله!!»[1].

وأيضًا وقع في هذا الفخ وانخدع للشيطان عمرو بن الحمق وهو من قتلة عثمان ﷺ، فقد وثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات قال عمرو: «فأما ثلاث منهن؛ فإني طعنتهن إياه لله، وأما ست فإني طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه»[2].

إنه تلاعب الشيطان بهذه القلوب، وإلباسه أكبر الكبائر ثياب أعظم القربات، وإدخالهم النار بما يظنونه يُدني من الجنة، ونيل سخط الله وهم واهمون أن الرحمة تغمرهم، نسأل الله العافية.

٥ - بكاء الذليل:

علام يبكي قاسي القلب؟! لكم أن تتوقَّعوا، هل يبكي على فوات حظه من الله أم حظه من الشيطان؟! هل يبكي على ضياع الأجر أو فوات الوزر؟! هل يبكي على الدنيا أم الآخرة؟! ألا فلتسمعوا الطنطاوي يخاطب فريقًا من هؤلاء وهم عشاق لبنى وليلى قائلاً:

«ولا تقيموا الدنيا وتقعدوها، وتغرقوا الأرض بالدموع لأن الحبيبة المحترمة لم تمنح قُبلة وَعدت بها، ولم تصِل وقد لوَّحت بالوصل، تنظمون الأشعار في هذه الكارثة وتنشؤون فيها الفصول، تبكون وتستبكون، ثم تنامون آمنين مطمئنين، والنار من حولكم تأكل البلاد والعباد.

الشعر شعور، فأي شعور وأي حس فيمن يرى أمة كريمة مجيدة بقضِّها وقضيضها، ومفاخرها وتاريخها وحياتها وأمجادها تُطرد من ديارها وتُخرج من بيتها - وهي أمته، وأفرادها إخوته - لتعطى

(١) البداية والنهاية ٨/ ١٣.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٦٧٧.

مساكنها إلى أمة من أسقط الأمم، أمة ضُرِبت عليها الذلة والمسكنة وباءت بغضب من الله، وغضب من الناس ومن الحق والفضيلة والتاريخ، ويرى صدورها مفتحة للرصاص، وشيوخها مساقين إلى حبال المشانق، وشبابها في شعاف الجبال وبطون الأودية يدفعون الظلم بالدم، وأطفالها ونساءها بين لصين: لص ديار، ولص أعراض، لص يحارب بالذهب، ولص يقاتل بالبارود ثم لا يُحِس بهذا كله، ولا يدري به ولا يفكِّر فيه لماذا؟ لأن الشاعر المسكين مصاب متألم!.

ما له؟ ما مُصابه؟ إن حبيبته لم تعطه خدَّها ليقبِّله!! إن العاطفة إذا بلغت هذا المبلغ كانت جريمة»[1].

7 داء الذكر:

قال تعالى متوعِّدًا ومنذرًا: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢].

أي قست قلوبهم بسبب ذكر الله الذي لانت له قلوب المؤمنين وانشرحت صدورهم، فاستقبلوا الدواء على أنه داء، وتلقوا الغيث بسد المنافذ عليه، وقابلوا الضيف المحمَّل بالهدايا بالأبواب المؤصدة، فإذا ذُكر الله تعالى عندهم أو تُلِيت آياته اشمأزوا من ذلك وزادت قلوبهم قساوة وغلظة وشدة، وللمبالغة في وصف أحياء القلب بالقبول ووصف قساة القلب بالصدود؛ فقد ذكر الله شرح الصدر دون القلب الذي يسكن فيه ليدل على شدة قبول أحياء القلوب للإسلام حتى ملأ الصدر الأوسع من القلب؛ بعكس قساة القلوب.

وسبب هذا التباين الرهيب والبون الشاسع: اختلاف قابلية القلب واستعداده للهداية، فإن السبب الواحد تختلف آثاره وأفعاله باختلاف القلب المتلقي ونوعية التربة المستقبلة، فذكر الله سبب لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حلَّ فيها هذا المرض صارت إذا ذكر الله عندها أشد مرضًا مما كانت عليه: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥]

---

(١) فصول إسلامية ص ٤٩-٥١.

قلوب بذكر الله تزداد قسوة فلا الوعظ يُجدي ولا العُتب ينفع
أسوق لها طيب الكلام لعلها تلين فلا تصغي ولا تتخشّع
إذا قلت هذا مدرج القوم فارتقي يقول الهوى: حدَّثت من لم يسمع
وإذا هوت يومًا إلى الناس شهوة تراها إلى ما يُغضب الرب تُسرع

القسوة من تسعة

قسوة القلب نابعة من تسعة أشياء، وهي كما يلي:

١- كثرة الأكل:

روى أسد بن موسى من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال:

أكلت ثريدًا بلحم سمين فأتيت النبي ﷺ وأنا أتجشأ، فقال: «كفَّ عنا جشاءك، فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة»[1]، فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا، وكان إذا تغدى لا يتعشى وإذا تعشى لا يتغدى.

لكن ما العلاقة بين التجشؤ والجوع يوم القيامة والتي قد تبدو بعيدة من أول وهلة؟

قال المناوي موضِّحًا خطورة الإسراف في الطعام الذي استهان به الكثيرون، يحسبونه هينًا وهو عند أطباء القلوب عظيم:

«والنهي عن الجشاء نهي عن سببه وهو الشبع، وهو مذموم طِبًّا وشرعًا، كيف وهو يقرِّب الشيطان ويهيِّج النفس إلى الطغيان، والجوع يضيِّق مجاري الشيطان، ويكسر سطوة النفس، فيندفع شرهما، ومن الشبع تنشأ شدة الشبق إلى المنكوحات، ثم يتبعها شدة الرغبة إلى الجاه والمال اللذان هما الوسيلة إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ثم يتبع ذلك استكثار المال والجاه وأنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد من ذلك آفة الرياء

(١) حسن: رواه الترمذي وابن ماجة عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ٤٤٩١.

وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثم يُفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء والبطر والأشر، وذلك مُفضٍ إلى الجوع في القيامة وعدم السلامة إلا من رحم ربك»(١).

ولذا كانت سنة وطريقة عبد الله بن عمر ﷺ التي سار عليها طوال حياته أن يقلل من طعامه عن طريق وسيلة تفيض ثوابا وتقذف أجرا، فقد كان لا يأكل حتى يؤتى بمسكين فيأكل معه، فأُدخِل عليه يوما رجل فأكل أكلاً كثيرًا، فقال ابن عمر لغلامه: يا نافع لا تُدخل علي هذا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المؤمن يأكل في معيٍّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»(٢).

وهنا يبادرنا سؤال:

> **كم من كافر أقل أكلاً من مؤمن، وكم من كافر أسلم فلم يتغير مقدار أكله!!**

قال ابن حجر:

«قيل: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرة الأكل صفة الكافر، فإن نفس المؤمن تنفر من الاتصاف بصفة الكافر، ويدل على أن كثرة الأكل من صفة الكفار قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد: ١٢].

وقال الطيبي: ومحصل القول أن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة بخلاف الكافر، فإذا وجد مؤمن أو كافر على غير هذا الوصف لا يقدح في الحديث، ومن هذا قوله تعالى ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٌ﴾ [النور: ٣]، وقد يوجد من الزاني نكاح الحرة ومن الزانية نكاح الحر.

---

(١) فيض القدير ٥/ ٨.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي وابن ماجة عن ابن عمر كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٣٣٤ و ص ح ص رقم: ٦٦٦٠، والخبر في شعب الإيمان ٥/ ٢٣.

وقيل أن المراد بالمؤمن في هذا الحديث التام الإيمان؛ لأن من حسن إسلامه وكمل ايمانه اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته»[١].

وإن كثرة الطعام ما هي إلا علامة على قسوة القلب وطريق مُمَهَّد موصل إلى موته؛ لذا غفل قساة القلوب عن سبب رئيسي لإفراطهم في الطعام وبالتالي جهلوا سبب القساوة، وهو ما أشار إليه ابن القيِّم في الفوائد:

«لو تغذَّى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات:

ولو كنت عذري الصبابة لم تكن
بطينا وأنساك الهوى كثرةَ الأكل»[٢].

وإن كثرة الطعام كذلك تُدخل القلب في متاهة الآفات الستة التي أشار إليها أبو سليمان الداراني بقوله: «من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وحرمان الشفقة.. على الخلق؛ لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وإن سائر المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل»[٣].

بل أوصى الحسن البصري كل من ضاع خشوعه والتمس دموع الخشية فلم يجدها؛ أوصاه بهذه الوصية العملية المُجرَّبة واقعيا فقال: «من أراد أن يخشع قلبه ويغزر دمعه فليأكل في نصف بطنه»[٤].

فضلا عن أن كثرة الطعام تضيِّع على المرء فرص الثواب الجزيل لأنها تصرف الطعام في غير وجهه الصحيح، ولو صرِفت صدقة وبذلاً بدلاً من أكلها لكان خيرًا لصاحبها في الدنيا والآخرة، وقد رُوِي عن النبي ﷺ أنه رأى رجلاً عظيم البطن فأشار إلى بطنه بأصبعه فقال:

«لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك»[٥].

---

(١) فتح الباري ٥/ ٥٣٩ بتصرف.
(٢) الفوائد ١/ ٧٧.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٨٧.
(٤) الحسن البصري ١١.
(٥) ضعيف الترغيب والترهيب ٢/ ٢٩.

لكن.. هل مقصود كلامي أن يجوِّع الإنسان نفسه ويُحرِّم على نفسه ما أحل الله له؟! حاشا وكلا؛ بل كل ما أريد قوله جاء موجزًا على لسان الحليمي - رحمه الله- الذي بيَّن مغزى الكلام:

«وكل طعام حلال فلا ينبغي لأحد أن يأكل منه ما يثقل بدنه، فيحوجه إلى النوم، ويمنعه من العبادة، وليأكل بقدر ما يسكن جوعه، وليكن غرضه من الأكل أن يشتغل بالعبادة ويقوي عليها»[1].

فالمطلوب منك على الفور إذن ثلاثة أمور:

أولاً: نية صالحة لكل لقمة تؤكل، حتى يتحوَّل كل طعام لك إلى عبادة، ويُشبع روحك مع جسدك.

ثانيًا: قلة الأكل، وهي ما قال عنه النبي ﷺ: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، وعلامة ذلك أن تفارق المائدة وأنت لا تزال جائعا، وهو معنى قوله: «وإذا أكلنا لا نشبع».

ثالثًا: المواظبة على الصيام انتصارا لروحك على شهوة الأكل.

٢- كثرة النوم:

النوم كالملح لابد من قليل منه في الطعام، لكن زيادته مضرة وتجعل طعم الحياة غير مستساغ، فلكثرة النوم أضرار كثيرة، وما قسوة القلب إلا أحد نتائجها، وقد سبق وأن أحصى أبو حامد الغزالي عواقب كثرة النوم فقال:

«وفي كثرة النوم: ضياع العمر، وفوت التهجد، وبلادة الطبع، وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد فيه يتجر، والنوم موت، فتكثيره يُنقص العمر، ثم فضيلة التهجد لا تخفى، وفي النوم فواتها»[2].

وكيف يُكثِر النوم في هذه الدنيا من ينتظر أطول رقدة له في القبر؟! وكيف يُسرِف أحد في

(١) شعب الإيمان ٥/ ٢٢.
(٢) الإحياء ٣/ ٨٦.

النوم وهو أخو الموت من الرضاع؟! يا من قساوة قلبه أشد من الحجر..

يا طويل الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحسرات
إنَّ في القبر إن نزلت إليه لرقادا يطول بعد الممات
ومهادا مُمَهَّدا لك فيه بذنوب عملت أو حسنات
أأمنت الهجوم من ملك المو ت وكم نال آمنًا ببيات

لكن لماذا يصحو قاسي القلب إذا كان يتقلب طوال يومه في طبقات من النوم المتواصل، من نوم في اليقظة إلى نوم في المنام، إنها قسوة القلب تجعل صاحبها غير آبه بقيمة الوقت ولا مكترث به، فلا يوجد ما يفعله كي يستيقظ، لذا يغط في نوم عميق.

أسباب قلة المنام

قال ﷺ: «ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها»[1].

أي أن النوم وشدة الغفلة والاسترسال في الكسل ليست طرق الهارب من جهنم والطالب للجنة، بل إن طريقه يمر باليقظة ووثبات الهروب من جحيم المعاصي إلى جنة الطاعات، وفي الحديث معنى التعجب والاستنكار على من أكثر نومه وسدر في غفلته عما أُعِدَّ له.

ومما يعين على قلة النوم: همُّ الخوف من النار، فقد كان طاووس يفترش فراشه ثم يضطجع عليه فيتقلب كما تقلى الحبة على المقلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول: طيَّر ذكر جهنم نوم العابدين، وكان شداد بن أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبة على مقلاة فيقول: اللهم إن ذكر جهنم لا يدعني أنام، ثم يقوم إلى مُصَلاه، ولما قالت ابنة الربيع بن خيثم: يا أبت مالك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباك ينام!! وكان صفوان بن محرز إذا جنَّه الليل يخور كما يخور الثور ويقول: منع خوف النار مني الرقاد، وكان سفيان الثوري لا ينام إلا أول الليل، ثم ينتفض فزعًا

(١) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة والطبراني في الأوسط عن أنس كما في ص ج ص رقم: ٥٦٢٢.

مرعوبًا ينادي: النار النار.. شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقول عقب وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، وهؤلاء عبَّر عن حالهم شعرا عبد الله بن المبارك فقال:

إذا ما الليل أظلم كابدوه ... فيُسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا ... وأهل الأمن في الدنيا هجوع

ومما يعين على قلة النوم، معرفة قيمة الوقت، فوالله يا أخي.. لو أن ساعة من النوم حذفتها من ساعات نومك اليومية لأضفت إلى نفسك عمرًا آخر لو كنت تعلم، لتجد الفارق مبهجًا يوم القيامة.

ومما يعين على قلة النوم، قلة الأكل، فمن أكل كثيرًا نام كثيرًا فخسر كثيرًا.

ومما يعين على قلة النوم، التعامل مع الساعة البيولوجية بحكمة، فإن وظائف الجسم في الإنسان تستطيع أن تتكيف مع أي عدد من ساعات نومه، ولن يشبع أحد من كثرة النوم، لكن العاقل هو من أعطى جسمه راحته دون إفراط أو تفريط.

ومما يعين على قلة النوم، النوم على الشق الأيمن، «وقد قيل: إن الحكمة في النوم على الجانب الأيمن أن لا يستغرق النائم في نومه لأن القلب فيه ميل إلى جهة اليسار، فإذا نام على جنبه الأيمن طلب القلب مستقره من الجانب الأيسر، وذلك يمنع من استقرار النائم واستثقاله في نومه بخلاف قراره في النوم على اليسار، فإنه مستقره، فيحصل بذلك الدعة التامة، فيستغرق الإنسان في نومه ويستثقل، فتفوته مصالح دينه ودنياه»[1].

ومما يعين على قلة النوم، حمل الهَمّ وأعلاه هَمُّ الدعوة إلى الله، ورحمة الله على دعاة الإسلام في زماننا يحيون ما اندثر من سيرة السلف ويحيون قلوبنا عندما نسمع

(١) زاد المعاد ٤/ ٢١٩.

عن عزمهم، فقد حدَّثني والد زوجتي المهندس خيرت الشاطر أنه صاحب فضيلة الداعية الشيخ عبد المتعال الجبري في رحلة دعوية دائبة، لتتواصل حركته من بعد صلاة الفجر انتقالا من محاضرة إلى درس إلى سعي في قضاء حوائج حتى انتصف عليهما الليل، ووصلا البيت في تمام الساعة الثانية فجرًا، ليجدا عند رجوعهما من ينتظرهما ليستشير الشيخ في أمر!! فاعتذر الأخ المضيف قائلا: إن الشيخ متعب من سعيه طيلة اليوم ولن يستطيع مقابلة أحد، وهنا قال الشيخ: ومن قال لك أني متعب؟ يا أخي.. أنا يكفيني كل يوم من النوم ساعتان، مجتمعتان أو متفرَّقتان!! فجلس مع الرجل وأشار عليه في مسألته!!

أمة وسطًا

لكن الدعوة إلى التقليل من النوم لابد أن تكون معتدلة لا تغمط النفس حقها وضرورات حياتها، فتضر من حيث تريد أن تنفع، ولا تبلِّغ المقصود بل ضد المقصود. قال ابن القيم وهو يقود قافلتنا بحكمة في طريق الاعتدال:

«وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات؛ فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام: من سوء المزاج ويبسه وانحراف النفس وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل، ويورث أمراضا متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلا بالعدل، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير»[١].

أنفع النوم وأضره

فإن تابعت وسألت ابن القيم: وما أنفع النوم وما أضره؟! وما المستحب منه وما المكروه؟! فعلى الخبير وقعت، حيث أجابك – رحمه الله– قائلاً:

«وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه، ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره، ونوم

---

(١) المدارج ص ٤٦٠.

وسط النهار أنفع من طرفيه، وكلما قرب النوم من الطرفين قلَّ نفعه وكثر ضرره. ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران، ومن المكروه عندهم: النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس، فإنه وقت غنيمة، وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزِيَّة عظيمة حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس، فإنه أول النهار ومفتاحه، ووقت نزول الأرزاق، وحصول القسم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النهار، فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه: نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير، وهو مقدار ثماني ساعات، وهذا أعدل النوم عند الأطباء، وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسبه، ومن النوم الذي لا ينفع أيضًا: النوم أول الليل عقب غروب الشمس حتى تذهب فحمة العشاء، وكان رسول الله يكرهه، فهو مكروه شرعًا وطبعًا»[1].

مراعاة الفوارق

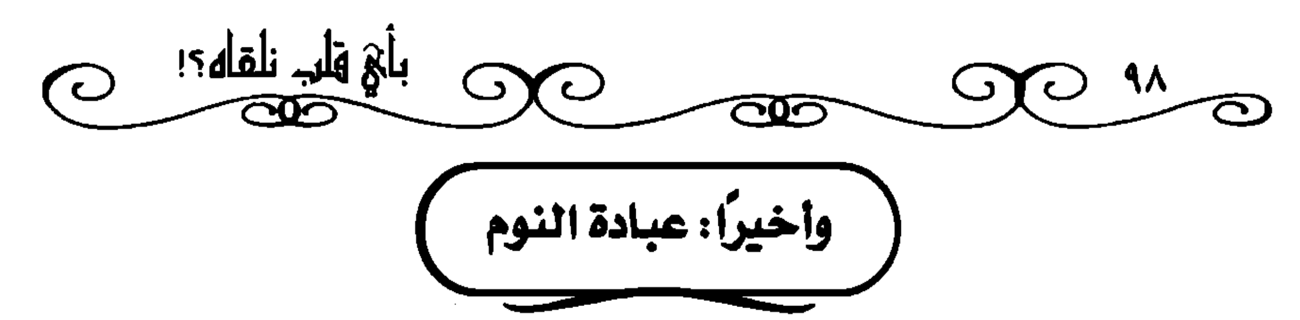
ومن الخطأ الفاحش معاملة الناس معاملة واحدة وعدم مراعاة اختلاف حال الأشخاص والقدرات؛ فمن الناس من تقِلُّ عدد ساعات نومه بطبيعته، ولابد كذلك من مراعاة اختلاف البيئات؛ فالبلاد الحارة غير البلاد الباردة، والبلاد المزدحمة غير البلاد الهادئة، ومراعاة اختلاف الأعمار كذلك؛ فما يحتاجه الشاب غير ما يحتاجه الشيخ، ومراعاة اختلاف الأعمال فأصحاب الأشغال الشاقة غير أصحاب الأعمال السهلة؛ والأعمال البدنية غير الأعمال الذهنية.

ولابد كذلك من فهم قضية البركة في الأوقات لدى الصالحين وإعطائها حقها. ومن الخطأ عدم مغالبة النعاس الخفيف إن وُجِد والاستجابة لدواعيه، ولو صمد صاحبه قليلاً لانقشع عنه وزال وربح هو وقته، وأخيرًا فمن الخطأ الشائع الإكثار من جوالب النعاس ككثرة الطعام والتمدد الطويل في غير وقت النوم[2].

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٦٠،٤٥٩.

(٢) الترف وأثره في الدعاة والصالحين ص ٨٥-٩٠ - محمد موسى الشريف – ط دار الأندلس الخضراء الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، وقد نقلته كما هو مختصرًا.



وأخيرًا: عبادة النوم

واسمع كيف حوَّل ﷺ نومه إلى عبادة، وكيف علَّمنا ذلك من بعده لنتعبَّد الله تعالى حتى أثناء نومنا؟!

فقد روت عنه عائشة رضي الله عنها أنه (كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر)[١]، وفي حديث آخر للعرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي ﷺ (كان لا ينام حتى يقرأ المُسبِّحات، ويقول: فيها آية خير من ألف آية)[٢]، والمُسبِّحات هي السور التي افتُتِحت بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ﴾ أو ﴿يُسَبِّحُ﴾، وهُنَّ سور: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

إن شأن أي مقتدٍ برسول الله ﷺ أن يقرأ هذه السور حتى يغلبه النعاس، وكأن المراد منك أن تنام وأنت تقرأ القرآن، وأن يكون هذا هو آخر ما ينطق به لسانك في يومك، وقد بيَّن ابن القيم فضل هذا النوع من الذكر قبل النوم، ورغَّبك فيه، ووضَّح لك الحكمة منه، وحسن العاقبة والجزاء عليه، وكل هذا ليغريك فتواظب، فقال:

«وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله، فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله»[٣].

ومكافأة أخرى عظيمة لمن نام وهو يذكر ربه نقلها لنا أبو أمامة رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أوى إلى فراشه طاهرًا وذكر الله تعالى حتى يُدركه النعاس، لم ينقلب ساعة من الليل يسأل الله شيئًا من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه»[٤].

٣- كثرة الكلام:

قال عطاء بن أبي رباح: «إن من قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو أن تنطق في معيشتك التي لا بد لك منها، أتذكرون أن عليكم

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والحاكم عن عائشة كما في ص ج ص رقم: ٤٨٧٤.
(٢) حسن: رواه الترمذي عن العرباض بن سارية كما في صحيح الترمذي رقم: ٢٧١٢.
(٣) طريق الهجرتين ١/٣١٨.
(٤) صحيح دون قوله «وذكر الله تعالى حتى يدركه النعاس» كما في صحيح الكلم الطيب رقم: ٨٢.

حافظين كرامًا كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحي أحدكم لو نشرت صحيفة التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته»[١].

إن من القلوب القاسية من لا يصلح معه إلا مثل هذه اللهجة القاسية، وإن كثرة الكلام بالباطل لا تُعالج إلا بقوة كلام الحق، لكن عبد الله بن المبارك كان أخف لهجة حين خاطب من كان قلبه بين القساوة والحياة قائلاً:

وإذا ما هممت بالنطق في البـ ... اطل فاجعل مكانه تسبيحا
فاغتنام السكوت أفضل من خوض ... وإن كنت في الحديث فصيحا[٢]

إن كثرة الكلام هي علامة واضحة على قسوة القلب لكن كثرة الكلام كذلك من أسهل الطرق الموصلة إليه.

لذا قال بشر بن الحارث: «خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام وكثرة الأكل»[٣]، وأخطر من ذلك قول النبي ﷺ:

«وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقًا الثرثارون المتفيهقون المتشدِّقون»[٤].

و«**الثرثارون**»أي الذين يُكثرون الكلام تكلفًا وتشدقًا، و«**المتفيهقون**»هم مدَّعو الفقه الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواههم تفاصحًا وتفاخرًا؛ وهو مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء والاتساع؛ لأنه يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه إظهارًا لفصاحته وفضله واستعلاء على غيره؛ ليميل بقلوب الناس وأسماعهم إليه، أما «**المتشدِّقون**» فهم الذين يتكلمون بأشداقهم ويتقعرون في مخاطبتهم من غير احتياط واحتراز.

---

(١) شعب الإيمان ٤/ ٢٧٤.
(٢) السابق ٤/ ٢٧٤.
(٣) حلية الأولياء ٨/ ٣٥٠.
(٤) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والطبراني والبيهقي عن أبي ثعلبة الخشني كما في ص ج ص رقم: ١٥٣٥.



لكن يبادرنا هنا سؤال

ما الدافع إلى كثرة الكلام؟!

قال المناوي:

«كثرة الكلام تتولد عن أمرين: إما طلب رئاسة يريد أن يرى الناس علمه وفصاحته، أو من قلة العلم بما يجب عليه في الكلام»[1].

فكثرة الكلام نابعة من قسوة القلب، فإن القلب القاسي إما أن يمتلأ بحب الرئاسة أو يمتلأ غفلة وعدم إدراك عواقب الكلام، وكلٌّ منهما دافع إلى كثرة الكلام، أما حب الرئاسة فيدفع صاحبه إلى التباهي بما فيه وما ليس فيه، فيمتلئ فخرًا ويطفح زهوًا، وأما قلة العلم فتجعل صاحبها ينسى أنه محاسب على فلتات لسانه وسنجاب فمه، فيكثر كلامه وإن كان فيه الهلاك، وصدقك نصر بن أحمد النصيحة حين أنشدك محذِّرًا:

لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل ... وكل امرئ ما بين فكيه مقتل
وكم فاتحٌ أبواب شرٍ لنفسه ... إذا لم يكن قفل على فيه مقفل
إذا ما لسان المرء أكثر هذره ... فذاك لسان بالبلاء مُوَكَّل
إذا شئت أن تحيا سعيدا مُسلَّما ... فدبِّر وميِّز ما تقول وتفعل

وإن كثرة الكلام مُهلكة مُهلكة حتى وإن كان الكلام مباحا، لأنها ستجر حتما إلى الكلام الحرام، والشيطان يستدرجك لينقلك من المنطقة المباحة إلى الدائرة المحرّمة، وكثرة السير في الأرض الموحلة لابد أن تؤدي بصاحبها إلى الانزلاق في الوحل. قال عمر ﷺ «من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه مات قلبه»[2].

وحسب كثير كلامه أنه بمثابة من ينتظر الفتنة والموشك على الخطأ، ويكفي قليل الكلام أنه ينتظر الرحمة ويدنو بإنصاته من الهداية والصواب.

---

(١) فيض القدير ٤/ ٣٥٠.
(٢) الإحياء ٣/ ١٢٨.

ولأن العاقل يعلم أنه محاسب عن كل كلمة، لذا يتفكَّر في كلامه أولا، فإن كان لله أمضاه، وإن كان لغيره حبسه؛ لذا قلَّ كلامه، وسكت عن كثير الكلام، أما قاسي القلب فلا يعمل حسابًا لقول أو كلام لذا ينطق بكل سوء، ويزيد في منطقه دون خشية أو مراقبة، إن القلب الحي مصفاة لكل قول سيئ، والقلب القاسي باب مفتوح لكلمات السوء. فعن الحسن البصري قال:

«كانوا يقولون إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هَمّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه»[١].

وليست كثرة كلام المرء من العقل في شيء، لذا كان من أحكم ما قيل: إذا تمَّ العقل نقص الكلام، وقد قال المُهلب بن أبي صفرة الأزدي: «يعجبني أن أرى عقل الرجل الكريم زائدا على لسانه»[٢].

وهل أوفر عقلاً وأكثر نبوغًا من رسول الله ﷺ؟! لذا كان من صفات كلام النبي ﷺ أنه كان يُحدِّث حديثا لو عده العاد لأحصاه، وهذا هذا إشارة إلى قلة كلامه، وفي هذا كذلك: الوقار والمهابة التي يلبس تاجها أحياء القلوب.

تاج الوقار وحسن سمت المسلم   صمت المليء وحكمة المتكلِّم

وقد جعل أبو الدرداء ﷺ قلة الكلام من علامات الفقه؛ ما هو بغزارة العلم ولا كثرة الرواية، فقال رحمه الله: «من فقه الرجل قلة كلامه فيما لا يعنيه»[٣].

أقلل كلامك واستعذ من شرِّه   إنَّ البلاء ببعضه مقرون
واحفظ لسانك واحتفظ من عيِّه   حتى يكون كأنه مسجون
وكِّل فؤادك باللسان وقُلْ له   إنَّ الكلام عليكما موزون

وفي نهاية كلامنا عن كثرة الكلام يبادرنا سؤال: هل لابد لأحياء القلوب أن يكونوا قليلي الكلام؟!

---

(١) الإحياء ٣/ ١١٠.
(٢) تاريخ بغداد تاريخ بغداد ٩/ ٢٠١.
(٣) أدب المجالسة ص ٨٦.

والجواب: كلا؛ ليس إذا كان الكلام صحيحًا وفي الخير؟! ولذا لما عيب إياس بن معاوية بكثرة الكلام قال: وأما كثرة الكلام فبصواب أتكلم أم بخطأ؟ قالوا: بصواب. قال: «فالإكثار من الصواب أمثل»[(١)].

٤- كثرة المخالطة:

والمقصود بها: مخالطة المرضى والاحتكاك بأموات القلوب ومعايشة قساة المشاعر الإيمانية والمبيت وسط من يذكِّرونك بالدنيا وليس لهم من الآخرة نصيب، وهؤلاء يجرونك نحو النار جرا ويوصدون في وجهك أبواب الجنة، وفيهم يقول ابن القيِّم رحمه الله:

«وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية، وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على أبي طالب ﷺ عند الوفاة أضرَّ من قرناء السوء؛ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد»[(٢)].

وغني عن القول أن الصاحب جسر إلى الرحمة أو اللعنة، والصديق سائق إلى الجنة أو النار، لذا قصَّ الله تعالى علينا في القرآن قصة يوم الندم فقال: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

والقصة أن عقبة كان قد همَّ بالإسلام فمنعه منه أمية بن خلف وكانا صديقين، وكان عقبة قد صنع وليمة فدعا إليها قريشا، ودعا رسول الله ﷺ فأبى أن يأتيه إلا أن يُسلم، وكره عقبة أن يتأخر عن طعامه أحد من أشراف قريش فأسلم ونطق بالشهادتين، فأتاه رسول الله ﷺ وأكل من طعامه، فعاتبه خليله أمية بن خلف وكان غائبا، فقال عقبة: رأيت عظيما ألا يحضر طعامي رجل من أشراف قريش، فقال له خليله: لا أرضى حتى ترجع وتبصق في وجهه وتطأ عنقه وتقول كيت وكيت، ففعل عدو الله ما أمره به خليله؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان: ٢٧].

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ٢٦٤.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٥٤، ٤٥٥، ط دار الكتاب العربي.

والظالم هنا هو عقبة بن أبي معيط وخليله هو أمية بن خلف، ولم يُسمَّيا في الآية لأنه أبلغ في الفائدة، ليُعلم أن هذا سبيل كل ظالم أطاع صاحبه في معصية الله.

قال مجاهد: «الظالم عام في كل ظالم»(١).

إشارة إلى كل ظالم اتخذ خليلاً له يصده عن الذكر بعد إذ جاءه على يد نبيه، ويصرفه عن ما فيه نجاته، ليرتدع التابع ويرتجف رعبا هو يرى نفسه يُقرن بمن بصق في وجه رسول الله ﷺ، وداس على عنقه وقُتل على يديه.

ومن يكن الغراب له دليلا يمرّ به على جيَف الكلاب

إن تأملاً في من يُحشر معهم المرء يكفي للتخلص من أثر هذا السم في الحال ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، ولكن قساة القلوب من الظالمين أعاجم لا يفهمون لغة القرآن، وهو سُمٌّ ليس لك تتهاون في تناول جرعة واحدة منه وإلا كان العطب (**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**).

وإن أي طالب للشفاء اليوم وباحث عن العافية سيفشل حتما ويظل متخبِّطًا في الضلال والظلمة، وكلما قام سقط، وكلما تقدَّم تعثَّر؛ ما لم يتخذ القرار المصيري الحاسم بهجر الرفقة المهلكة والتي تشده إلى الوراء وتهوي بإيمانه إلى الأسفل، ولن تُجدي أبدا جرعة دواء ما دام يعقبها جرعة سم، ولن تحصل عافية يوما ما دمت تُصبح وتُمسي بين أعداء العافية.. ألا فانتبه!!

أخي..

كاذبٌ ثم كاذبٌ من ادَّعى قدرته على معايشة البيئة الفاسدة دون التأثر بغبارها، لأن قلبه قلب بشر لا قلب مَلَك، وسيتأثر حتما بالبيئة المحيطة سلبا أو إيجابا، وإلا لماذا أمر الله رسوله المؤيَّد بالوحي والذي رأى الجنة والنار رأي العين بصيانة سمعه وبصره ومفارقة مجالس السوء؟ بل وحذَّره من أن يفتن بهم قائلا: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ

(١) القرطبي.

عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فإذا كان هذا التحذير للنبي ﷺ وهو أطهر القلوب وأنقاها وأشرفها وأزكاها؛ بل وأبعدها عن التأثر بها يتأثر به غيره، فكيف بغيره؟! بل لما ذهب إلى عرس من أعراس الجاهلية ألقى الله على عينيه بالنعاس صيانة له وحفظا.



سببا المرض

إن سبب الإقبال على صحبة السوء هو التشابه أو الغفلة، فأما التشابه فقد كان مالك بن دينار يقول: «لا يتفق اثنان في عِشرة إلا وفي أحدهما وصفٌ من الآخر، وإن أجناس الناس كأجناس الطير، ولا يتفق نوعان من الطير في الطيران إلا وبينهما مناسبة. قال: فرأى يومًا غرابًا مع حمامة فعجب من ذلك، فقال: اتفقا وليسا من شكل واحد، ثم طارا فإذا هما أعرجان، فقال: من ها هنا اتفقا»(١).

ولذلك قال بعض الحكماء: كل إنسان يأنس إلى شكله؛ كما أن كل طير يطير مع جنسه. وإذا اصطحب اثنان برهة من زمان ولم يتشاكلا في الحال فلا بد أن يتفرقا، وهذا معنى خفي فطن له الشعراء حتى قال قائلهم:

وقائل كيف تفارقتما ... فقلت قولا فيه إنصاف

لم يك من شكلي ففارقته ... والناس أشكال وألاف

وأما الغفلة فالمقصود بها: عدم الانتباه إلى سهولة انتشار العدوى وعموم البلوى بالمخالطة، والإنسان بطبعه وحكم بشريته يتأثر بصديقه وجليسه، ويكتسب أخلاق قرينه وخليله؛ لأن رفقة السوء أعدى من الجرب، ولربما يعدي السليمَ الأجربُ، وقد قال ابو قدامة في كلام مختصر حواه كتابه مختصر منهاج القاصدين، وهو يرصد فيه ما خفي عن غيره من الأطباء والمرضى من عواقب رفقة السوء:

«مسارقة الطبع من أخلاقهم الرديئة، وهو داء دفين قلما ينتبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنه قلَّ أن يجالس الإنسان فاسقًا مدة، مع كونه منكرًا عليه في باطنه، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فارقًا في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيِّنًا على الطبع، ويسقط وقعه واستعظامه، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره، احتقر الصغائر من نفسه»(٢).

---

(١) الإحياء ٢/ ١٦٢.

(٢) مختصر منهاج القاصدين - ربع العادات.

ومن آثار صحبة السوء: الرضا عن النفس، وما حال مريض يقارن نفسه بالأموات؟! أو يفرح أن وجد نفسه أعور بين قطيع من العُمي؟! أو يظن بنفسه الخير أن كان يهوي إلى أسفل وغيره أسفل منه؛ كلاهما يهوي لكنه مطمئن أن أخاه أقرب منه إلى الهاوية!! وهو معنى قول ابن عطاء: ربما كنت مسيئًا فأراك الإحسان صحبة من هو أسوأ حالاً منك.

ومن آثارها: حالة الموت السريري أو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن مخالطة الفاسدين تُضعِف قوة الإنكار في القلب، ومع مرور الوقت تنعكس المشاعر، وتتحول كراهة المنكر إلى حب له واستئناس به، وحتى إن لم تنطمس الفطرة وتصل إلى هذا المنحدر يكون السكوت عن الإنكار حتى لا يخسر الصديق صديقه أو حتى يؤذي مشاعره!!

وجَّه علي باشا ماهر الدعوة للإمام الشهيد حسن البنا لحضور حفل زفاف ابنه بالإسكندرية، فذهب الأستاذ المرشد إلى الإسكندرية ونزل عند الإخوان، وكلَّف الأستاذ أحد الإخوة الذين رافقوه بالذهاب إلى الحفل، وقال له: إذا لم تجد أي مخالفة شرعية فاتصل بي تليفونيًّا حتى أحضر، وإذا وجدت ما يُسبِّب أي حرج فقم أنت بالواجب، وانتظر الأستاذ فترة، ولم يتصل به الأخ، فقال الأستاذ للإخوان: ألا توجد مناسبة عند أحد الإخوة؟ قالوا: بلى، عند فلان عقد زواج، فذهبوا جميعًا، وكانت مفاجأة سارة، وعمت الفرحة والبهجة[1].

ومن آثارها نفور الصالحين منك بعد أن أدنيت أهل السوء، وهي وصية الواعظ أبي حازم لما دخل على أمير المدينة، فقال له: تكلم. قال له: «انظر الناس ببابك، إن أدنيت أهل الخير ذهب أهل الشَّر، وإن أدنيتَ أهل الشَّر ذهب أهل الخير»[2].

فإذا وجدت الصالحين يهربون منك والعابثين يهربون إليك، وإذا لم تجد حولك غير قساة القلوب الذين يمتصون حيوية القلب وآثار حياته، فاعلم أنك أنت السبب، لأن الضوء لا يدخل مكانا حتى يطرد منه الظلام، ولا يملؤ العسل وعاءً مُلئ بالعلقم.

---

(١) مائة موقف من حياة المرشدين لجماعة الإخوان المسلمين ص ٥٤ – ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
(٢) الحلية ٧/ ٢٨٦.

ولهذا حذَّر عالم المدينة وسيد التابعين في زمانه سعيد بن المسيب [ت: ٩٤] من مجرَّد النظر إلى الفئة الضالة فضلاً عن مخالطتهم؛ فقال متخذًا أقصى درجات الحيطة ومتجنبًا أولى خطوات الانهيار والسقوط:

«لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة؛ بل هؤلاء لا سلامة في مخالطتهم، وإنما السلامة في الانقطاع عنهم»[1].

٥- نقض عهد الله:

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

فجعل الله نقض العهد معه سببًا رئيسًا لقسوة القلب، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

فتأمل هذه القصة[2]، وهي أن هؤلاء القوم عاهدوا الله إن آتاهم من فضله أن يتصدقوا

---

(١) الإحياء ٢/ ١٧٢، ١٧٣.

(٢) قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري التي يرويها بعض المفسرين كسبب لنزول آية في سورة التوبة قصة باطلة، والقصة بإيجاز: أن ثعلبة سأل رسول الله ﷺ يدعو الله أن يرزقه مالاً فقال له النبي ﷺ: أما ترضى أن تكون مثل نبيك، فإنني لو شئت أن يسير معي مثل أحد ذهبًا لكان ذلك، فقليل تؤدي شكره خير من كثير يشق عليك، فقال: لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعا له النبي ﷺ بكثرة المال، فاتخذ غنمًا نمت وكثرت فضاقت به المدينة، فنزل بواد خارج المدينة، وجعل لا يحضر للجماعة إلا الظهر والعصر، ثم كثر ماله فصار لا يحضر إلا الجمعة، ثم كثر ماله حتى صار يتخلف عن الجمعة، فسأل عنه النبي ﷺ فأخبر خبره، فقال: ويح ثعلبة، ثم لما أرسل النبي عماله لجباية الزكاة قال: مروا على فلان وفلان وعلى ثعلبة، ففعلوا فقال لهم ثعلبة: ما أظن هذه إلا أخت الجزية وامتنع عنها، فجاء العمال وأخبروا النبي ﷺ، فقال: هلك ثعلبة وأنزل الله الآية السابقة فسمعها بعض أقارب ثعلبة فخرج إليه وقال: ويحك يا ثعلبة!! قد أنزل الله فيك كذا، فجاء ثعلبة وعرض على النبي ﷺ صدقته فقال: إن الله أمرني أن لا آخذها منك، ثم لما قبض النبي ﷺ جاء بصدقته إلى أبي بكر ﷺ، فقال: كيف آخذها ولم يأخذها النبي منك وأبى أخذها، ثم لما قُبِض أبوبكر ﷺ جاء بها عمر بن الخطاب ﷺ فلم يأخذها لذات السبب، ولما قُبِض عمر ﷺ جاء عثمان ﷺ فرده كصاحبيه، ثم توفي ثعلبة.

وقد طعن بها الحافظ ابن حجر في الإصابة، وابن الأثير في أسد الغابة، والعلامة المحقق عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على الأجوبة الفاضلة، فضلاً عن الانتقادات الموجهة للقصة وهي: ثعلبة بن حاطب بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان فما روي عنه باطل وغير صحيح، إضافة إلى أنها تعارض أصلاً ثابتًا في الدين وهو قبول التائب ما لم يغرغر، فإن المشرك إذا أذنب وتاب تاب الله عليه، فكيف بمانع الزكاة؟! ومهما يكن فليس ثعلبة شرًّا من عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين الذي كان النبي ﷺ يحسن عشرته فكيف يردُّ ثعلبة؟! لهذا فإن هذه قصة باطلة لا يصح أن تُروى إلا على وجه التنبيه والترهيب.

مما آتاهم، ولكن لما آتاهم الله من فضله نكصوا على أعقابهم، وغدروا في ما عاهدوا، فكانت العقوبة أن أعقبهم الله تعالى نفاقًا دائمًا في قلوبهم يبقى معهم حتى الممات، وهذا وعيد مخيف يرتعد منه المرء إن هو خالف ما سبق وأن عاهد ربه عليه: أن يصل إلى ما انحدر إليه هؤلاء المنافقون، فإن قانون التماثل لا يتخلَّف ولا يتبدَّل، فإن فعلنا مثل ما فعل أسلافنا من الأمم والأقوام السابقة وصلنا إلى ما وصلوا إليه خيرًا كان أو شرًّا، وما ربك بظلام للعبيد.

إن منا من إذا نزلت به بلية أو مرض أو احتاج إلى ربه في حل مشكلة ألَمَّت به؛ أناب وخضع وتاب وخشع، وعاهد الله لئن كشف الله عنه ما هو فيه ليفعلن وليكونن، ثم لا يكون بعدها إلا التولي يوم الزحف، وإخلاف الوعد مع البشر من نواقض المروءة؛ فكيف بنقض العهد مع الله؟! لذا يشتد غضب الله على هذا المستهين بربه، فيضرب على قلبه القسوة والنفاق.

أعرف رجلاً كان أبعد ما يكون عن الله، لكنه ابتُلي بمرض عضال، فصار المسجد بيته، والقرآن نطقه، وأقبل على الصلاة بعد أن هجرها دهرًا، وأشرقت عيناه بدمع الندم بعد أن ولى زمان الجدب؛ حتى شفاه الله وأخذ بيديه إلى العافية، فرجع إلى سابق عهده ناكثًا مدبرًا، دون أن يدرك قبح فعلته وهول غدرته، فماذا كانت النتيجة؟! تيه في دروب الحياة وقسوة أشد وبعدًا أكثر عن ساحل النجاة، حتى يتوفاه الموت أو يجعل الله له سبيلاً.

٦- تعليم العلم دون استعماله:

قال ذو النون وقد سئل: ما أساس قسوة القلب للمريد؟! فقال: «ببحثه عن علوم رضي نفسه بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها»[١]

والسبب في هذه العقوبة أنه رغَّب الناس في بضاعة زهد هو فيها، وأرشد الناس إلى دواء لم يستعمله، وحمل بين يديه الهناء فاختار الشقاء؛ ومن العجائب أعمش كحَّال؛ ولذا كانت عقوبته إماتة قلبه وحرمانه من الحياة.

إن كثرة الوعظ قد تذهب بتأثيره في قلب الواعظ لاعتياده إياه وتكراره له مرات كثيرة وفي محافل شتى.

---

(١) الحلية ٩/ ٣٦١.

والأمر يحتاج إلى نوبة إفاقة متكرِّرة وعلى الدوام، وإلى إتقان مهارة التأثير في النفس إضافة إلى مهارة التأثير في الغير، وإلا كان حظ الإنسان من وعظه: لسانه، ونصيبه من موعظته: دموع غيره، ودوره مع كلامه: هداية المستمعين إليه، وهو ما حذَّر منه رسول الله ﷺ: «**مثل العالم الذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه؛ كمثل السراج يضيء للناس ويُحرِق نفسه**»[1].

كان السري السقطي يُعجب مما يرى من علم الجنيد وحسن خطابه وسرعة جوابه، فقال له يومًا وقد سأله عن مسألة فأجاب وأصاب: أخشى أن يكون من الدنيا لسانك، فكان الجنيد لا يزال يبكي من تلك الكلمة[2].

وتأمَّلوا رقة قلب وحياة روح سيد الوعاظ الواعظ الكوفي ابن السماك فقد ذكر النار في بعض مجالسه، فبكى وأبكى ووعظ وذكر وجرى مجلس حسن جميل، فلما كان في المجلس الثاني دُفِعت إليه رقعة كان فيها:

يا أيها الرجل المعلِّم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء من السقام لذي الضنا ... كي ما يصحُّ به وأنت سقيم
وأراك تملو بالرشاد عقولنا ... نصحًا وأنت من الرشاد عديم

فمرض من ذلك مرضًا شديدًا، وتُوفِّي منه رحمه الله!![3].

ومثلما كان في الكوفة أحياء قلوب كان لهم إخوان في أقصى المغرب في أرض الأندلس يخافون من نفس المصير ويتهمونة النفس بالتقصير، ومنهم المنذر بن سعيد القاضي الأندلسي الذي خطب يومًا وأراد التواضع؛ فكان من فصول خطبته أن قال:

«حتى متى؟ وإلى متى؟ فكم الذي أعظ ولا أتعظ؛ وأزجر ولا أزدجر، أدل الطريق على المستدلين، وأبقى مقيمًا مع الحائرين! كلا إن هذا لهو الضلال المبين! ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ**﴾ [الأعراف: ١٥٥] اللهم فرغني لما خلقتني له! ولا تشغلني بما تكفَّلت لي به! ولا تحرمني وأنا أسألك! ولا تعذِّبني وأنا أستغفرك! يا أرحم الراحمين!».

---

(١) صحيح: رواه الطبراني والضياء عن جندب كما في صحيح الجامع رقم ٥٨٣١.
(٢) مجموعة رسائل ابن رجب ١/ ٩٥ - ط الفاروق الحديثة للطباعة [illegible]
(٣) شعب الإيمان ٢/ ٣١٦ [illegible]

طواف أهل النار

قال رسول الله ﷺ:

«يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان! ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[(١)].

يُقال أطاف به القوم إذا حلقوا حوله حلقة، وهذا الطواف يكون يوم القيامة، حيث يجتمع إليه أهل النار، تتملَّكهم أقصى درجات الدهشة والتعجُّب ممن كان يحذِّرهم من النار ثم صاحبهم فيها، ويدعوهم إلى الجنة ثم حُرِمها معهم، فتندلق أمعاؤه، وتنكشف أسراره، ويُبدي الله ما كان يُخفيه، ويفضح ما كان غارقًا فيه.

لهذا ألحَّ الصحابة على كل من دخل طريق الدعوة أن يكون مؤهَّلاً، وقلبه مهيَّئًا، وروحه مستعدة، وإلا كان دخيلاً على جمهور الدعاة، والمستزيد من العلم دون العمل به شبيه بشجر الحنظل؛ كلما ازداد ريًّا بالماء ازداد مرارة، فقد جاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال:

يا ابن عباس!! إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. قال: أو بلغت؟ قال: أرجو. قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل. قال: وما هن؟ قال: قوله عز وجل: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] أحكمت هذه الآية؟! قال: لا. قال: فالحرف الثاني. قال: قول الله عز وجل: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: فالحرف الثالث. قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] أحكمت هذه الآية؟ قال: لا. قال: «فابدأ بنفسك»[(٢)].

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أسامة بن زيد كما في ص ج ص رقم: ٨٠٢٢.
(٢) شعب الإيمان ٦/ ٨٨.

٧- كثرة الذنوب:

قال ﷺ: «الإثم حوَّاز القلوب، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع»[(١)].

وحوازٌّ بتشديد الزاي أو الواو، فهي حَوَازٌّ بتشديد الزاي جمع حازٍّ، وهي الأمور التي تحزُّ فيها أي تؤثِّر، كما يؤثر الحزُّ في الشيء، أو حوَّاز بتشديد الواو، أي يحوزها ويتملكها ويغلب عليها.

وسواء كان المراد أن الذنوب تجرح القلوب وتؤثر فيها، أو تحوز القلوب وتسيطر عليها، فإن ضررها عظيم وفادح؛ ولذا كان من رحمة الله بعباده أن فرض عقوبات تنبيهية لتستيقظ القلوب رهبًا وترتعد الأطراف وجلاً، فتغلق على العدو بابًا سبق وأن ولج منه، وتطرد فلوله على أدبارها بعد أن غزا قلعته.

الذنب إذن يُضعف مقاومة حصن القلب العتيد في مواجهة المعاصي، فتنهار مقاومته أمام أي شهوة، ويستسلم لأي غفلة، فإذا تتابعت على القلب غزوات العدو مع انعدام الحراسة عليه أصابته حالة من حالات السُّكر، فيصبح كالمخمور، بل إن المخمور قد يكون أفضل حالا منه، فإنه تأتيه ساعة إفاقة يصحو فيها ويعقل، بل لو صادف شيئًا ينقذه من همومه غير الخمر لربما تركها، أما مخمور القلب فلا يفيق من سكرته إلا على دقات ملك الموت يطرق بابه!! فهو ميت في صورة حي، وحجر في صورة قطعة لحم!!

إن الوقوع في الذنوب مع عدم النزوع عنها والمداومة عليها يؤدي إلى القساوة أو الموت؛ لذا كان من بديع شعر ابن المبارك الذي رصد فيه هذا المعنى قوله:

رأيتُ الذنوب تُميت القلوب ... ويورث الذلَّ إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخيرٌ لنفسك عصيانها

٨- كثرة الضحك:

وهي وصية النبي ﷺ لنا حيث قال ناصحًا أبا هريرة:

---

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦١٣.



«ولا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب»[١].

قال المناوي:

«أي تصيره مغمورًا في الظلمات بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها شيئًا من مكروه، وحياته وإشراقه مادة كل خير، وموته وظلمته مادة كل شر، وبحياته تكون قوته وسمعه وبصره وتصور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه»[٢].

وموت القلب هو أصل فساده؛ لذا قال ﷺ في حديث آخر:

«وإياك وكثرة الضحك، فإن كثرة الضحك فساد القلب»[٣].

أي أن كثرة الضحك تورث قسوة القلب، لأن الإفراط فيه يورث الانغماس في اللهو والغفلة عن الآخرة. وإذا كان الإسلام يكره الغلو والإسراف في كل شيء ولو كان في العبادة؛ فكيف باللهو والمرح؟!

هزل الأطباء!!

والبعد عن الإفراط في المزاح أوجب للدعاة، فهم القدوات والصور التي يتأمل الناس حسنها ثم يقلِّدونها، وهم الأصل الذي يستنسخ منه الناس نسخًا من أعمالهم الزكية، فإذا كان الأصل مهتزًّا فكيف بالصورة؟! والبحر الذي يغسل الأدران إذا كان غير نظيف فكيف يُطهِّر؟! وكيف تقسو قلوب من مهمتهم أن تلين بهم قلوب الناس؟! وكيف يموت قلب مطلوب منه أن يحيي قلوب الآخرين؟! ولذا كان من الوصايا العشر للإمام البنا وصيتان مرتبطتان بهذا الأمر؛ الأولى: «لا تمزح فإن الأمة المجاهدة لا تعرف إلا الجد»، والثانية: «لا تكثر الضحك فإن القلب المتصل بالله ساكن وقور»، ويبيِّن ذلك جليًّا ويحذِّر منه بشدة بعد أن رصده بدقة في تقريره الميداني المفصَّل الأستاذ الراشد فيقول:

«وقضايا الإسلام أوفر جدًّا وأثقل همومًا من أن تدع عصبة من الدعاة تطيل الضحك،

---

(١) حسن: رواه أحمد والترمذي والبيهقي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ١٠٠.
(٢) فيض القدير ١/ ١٢٤.
(٣) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٧٨٣٣.

وتستجيز المزاح، وتتخذ لها من صاحب خير فيها محور تندُّر وتروي قصصه وغرائبه، والابتسامة علامة المؤمن ولسنا نُنكرها، والنكتة في ساعتها سائغة، والأريحية أصل في سلوكنا والألفة والبشاشة، ليس العبوسة، والقهقهة الأولى لك. والثانية نهبها لك أيضًا، فإنا كرماء، ولكن الثالثة عليك، وتشفع حسناتك لها عندنا. وأما الرابعة فيلزمها حد لا شفاعة فيه، وشعار: الضحك ننصحك؛ باطل، والهزل الهزيل مرفوض في أوساط العمل الإسلامي، وإنما الداعية مُفوَّض بالجد والتجديد»[1].

بقي عليك أربعة

حتى تستكمل آداب المزاح وتحيط بها علمًا؛ هاك ما يلي من شروط المزاح المباح:

أولها: ألا يكون كذبًا، ولهذا قال ﷺ: **«ويل للذي يُحدِّث فيكذب ليُضحك به القوم، ويل له، ويل له»**[2].

قال المناوي: «كرَّره إيذانًا بشدة هلكته، وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم، وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إليه استجلاب الضحك الذي يميت القلب، ويجلب النسيان، ويورث الرعونة؛ كان أقبح القبائح»[3].

وغالبًا ما يؤدي بصاحبه إلى الكذب؛ لأن غرضه أن يُضحك الناس كيفما كان، فيسحبه الشيطان رويدًا رويدًا دون أن يشعر حتى يكذب ليُضحك غيره.

ثانيًا: ألا يشتمل على تحقير أو استهزاء أو سخرية من أحد لقول النبي ﷺ محذِّرًا:

«بحسب امرئ من الشَّر أن يحقِر أخاه المسلم».

ثالثًا: ألا يؤدي إلى ترويع مسلم، فقد روى النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فخفق رجل على راحلته، فأخذ رجل سهمًا من كنانته،

(١) تقرير ميداني.
(٢) حسن: رواه أحمد وأبوداود والترمذي والحاكم عن معاوية بن حيدة كما في ص ج ص رقم: ٧١٣٦.
(٣) فيض القدير ٦/ ٣٦٨.

فانتبه الرجل ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يحل لرجل أن يُرَوِّع مسلمًا**»(١).

والسياق يدل على أن الذي فعل ذلك كان يمزح، وقد ورد في الحديث: «**لا يأخذن أحدكم متاع صاحبه لاعبًا ولا جادًّا، وإن أخذ عصا صاحبه فليردُّها عليه**»(٢).

رابعًا: ألا يهزل في موضع الجد، ولا يضحك في مجال يستوجب البكاء، فلكل شيء أوانه، ولكل مقام مقال، والحكمة هي وضع الشيء في موضعه المناسب.

وأقبح المزاح ما كان في لحظة خشوع أو عقيب طاعة، فإنه يذهب بأثرها ويضيع مفعولها في الحال، وبعد أن كان القلب خاشعًا وجلاً خائفًا رطبًا؛ إذا به يتحوَّل، وليس قلب المازح وحده بل قلوب كل من سمعوا مزاحه وتأثَّروا به.

وقد عاب الله تعالى على المشركين أنهم كانوا يضحكون عند سماع القرآن وكان أولى بهم البكاء، فقال عز وجل: ﴿ **أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ** ﴾ [النجم: ٥٨-٦٠].

اعتراض!!

قال أبو حامد الغزالي متقمِّصًا كلاً من شخصية المعارض والمؤيد:

«فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف يُنهى عنه؟! فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو: أن تمزح ولا تقول إلا حقًّا، ولا تؤذي قلبًا، ولا تُفرِّط فيه، وتقتصر عليه أحيانًا على الندور، فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه، ويُفرِّط فيه، ثم يتمسك بفعل الرسول ﷺ، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم؛ ويتمسك بأن رسول الله ﷺ أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار، فلا ينبغي أن يُغفل عن هذا»(٣).

---

(١) حسن صحيح: رواه الطبراني في الكبير عن النعمان بن بشير ورواته ثقات كما في صحيح الترغيب والترهيب ٣/ ٤٢.
(٢) حسن: رواه أحمد وأبوداود والترمذي عن السائب بن يزيد كما في ص ج ص رقم: ٧٥٧٨.
(٣) الإحياء ٣/ ١٢٨، ١٢٩.

٩- أكل الحرام:

السم الذي يصل إلى القلب عن طريق أكلة محرمة يتسبب على الفور في موت القلب ويبوسه؛ إن لم يتدارك الإنسان نفسه بترياق التوبة ودموع الندم، وقد قرَّر علماء القلوب مرارًا أنه لا ينشأ من أكل الحرام إلا فعل الحرام، ولا من أكل الحلال إلا فعل الطاعات، فلو أراد آكل الحلال أن يعصي لما قدر، ولو أراد آكل الحرام أن يطيع لما قدر.

فأكل الحلال هو الذي تلين به القلوب وتسمو على إثره الروح، وهو دواء غير معتاد وزاد يغفل عنه الكثيرون، ويحسبون الأمر بكثرة الصيام وطول القيام فحسب، وهو الأمر الذي غاب عن بشر بن الحارث وعن صاحبه عبد الوهاب ابن أبي الحسن، لكن ما كان ليغيب عن إستاذهما أحمد بن حنبل، فعن أبي حفص عمر بن صالح الطرسوسي قال:

«ذهبت أنا ويحيى الجلاء إلى أبي عبد الله فسألته، فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله بم تلين القلوب؟! فأبصر إلى أصحابه فغمزهم بعينه، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: يا بني بأكل الحلال، فمررت كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث، فقلت له: يا أبا نصر! بم تلين القلوب؟! قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فقال: هيه.. إيش قال لك أبو عبد الله؟! قلت: بأكل الحلال، فقال: جاء بالأصل، فمررت إلي عبد الوهاب بن أبي الحسن، فقلت: يا أبا الحسن! بم لين القلوب؟! قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب. قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فاحمرت وجنتاه من الفرح، وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟! قلت: قال بأكل الحلال، فقال: جاءك بالجوهر.. جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال»[١].

ومن هنا أفتاك إبراهيم بن أدهم بما يلي:

«أطب مطعمك؛ ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم بالنهار»[٢].

---

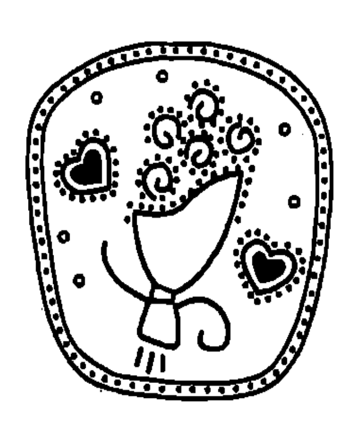
(١) الحلية ٩/ ١٨٣.
(٢) السابق ٨/ ٣١.

بل وعقد هؤلاء العلماء المقارنات وعلّموك مبكّرًا ما يُعرف بفقه الأولويات، فنطق عبد الله بن المبارك وقال: «ردُّ درهم من شبهة أحب إليَّ من أن أتصدق بمائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف؛ حتى بلغ إلى ستمائة ألف»[1].

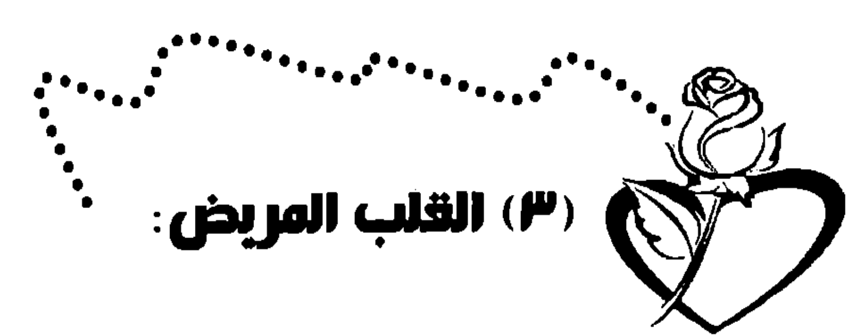
ومن بعد جاء إبراهيم بن أدهم الذي أرشدنا إلى طريق الارتقاء في مدارج المتقين فقال: «ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه».

والثالث هو الفضيل بن عياض الذي قال: «من عرف ما يدخل جوفه كتبه الله صديقًا، فانظر عند من تفطر يا مسكين»، وأخيرًا سفيان الثوري الذي فضح آكلي الحرام المتستِّرين بالتصدق منه ببعض الإحسان، فعرَّفهم حقيقة ما صنعوا بمثل واضح فاضح: «من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهَّر الثوب النجس بالبول، والثوب النجس لا يطهِّره إلا الماء، والذنب لا يكفِّره إلا الحلال».

وقرَّر أخيرا أبو حامد الغزالي في صرامة واضحة بعد أن استدل بكلام هؤلاء الفضلاء السابقين (أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها)[2].



(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٩٤.
(٢) الإحياء ٤/ ٤٢٩.



(٣) القلب المريض:

المرض دون القساوة، والقلب المريض هو المتذبذب بين السلامة والقساوة، فهو يعلو حينًا ويهبط حينًا، وهو القلب الذي تمده مادتان: مادة إيمان ومادة كفر، وهو إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي، وإن غلبت عليه صحته التحق بالقلب السليم، وخطورة هذا القلب وأهميته تتمثَّل في أن الشيطان لا يقرب القلب القاسي الميت فهذا لا مطمع له فيه، ولا يستطيع أن يقرب القلب الحي وإلا احترق، إنما يهاجم القلوب المريضة.

وخطورة هذا القلب كذلك في أن أمراض القلوب تفوق أمراض الأبدان كمًّا وكيفًا، بل تتفاوت تفاوتًا عظيمًا من حيث مدة المرض، فالأمراض لها أعمار، فمن مرض موسمي عارض إلى مرض مستحكم دائم، ومن مرض ساعة إلى مرض شهر إلى مرض لا يزول إلا بموت صاحبه، فكم سيطول مرضك، ومتى الشفاء من العناء؟! كما تتفاوت خطورة المرض الواحد تفاوتًا شديدًا، فمن إصابة حادة إلى إصابة مزمنة، ومن مرض مؤلم إلى آخر مميت، ومن مرض محدود الأثر لا يتعدَّى صاحبه إلى مرض مُعدي يضر بالمجتمع.

ومن خطورة المرض أن المرض قد يبدأ بسيطًا هينًا يسهل علاجه لكنه إن أُهمل تطوَّر إلى مرض خطير بل وقد يؤدي إلى الوفاة؛ وكم سمعنا عن مريض أجرى عملية بسيطة لكن بسبب سوء المتابعة وإهمال التمريض حدثت الوفاة، وهذا في أمراض الأبدان وكذلك الحال في أمراض القلوب.

لكن.. وقبل الدخول في التفاصيل..

ما هو المرض؟!

قال ابن القيِّم:

«والمرض يدور على أربعة أشياء: فساد وضعف ونقصان وظلمة، ومنه مَرِض الرجل في

الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ، وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة، وريح مريضة إذا هَبَّ هبوبها كما قال:

راحت لأربعك الرياح مريضة، أي لينة ضعيفة حتى لا يُعفى أثرها، وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان ومنه: بدن مريض أي ناقص القوة، وقلب مريض: ناقص الدين، ومَرِض في حاجتي إذا نقصت حركته، وقال الأزهري عن المنذري عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها. قال: والمرض الظلمة وأنشد:

وليلة مرِضَت من كل ناحية فما يُضيء لها شمس ولا قمر

هذا أصله في اللغة»[1].

أما من حيث الواقع والمشاهد، فيكمل ابن القيِّم كلامه في موضع آخر فهو فارس هذا الميدان بلا جدال:

«كل عضو من أعضاء البدن خُلِق لفعل خاص به كماله في حصول ذلك الفعل منه، ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب، فمرض اليد: أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين: أن يتعذر عليها النظر والرؤية، ومرض اللسان: أن يتعذر عليه النطق، ومرض البدن: أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف عنها، ومرض القلب: أن يتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة»[2].

نوعا المرض

وأمراض القلوب نوعان: أمراض تتعلق بالجوارح وهي الشهوات، وأخرى تتعلق بالعقول وهي الشبهات، وقد جمعهما النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي برزة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومُضِلات الهوى»[3].

(١) شفاء العليل ١/ ٩٩.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٦٨.

(٣) صحيح: رواه أحمد والبزار والطبراني في معاجيمه الثلاثة كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٥٠.

ومضلات الهوى هي الشبهات. قال ابن القيم:

«وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع والهوى على العقل، فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة، ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤]، فدلَّ على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»[١].

أولاً: مرض الشهوات:

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: ١٤].

فالشهوات شكلها حلو وطعمها حلو، لكنها الحلاوة التي تتبعها المرارة، وتلحقها التبعات، وتتلوها الحسرات، وتخامر العقل فتُسكره، وتدخل عليه فتغلبه، وإنما تُصرع عقول أذكى الأذكياء وأحكم الحكماء عند التهاب الشهوات.

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢/ ١٦٧ - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - ط دار المعرفة - بيروت - ط الثانية ، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م - تحقيق : محمد حامد الفقي.

والآن إلى أول شهوة وهي:

1 شهوة حب الدنيا وجمع المال:

وهي أول شهوة حذَّر منها النبي ﷺ أمته حيث قال ﷺ: **«إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا ..»**[١].

ولأن الرزق مضمون؛ لذا لم يخش علينا النبي ﷺ من الفقر بل خاف علينا الغنى، فأقسم ﷺ -وهل يحتاج مثله إلى قسم؟! -: **«والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم؛ فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»**[٢].

وحب الدنيا هو الذنب الذي خاف منه الحسن البصري وأخافنا منه حين قال: «لو لم تكن لنا ذنوب نخاف على أنفسنا منها إلا حبنا للدنيا، لخشينا على أنفسنا، إن الله يقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، أريدوا ما أراد الله»[٣].

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم: لها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، وعليها يعادون، وكم قُطِعت أرحام في سبيلها، وسُفِكت دماء بسببها، ووقعت فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان، والسبب: دنيا.

وهذا ما استشرفه عمر بن الخطاب ﷺ، حتى لم يؤثِّر في بصيرته الفرح بالغنيمة والانشغال بالنصر، فقد أورد ابن حجر أن عمر بن الخطاب ﷺ أُتي بمال من المشرق يُقال له نفل كسرى، فأمر به فصُبَّ وغُطِّي، ثم دعا الناس فاجتمعوا، ثم أمر به فكُشِف عنه، فإذا حُلي كثير وجوهر ومتاع، فبكى عمر، وحمد الله عز وجل، فقالوا له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟! هذه غنائم غنمها الله لنا

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري وهو في السلسلة الصحيحة رقم: ٩١١.
(٢) صحيح: البخاري ٦/ ٢٥٨، ومسلم ٤/ ٣٢٧٤.
(٣) صحيح: البخاري ٦/ ٢٥٨، ومسلم ٤/ ٣٢٧٤.

ونزعها من أهلها، فقال: «ما فُتِح من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمتهم»(١).

ولماذا لا يبكي عمر، وقد بيَّن النبي ﷺ هذا المصير في نظره لحالنا المؤلم من وراء ستار رقيق، فقال: «كيف أنتم إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم. أي قوم أنتم؟». قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: نقول كما أمرنا الله. قال: «أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون»(٢).

ولأنه رأى ما لم نر، وأحس بما ينتظرنا، وخاف من سوء عاقبتنا، فقد حذَّر النبي ﷺ من أناس يبيعون الدين بعرض الدنيا، فقال ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم: يُصبح الرجل مؤمنًا ويُمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»(٣).

وهو ما أخاف عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة حتى بكى، فقال: يا أبا فلان!! أتخشى عليَّ. فال: كيف حبك للدرهم؟! قال: لا أحبه، قال: «لا تخف فإن الله سيعينك»(٤).

ومن آثارها المدمِّرة عدم جدوى نصيحة عشاقها، وهو ما سبق ورصده أبو يحيى مالك بن دينار حين قال: «إن البدن إذا سقم لم ينجح فيه طعام ولا شراب، ولا نوم ولا راحة، وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجح فيه الموعظة»(٥).

ومن آثارها المؤلمة والمشاهدة بوضوح والمُجرَّبة مرارًا وتكرارًا أنك «بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة كذلك يخرج همُّ الدنيا من قلبك»(٦)، وقديما قالوا: تزيد من دنياك بقدر ما تنقص من دينك، فإن زيادة الجدار على قدر نقصان الجبل!!

الفضيحة!!

ومن علامات حب الدنيا: بيع الآخرة بالاغتراف من المال دون مبالاة بمصدره: حلال أم حرام، وقد تنبَّأ النبي ﷺ بهذا الزمان، ولعله زماننا الذي نعيش فيه فقال: «ليأتين على الناس

(١) فتح الباري ١١/ ٢٥٩.
(٢) صحيح : رواه مسلم عن عبد الرحمن بن عوف رقم : ٢٩٦٢ ، وهو في صحيح ابن ماجة رقم : ٣٢٣٠.
(٣) صحيح : رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم : ٢٨١٤.
(٤) تاريخ الإسلام ٧/ ١٩٦ - الإمام الذهبي - ط دار الكتاب العربي.
(٥) الحلية ٢/ ٣٦٣.
(٦) الزهد لأحمد ٣١٩/١

زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال؟ أمن حلال أم من حرام؟»[١].

وجزم في قول آخر أن هذا الداء داء قديم موغل في القِدم فقال:

«إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وهما مهلكاكم»[٢].

وإذا كان لابد من ورود كلمة الحرص في قاموس حياتك، فليكن الحرص النافع لا الحرص الفاجع كما في نصيحة العابد الزاهد **عبد الواحد بن زيد** الذي قال:

«الحرص حرصان: حرص فاجع، وحرص نافع، فأما النافع: فحرص المرء على طاعة الله، وأما الحرص الفاجع: فحرص المرء على الدنيا»[٣].

ومن علامات حب الدنيا، الحسد الذي يحس صاحبه بالألم إذا فاته من حظوظ الدنيا شيء كالمال والجاه والمنصب والسلطان، فلا يرضى عن حاله أبدًا، بل يعتبر نفسه دائمًا سيئ الحظ صريع الأقدار لأنه لم ينل ما نال غيره، مع أنه لا يحس بنفس الشعور إذا رأى من هو خير منه دينًا وأفضل منه خلقًا، فلا يغار إلا لدنيا، ولا ينافس أبدا في دين، ليكون ممن عيَّرهم ابن المبارك بقوله:

أرى أناسًا بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغنِ بالدين عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

والحسد كما علَّمنا رسول الله (يخدش الإيمان) كما قال ﷺ: **«ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد»**[٤]، فيا أخي الحاسد:

متى تُمسي وتُصبح مستريحًا ... وأنت الدهر لا ترضى بحال
وقد يجري قليل المال مجرى ... كثير المال في سد الخلال
إذا كان القليل يسدُّ فقري ... ولم أجد الكثير فلا أبالي

ومن علامات حب الدنيا، كثرة الحديث عنها، فمن أحبَّ شيئًا أكثر من ذكره،

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥٣٤٤.
(٢) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود وعن أبي موسى كما في ص ج ص رقم: ٢٢٤٥.
(٣) شرح وبيان لحديث ما ذئبان جائعان ص ٢٦.
(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٧٦٢٠.

فكثرة الكلام عن التجارات، وأحدث الأزياء والموضات، وأنواع السيارات، وآخر الصيحات، وأشهى المأكولات، وإضاعة المجالس في الإشادة بهذه الأمور؛ كل هذا يدل على أن القلب مزدحم بدنيا لم تفسح للآخرة موضع قدم.

ومن علامات حب الدنيا المغالاة في الاهتمام بترفيه النفس مأكلاً ومشربًا وملبسًا ومسكنًا ومركبًا، والاهتمام بالكماليات والترفيات اهتمامًا يملك عليه وقته وعقله، فيجهد نفسه بشراء الأنيق من اللباس ويزوِّق مسكنه وينفق الأموال والأوقات في هذا، ويغرق في التنعيم والترف المنهي عنه في حديث معاذ بن جبل ﷺ لما بعث به النبي ﷺ إلى اليمن وأوصاه فقال: «**إياك والتنعيم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين**»[1].

ولذلك حثَّ النبي ﷺ على أخذ الكفاية من الدنيا دون التوسع الذي يشغل عن ذكر الله، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما يكفيك من جمع المال خادم ومركب في سبيل الله**»[2]، بل هدَّد النبي ﷺ المكثرين من الأموال إلا أهل الصدقات فقال: «**ويل للمكثرين إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا، أربع عن يمينه وعن شماله ومن قُدَّامه ومن ورائه**»[3]، وصدق القائل:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمُحسنٍ … إذا لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة … وقد شبعت فيها بطون البهائم

لا تذموها ولكن

قال يحيى بن معاذ الرازي: «الدنيا خزانة الله فما الذي يُبغض منها، وكل شيء من حجر أو مدر أو شجر يسبِّح الله فيها. قال الله تعالى: وإن من شيء إلا يسبح بحمده، وقال الله تعالى: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾، فالمجيب له بالطاعة لا يستحق أن يكون بغيضًا

---

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية ٥/ ١٥٥، وهو في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥٣.
(٢) صحيح: رواه أحمد ٥/ ٢٩٠ وهو في صحيح الجامع رقم: ٢٣٨٦.
(٣) صحيح: رواه ابن ماجة رقم ٤١٢٩ وهو في صحيح الجامع رقم: ٧١٣٧.

في قلوب المؤمنين»[١].

فليس المطلوب منك سب الدنيا أو الهرب منها بل الواجب عليك: تحقيق الزهد، والزهد في أبسط صوره ومعانيه أن تحوز الدنيا في يدك لا في قلبك، وأن تملكها لا أن تملكك، وأن تضحي بها في سبيل آخرتك لا أن تبيع الآخرة من أجلها، وأن تطلب الآخرة بالدنيا لا أن تطلب الدنيا بالآخرة، وأن تفرِّغ قلبك مما خلت منه يدك، ويبشِّرك عندها بحسن العاقبة الدنيوية والأخروية يحيى بن معاذ فيقول:

«الدنيا أمير من طلبها، وخادم من تركها، الدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلبها رفضته، ومن رفضها طلبته، الدنيا قنطرة الآخرة فاعبروها ولا تعمروها، ليس من العقل بنيان القصور على الجسور، ومن طلَّق الدنيا فالآخرة زوجته، فالدنيا مطلَّقة الأكياس، لا تنقضي عدتها أبدًا، فخلِّ الدنيا ولا تذكرها، واذكر الآخرة ولا تنسها، وخذ من الدنيا ما يبلِّغك الآخرة، ولا تأخذ من الدنيا ما يمنعك الآخرة»[٢].

وما يعين قلبك على التشبع بالزهد: المقارنة العابرة بين الدنيا والآخرة كمًّا وكيفًا، فالدنيا أيام قلائل معدومة في مواجهة خلود لا آخر له، والدنيا نعيمها متنغص، إن أضحكت اليوم أبكت غدا، وإن سرَّت تبع سرورها الردى، وإن حلَّت فيها النعم جمعًا نزلت فيها النقم سريعًا، إن أخصبت أجدبت، وإن جمعت فرَّقت، وإن ضمت شتَّتت، وإن زادت أبادت، وإن أسفرت أدبرت، وإن راقت أراقت، وإن عمَّت بنوالها غمَّت بوبالها، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا، ومن لم يتبصر في أمرها اليوم عضَّ يديه غدًا، وبكى مع الدمع دمًا، بل وحتى من ملك أقصى نعيمها.. أتظنونه قد استراح؟! كلا والله..

أرى من الدنيا لمن هي في يديه عذابًا كلما كثُرت لديه
تهين لها المكرمين لها بذُلّ وتُكرم كل من هانت لديه

وأين كل هذا من الآخرة ونعيم الآخرة ولذة الآخرة وخلود الآخرة؟!

---

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٦٤.
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٥٣، ٥٤ بتصرف.

وبعد الإحاطة بالزهد علما تنزل إلى ساحة الجد عملاً، وممارسة يومية ومشقة نفسية، والنفس على ما عوَّدتها نشأت، وكيف ما ربيتها نمت وترعرت؛ ولذا لما قيل هذا المعنى شعرًا على لسان أبي ذؤيب الهذلي:

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها　　　وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنع

قال الأصمعي: «هذا أبدع بيت قالته العرب»[1].

توازن.. لا تقع!!

واسمع إلى هذا التوازن الرائع الذي نجح في بلوغه الصحابي الجليل الزبير بن العوَّام ﷺ، وتجتمع لنا معنى الزهد الحقيقي، وذلك في ما رواه عنه عمر بن قيس قال:

«كان لابن الزبير مائة غلام، يتكلم كل غلام منهم بلغة أخرى، فكان ابن الزبير يُكلِّم كل واحد منهم بلغته. فكنت إذا نظرت إليه في أمر دنياه قلت: هذا رجل لم يُرِد الله طرفة عين، وإذا نظرت إليه في أمر آخرته قلت: هذا رجل لم يُرِد الدنيا طرفة عين»[2]

إنه الاحتراف الإيماني بشقيه الدنيوي والأخروي، وبلوغ المؤمن أقصى ما يبلغه صاحب دنيا من علوم وفنون، وما يبلغه صاحب آخرة من تقوى واهتداء، وما أحوجنا اليوم إلى أحفاد ابن الزبير؛ نريد المؤمن الثري الذي يضرب بماله في كل تجارة ويربح في كل سوق، ثم هو مع ذلك الزاهد الورع الذي يسخِّر ماله لنصرة الدين ونفع المسلمين.. نريد الناس إذا مدحوا ثريًّا بكثرة ماله التفتوا إلى تقواه فزادهم إيمانًا واقتداء.. نريد أن نكسر احتكار ملايين اللاهين والعابثين لثروات الأمة.. نريد أن نذكر أن عثمان اشترى الجنة بماله، وأن مال أبي بكر هو أكثر ما نفع رسول الله ﷺ. وكذلك نريد أن نفعل ولا تكون الحياة في هذه الحالة متاع الغرور. قال سعيد بن جبير: «متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلهِك فليس متاع الغرور، ولكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه»[3]..

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٢١٠.
(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٣٤.
(٣) جامع العلوم والحكم ص ٢٩٥.

نعم.. آن لنا نحن أبناء الإسلام في القرن الحادي والعشرين أن ندرك الزهد الحقيقي بعد أن فهمناه دهرًا فقرًا ورضًا بالقليل وإيثارًا للعزلة في الزوايا على المضاربة في الأسواق تاركين الساحة لكل عابث فاجر أو عدو ماكر، وهو ما فطن إليه علم الزهد في زمانه سفيان الثوري وأدرك تغير أولويات كل زمن فقال:

«كان المال فيما مضى يُكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن»[(١)].

أعلى همة

ومن حقق هذين الهدفين كان عالي الهمة بحق، حاز دنياه في يمناه ولم ينصرف قلبه عن منتهاه ، وبهذا حاجَّ ابن حزم أبا الوليد الباجي حين جاء الباجي يوما مفاخرًا: أنا أعظم منك همة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت تُعان عليه ، تسهر بمشكاة الذهب -يشير إلى ثروة ابن حزم وآبائه- وطلبته وأنا أسهر على قنديل.

فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ؛ لأنك إنما طلبتَ العلم وأنت في تلك الحال ؛ رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته على ما ذكرت ، فلم أرجُ به إلا علو قدر علمي في الدنيا والآخرة.

ويعلِّق العلامة محمد الخضر حسين على هذه المناقشة الرائعة قائلاً:

«ويؤيِّد ابن حزم في جوابه هذا أن من تربَّى في مهد الترف ، وأحاطت به زخارف الدنيا من كل ناحية يسكن في قلبه الحرص على اللذائذ ، ويصعب عليه التخلص من شواغلها ، فمن خلع صدره من الشغف بمناظر النعيم ، والميل إلى مضاجع الراحة وهي طوع يمينه ، ثم استبدلها بالتوجه في سبيل المجد الذي لا يخلص سالكه من متاعب ، واقتحام أخطار – فلابد أن يكون قد ضم بين جنبيه همة سامية ، وإرادة لنفس الفضيلة خالصة»[(٢)].

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٣٨١.

(٢) مناهج الشرف ص ٤٥، ٤٦ – الشيخ محمد الخضر حسين – مطبوعات الدار الحسينية للكتاب - ط ٤ لعام ١٤١٣ للهجرة.

2 شهوة حب الشهرة:

وله صور خفية وجلية منها:

✍ **حب تصدر المجالس والاستئثار بالكلام وفرض الاستماع على الآخرين**، وصدر أي مجلس هو من المحاريب التي حذَّرنا منها رسول الله ﷺ بقوله: «**اتقوا هذه المذابح يعني المحاريب**»(١).

فالمحراب الذي يعظ منه الواعظ مثلاً من المذابح إن لم يراع هو العمل بما يقول، وامتثال ما أمر به؛ مع أنها قد تكون مراكز التوجيه للخير والهداية إلى الفوز لكنها مع ذلك قد تودي بصاحبها إلى الشر وترمي به في الخسران.

✍ **الانتشاء بالمدح**: ولذا كان عمر بن الخطاب ﵁ يقول: «**المدح هو الذبح**»(٢).

قال المناوي: «وسماه ذبحًا لأنه يميت القلب فيخرج من دينه، وفيه ذبح للممدوح، فإنه يغرُّه بأحواله ويغريه بالعجب والكبر، ويرى نفسه أهلاً للمدحة سيما إذا كان من أبناء الدنيا أصحاب النفوس وعبيد الهوى»(٣).

وقد تعلَّم **عبد الله بن عمر** ﵁ الدرس من أبيه الذي روى الحديث السابق، فكان لسلامة قلبه يكره المدح وينقبض منه، ولما جاءه رجل وقال له: يا خير الناس وابن خير الناس، قال له: «ما أنا بخير الناس ولا أنا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تُهلِكوه»(٤).

✍ **محبة أن يقوم الناس له**: وقد قال رسول الله ﷺ: «**من سرَّه أن يمتثل له الرجال قيامًا فليتبوأ بيتًا من النار**»(٥).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٠.
(٢) فتح الباري ١٠/ ٤٧٧.
(٣) فيض القدير ٣/ ١٢٩.
(٤) سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٢٠.
(٥) صحيح: رواه الترمذي وأبو داود كما في مشكاة المصابيح ٣/ ١٧.

ومثل هذا النوع من الناس يعتريه الغضب إن لم يقم له أحد ليجلس مكانه ويشعر بالمهانة وانتقاص القدر؛ رغم نهيه ﷺ عن ذلك في قوله: **«لا يُقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه»**[(١)].

وأين هؤلاء من القلوب الحية التي كرهت الشهرة وعافت علو المكانة وتميز المكانة بين العامة. كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام[(٢)]، وكان خالد ابن معدان إذا عظمت حلقته قام وانصرف كراهة الشهرة[(٣)]، وغيرهم وغيرهم لأن كل واحد منهم قد عرف قدر نفسه وحقيقة جهله وضعفه فما غرَّه ثناء الناس عليه. قال المروزي للإمام أحمد: «إني أرجو أن يكون يُدعى لك في الأمصار فقال: يا أبا بكر!! إذا عرف الرجل نفسه فما ينفعه كلام الناس»[(٤)].

لذا ما تفاخروا مرة واحدة في حياتهم ولا غالوا في أثمانهم حتى لقاء ربهم بل تواضعوا، والمواقف لا تزال تُروى للإمام أحمد. قال عنه يحيى بن معين: «ما رأيت مثل أحمد!! صحبناه خمسين سنة فما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير»[(٥)].

ومما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بشهوة حب الشهرة:

3 شهوة حب الرئاسة:

وهي شهوة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحب الظهور، وهي التي حذر منها رسول الله ﷺ بقوله: **«إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئس الفاطمة»**[(٦)]

وقوله: «نعم المرضعة» وذلك أولها لأن معها المال والجاه والسلطة، وقوله: «بئس الفاطمة» أي: آخرها لأن معه القتل والعزل في الدنيا

(١) صحيح: رواه البخاري، فتح ١١/ ٦٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢١٠.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ٢١٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١١
(٥) سير أعلام النبلاء ١١/ ٢١٤.
(٦) صحيح: رواه البخاري رقم: ٦٧٢٩.

والحسرة والتبعات يوم القيامة، وقد بيَّن النبي ﷺ عواقب الرئاسة ومراحلها الثلاث في قوله: **«إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة وما هي: أولها ملامة، وثانيها ندامة، وثالثها عذاب يوم القيامة إلا من عدل»**[١].

والرئاسة التي نقصدها هنا ليست دنيوية فحسب بل قد تكون دينية كذلك لمن يتبوأ مراكز الإرشاد والتوجيه والنصح والتربية، ولو كان يدفع إلى التطلع للرئاسة: القيام بالواجب وتحمل التبعة الثقيلة في وقت لا يسد الثغرة فيه من هو أفضل بذلاً وعملاً لكان الأمر محمودًا، أما إذا كان الدافع: رغبة جامحة في الزعامة ونفورًا من قبول التوجيه من غيره واستئثارًا بمركز الأمر والنهي؛ فيا خطورة ما أصاب من مرض.

وقد رفض رسول الله ﷺ إسلام من ابتُلي بهذا المرض وردَّه ولم يقبله، واسمعوا ما رواه **الزهري أن النبي ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من يخالفك؛ أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر لله يضعه حيث يشاء». قال: فقال له: «أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بك»**[٢].

بل قال ﷺ لرجلين سألاه الإمارة: **«إنا لا نولِّي هذا مَنْ سأله، ولا من حرص عليه»**[٣].

يسن بذلك أحد قوانين الإدارة الإيمانية ويميِّزها عن إدارة اليوم الحديثة، ويمدح ﷺ هذا الصنف من الدعاة، الذين ليس يعنيهم ويشغل فكرهم سوى رضا الله سبحانه وتعالى بارزين كانوا أو مستترين، في المقدمة أو في المؤخِّرة، وذلك بقوله ﷺ: **«طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفَّع»**[٤].

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الكبير كما في صحيح الجامع رقم: ١٤٢٠.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٣٩-١٤٠.

(٣) صحيح: رواه البخاري رقم: ٧١٤٩.

(٤) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٢٩٦٢.

وتأمل أنه ذكر هنا الساقة والحراسة وكلاهما ليس من أماكن الصدارة أو مراكز القيادة، فكأنه أراد ترسيخ معنى الجندية ومعالجة حب الرئاسة في قلوب السامعين معالجة جذرية، فلا يذكر الرئاسة ولو بكلمة لتغيب حتى حروفها عن عينك وتتوارى عن قلبك.

يا ذئاب!!

قال النبي ﷺ: **«ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»**. والذئبان الجائعان هما: الحرص على المال والحرص على الشرف، وإذا أُرسِلت الذئب في الغنم فماذا تفعل؟! فكذلك يفعل الحرص على المال والحرص على الجاه والشرف في الدين، إنها تلتهم دين المرء وتفترس إيمانه.

قال ابن رجب: «فأخبر النبي ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف إفساد لدينه ليس بأقل من إفساد الذئبين لهذه الغنم، بل إما أن يكون مساويًا وإما أكثر، يشير أنه لا يسلم من دين المسلم مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل، فهذا المثل العظيم يتضمن غاية التحذير من شر الحرص على المال والشرف في الدنيا»[1].

وحب الرئاسة والسعي لها شهوة خفية في النفس، وكثير من الناس قد يزهد في الطعام والشراب والثياب لكن الزهد في الرئاسة عنده نجم سماوي لا يُدرك. قال **سفيان الثوري** رحمه الله: «ما رأيت زهدًا في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرئاسة تحامى عليها وعادى»، وقال **يوسف بن أسباط**: «الزهد في الرئاسة أشد من الزهد في الدنيا»، ولذلك كان السلف رحمهم الله يحذرون من يحبون منها، فقد كتب **سفيان** إلى صاحبه **عباد بن عباد** رسالة فيها:

«إياك وحب الرئاسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقَّد نفسك واعمل بنية».

---

(١) شرح وبيان لحديث ما ذئبان جائعان ص ٢١، ٢٢ – ط دار الريان عام ١٤١٣-١٩٩٢.

واتهم أيوب السختياني كل محب للرئاسة بالكذب فقال: «ما صدق عبد قط فأحب الشهرة»، ونفى عنه التقوى بشر بن الحارث فقال: «ما اتقى الله من أحب الشهرة»، ووصفه بعدم الفلاح يحيى بن معاذ حين قال: «لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة».

وما أحسن وصف شدّاد بن أوس رضي الله عنه لحب الرئاسة بالشهوة الخفية حين قال محذرًا: يا بقايا العرب... إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة الخفية. قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة.

قال ابن تيمية معقبًا: «فهي خفية، تخفى عن الناس، وكثيرًا ما تخفى على صاحبها»[1].

أمارة حب الإمارة

لكنها وإن كانت خفية، ومهما توارت وأتقنت فن التستر والهرب، فقد أذن الله لنا أن نفضحها عن طريق علاماتها حتى لا يعود لمبتلى عذر في ترك التداوي وهجر التسامي، ومن العلامات:

- ما ذكره الفضيل بن عياض: «ما من أحد أحب الرئاسة إلا حسد وبغى، وتتبع عيوب الناس، وكره أن يُذكر أحد بخير»[2]، فمن علاماتها إذن حب ذكر الغير بالنقائص والعيوب، وكراهة أن يُذكر أحد عنده بخير، بل وانتقاص الآخرين ليرفع نفسه، فلا يدل على من هو أفضل منه في الدين أو العلم، بل ويحجب فضائل الآخرين ويكتم أخبارهم خشية أن يستدل الناس عليهم فيتركوه ويذهبوا إلى غيره، أو يقارنوا بينه وبين من هو خير منه فينفضوا عنه.

- الحسرة إذا زالت أو سُلِبت منه الرئاسة، وتأمل لو أن عالمًا تصدَّر مجلس علم مثلاً، فالتف الناس حوله، ثم جاء من هو أعلم منه فقدَّمه الناس عليه وانقطعوا إليه، فهل يفرح هذا العالم أو يحزن؟ هل يفرح لأنه قد جاء من هو أعلم منه يحمل عنه المسئولية ويرفع عنه التبعة ويفيد الناس أكثر منه؛ أم يحزن ويغتم لأنه قد جاء من خطف منه الأضواء

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٣٤٦.
(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٥٧١.

وصيحات الإعجاب؟! بهذا تفضح قلبك أيها الداعية إذا خشيت مرضه وأردت شفاءه.

قال ابن الجوزي:

«وقد يكون الواعظ صادقًا قاصدًا للنصيحة إلا أن منهم من شرب الرئاسة في قلبه مع الزمان فيحب أن يُعظَّم، وعلامته: أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه على الخلق كره ذلك، ولو صحَّ قصده لم يكره أن يعينه على خلائق الخلق»[1]

وقال كذلك: «ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبِّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب»[2].

إنها مجالس السوء وإن كان ظاهرها الخير، وأماكن الفتنة وإن رُفِعت عليها رايات الهدى، ووسائل الهلاك وإن صُنِعت للنجاة!!

كم شاربٍ عسلا فيه منيته   وكم تقلّد سيفًا من به ذُبحا

وتستطيع أخي الداعية أن تُجري اختبارًا واحدًا يكشف لك حقيقة مجالسك وطبيعتها على الفور، وذلك إذا جرَّبت طريقة ابتكرها عبد الرحمن بن مهدي وهي كما يلي:

عن **عبد الرحمن بن مهدي** قال: «كنتُ أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلوا حزنت، فسألت **بشر بن منصور** فقال: هذا مجلس سوء فلا تعُد إليه، فما عدتُ إليه»[3].

✍ حسرة قلبه إذا منع من الظهور وفاتته فرصة إبداء إمكاناته واستعراض قدراته، وبالحلو تُعرف المرارة، وبالضد تتميز الأشياء؛ لذا فاسمعوا ما فعل المحدِّث الرباني شيخ نيسابور أبي عمرو إسماعيل بن نجيد فيما قصَّه الإمام الذهبي:

«ومن محاسنه أن شيخه الزاهد أبا عثمان الحيري طلب في مجلسه مالا لبعض الثغور فتأخَّر، فتألم وبكى على رؤوس الناس، فجاءه ابن نجيد بألفي درهم فدعا له، ثم إنه نوَّه به، وقال: قد

(١) تلبيس إبليس ص ١٥٢.
(٢) تلبيس إبليس ص ١٥٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٩/ ١٩٦.

رجوت لأبي عمرو بما فعل، فإنه قد ناب عن الجماعة، وحمل كذا وكذا، فقام ابن نجيد وقال: لكن إنما حملت من مال أمي وهي كارهة فينبغي أن تُردَّه لترضى، فأمر أبو عثمان بالكيس فرد إليه، فلما جنّ الليل جاء بالكيس والتمس من الشيخ ستر ذلك، فبكى وكان بعد ذلك يقول: أنا أخشى من همة أبي عمرو»[1].

✍ إضفاء هالات الأهمية الزائفة كادعاء المواعيد الكاذبة والانشغالات التافهة، ليوقع في روع الناس علو قدره وارتفاع منزلته وتهافت الناس عليه، والنبي ﷺ يقول: «المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبي زور»[2].

قال ابن حجر:

«المتشبِّع أي المتشبِّه بالشبعان وليس به شبع، واستعير للتحلي بفضيلة لم يرزقها، وشُبِّه بلابس ثوبي زور؛ أي ذي زور، وهو الذي يتزيا بزي أهل الصلاح رياء، وأضاف الثوبين إليه لأنهما كالملبوسين، وأراد بالتثنية أن المتحلي بما ليس فيه كمن لبس ثوبي الزور ارتدى بأحدهما واتزر بالآخر كما قيل: إذا هو بالمجد ارتدى وتأزَّر، فالإشارة بالإزار والرداء إلى أنه متصف بالزور من رأسه إلى قدمه، ويحتمل أن تكون التثنية إشارة إلى أنه حصل بالتشبع حالتان مذمومتان: فقدان ما يتشبع به، وإظهار الباطل»[3].

✍ عدم المشاركة بفاعلية عندما يكون مرؤوسًا، بل والتهرب من التكاليف حين لا يكون هناك فرصة للبروز، واشتعال قلبه حماسة ونشاطًا عندما يكون رأس الأمر وقائده.

✍ كثرة نقده لغيره بسبب وبغير سبب، ومحاولة التقليل من أهمية مقترحات الغير ومبادراتهم مع عدم تقديم البديل، والعمل على إخفاق ما لم يشارك فيه.

✍ الإصرار على رأيه وصعوبة التنازل عنه، وإن ظهرت أدلة بطلانه ورجحان غيره.

---

(١) نزهة الفضلاء ٣/ ١٢٧٥.

(٢) صحيح: رواه أحمد والشيخان وأبو داود عن أسماء بنت أبي بكر كما في ص ج ص رقم: ٦٦٧٥.

(٣) فتح الباري ٩/ ٣١٨.

سبب هذا المرض

السبب الرئيس: عدم تقدير عواقب التقصير في الآخرة، وقد قال ﷺ:«ما من رجلٍ يلي أمر عشرةٍ فما فوق ذلك، إلا أتى الله مغلولاً يده إلى عنقه، فكَّه بِرُّه أو أوثقه إثمه، أولها ملامة، وأوسطها ندامة، وآخرها خزي يوم القيامة»[١].

ألا فانتبه يا طالب العلم وأنت تعلِّم الناشئة، وانتبه أيها المربي حين تربِّي من حولك، وتعلَّم من سعد بن أبي وقاص ﷺ، وكيف حثَّنا على الزهد في الرئاسة بلسان حاله مما أغنانا عن آلاف الخطب والصفحات، فعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعد في إبلٍ له وغنم فأتاه ابنه عمر بن سعد، فلما رآه قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الراكب، فلما أتاه قال: يا أبت! أرضيتَ أن تكون أعرابيا في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟! فضرب سعدٌ صدر عمر وقال: اسكت فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[٢].

وتأمَّل أيضًا كيف كان هروب العلماء من مسئولية القضاء، والقضاء منصب وسلطة ومكانة وأبهة، وقد كان القاضي من أعظم الناس مكانة في زمانه، وكلمته مسموعة لا ترد؛ ومع ذلك كان الصالحون يهربون من القضاء ويُضربون عنه ولا يتولونه، بل ويسجنون ولا يرضونه، مع أنهم أهل له، وذلك لخوفهم من تبعات الأمر، وكيف لا وقد سمعوا قول النبي ﷺ ينذر:«قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنة»[٣].

وكيف لا والنبي ﷺ يحذِّر:«من أتى أبواب السلطان افتُتِن»[٤]، وكثرة من قضاة اليوم والعلماء على باب السلطان وقوف، وعلى رضاه حريصون، ولا يحسون بالكارثة!!

---

(١) حسن: رواه أحمد عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٥٧١٨.
(٢) صحيح: رواه مسلم عن سعد كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٢٧٣٣ والخبر بالتفصيل في البداية والنهاية ٧/ ٢٨٣.
(٣) صحيح: رواه الحاكم عن بريدة كما في ص ج ص رقم: ٤٢٩٨.
(٤) صحيح: رواه أحمد كما في ص ج ص رقم: ٦١٢٤.

التوازن المفقود

التوازن المنشود بين كراهية الشهرة ووجوب قيادة جموع الأمة، فإننا نريد لجموع الصالحين أن تبرز في الوقت الذي توارت فيه الكفايات وبرزت فيه الرويبضات، وأن تفخر بعملها الصالح قائلة: هلم إلينا أيها الناس، وذلك في الوقت الذي تبارت رموز الشر في الدعوة إلى باطلها، وتنافست في طمس فطرة الناس ببث سمومها وشرورها.

لذا كان لابد للطيِّب أن يدافع الخبيث ويزاحمه حتى يبث الخير إلى محيط الناس الملوَّث، وعلى كل واحد أن يتفرَّس في نفسه اليوم، ويرى هل فيه من علامات حب الرئاسة شيء، ويعيد تقييم نفسه باستمرار وعلى مرور الأشهر والأعوام، فإن البداية قد تكون صحيحة ويتسلل الخطأ بعد ذلك، والنية قد تبدأ خالصة حتى تتسرَّب إليها جرثومة رياء، لذا وجب التنبه والمراقبة.

4 شهوة النساء:

ويسأل سائل: لماذا نتكلم عن شهوة الرجال نحو النساء ولا نتكلم عن شهوة النساء نحو الرجال؟! إن كثيرًا ما يتساءلون: لماذا تكلم القرآن عن الحور العين في الجنة ولم يتكلم عن مثيل ذلك للمؤمنات؟!

والجواب أن الحب عند الرجل يتمحور حول الأفعال، فهو عنده غريزة تتبعها عاطفة، بينما الحب عند المرأة عاطفة مقدمة على الغريزة، وحين يمتزج الحب بالشهوة عند الرجال؛ فهو عند النساء: كلمات وثناء وغزل، لذا وجدنا الشعر عربيًّا وغربيًّا قديمًا وحديثًا يحفل بغزل الرجال للنساء لا غزل النساء للرجال، فالرجل يعلن عن الرغبة طالبًا، والمرأة سلاحها معه التمنع والدلال.

من هنا جاء تحذير الرسول ﷺ: **«ما تركت بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء»**[1].

وقد سبق أن أخبرنا النبي ﷺ: **«إن المرأة تُقبل في صورة شيطان وتُدبر في صورة**

---

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي والترمذي عن أسامة بن زيد كما في ص ج ص رقم: ٥٥٩٧.

شيطان»[١]، إشارة إلى الهوى والميل الطبيعي الذي جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بالنظر إليهن، والحديث معهن، وسماع أخبارهن، وكل ما يتعلق بهن، ولا غرو، فالمرأة أعظم فتن إبليس وأشد محنه وأيسر طرقه وأخفى حيله؛ ولذا يتبعها ويلازمها ويزيِّنها ويُجلِّيها في أعين الرجال. قال مجاهد: «إذا أقبلت المرأة جلس الشيطان على رأسها فزيَّنها لمن ينظر، فإذا أدبرت جلس على عجزها فزيَّنها لمن ينظر»[٢].

وعدَّها الحسن بن صالح نصف جيش الشيطان المرابط على ثغر القلب فقال: «سمعت أن الشيطان قال للمرأة: أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطأ، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي»[٣].

ويُشخِّص ابن الجوزي مرضًا عضالاً يُصاب به مطلق بصره - وما أكثر جراحاته - فيقول:

«يُعرِض الإنسان عن زوجته ويؤثر عليها الأجنبية، وقد تكون الزوجة أحسن، والسبب في ذلك أن عيوب الأجنبية لم تَبِن له، وقد تكشفها المخالطة، ولهذا إذا خالط هذه المحبوبة الجديدة، وكشفت له المخالطة ما كان مستورًا ملَّ وطلب أخرى إلى ما لا نهاية له»[٤].

ثم يكمل وصيته أثناء صيده لإحدى خواطره فيقول:

«ليعلم العاقل أن لا سبيل إلى حصول مراد تام كما يريد ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، ما عيب نساء الدنيا بأحسن من قوله عز وجل: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥]»[٥].

فاسمُ بعينيك إلى نسوة ... مهورهن العمل الصالح
وحدِّث النفس بعشق الأُلى ... في عشقهن المتجر الرابح
واعمل على الوصل فقد أمكنت ... أسبابه ووقتها رائح

---

(١) صحيح: رواه مسلم كما في صحيح مسلم رقم: ٢٤٩١.
(٢) تفسير القرطبي ١٢/ ٢٢٧.
(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢ - ط دار الإيمان - وأورده ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان.
(٤) ذم الهوى ص ٤٨٦.
(٥) صيد الخاطر ص ٢٣٧ - ط دار الفكر.



الطنطاوي يصيح

قال الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله:

> **«لو أُتيت مال قارون وجسد هرقل وواصلتك عشر آلاف من أجمل النساء من كل لون وكل شكل وكل نوع من أنواع الجمال هل تظن أنك تكتفي؟ لا.. أقولها بالصوت العالي: لا.. أكتبها بالقلم العريض، ولكن واحدة بالحلال تكفيك، ولا تطلبوا مني الدليل فحيثما تلفّتم حولكم وجدتم في الحياة الدليل قائمًا ظاهرًا مرئيًا»**[١]

لكن ما الذي يزيِّن الحرام للإنسان ويبغِّض له الحلال؟! وما الذي يجعله تهفو نفسه للغريبة عنه وتزهد في سكنه ومودته وشريكة عمره؟! إنه الرغبة في التغيير والقضاء على الملل، إنه التطلع إلى كل جديد، فالمرء توَّاق إلى ما لم ينل، ويجيب **الطنطاوي** ثانية قائلاً:

«فالنساء مختلفات، ولكن طعم المتعة بهن واحد لا يختلف، وما فرق بين تلك الراقصة وبين امرأتك إلا أن الأولى تأتيك على جوعك بالرغيف قد لفَّته بمنديل الحرير، ووضعت المنديل في شملة[٢]، وألقت الشملة في صندوق من الفضة المذهبة، وجعلت حول الصندوق الورق الشفاف، فأنت كلما رفعت حجابًا من هذه الحجب اشتد جوعك وشوقك إلى ما وراءها، فإذا بلغت الرغيف حسبته قُطِف من قمح الجنة، ثم طحنته الملائكة، ثم عجنته بأيديهن الحور العين، وأنت لا تأكل المنديل ولا الشملة ولا الصندوق، إنما تأكل الرغيف، وأنت لا تريد هذه الثياب ولا هذه الأنوار، إنما تريد المرأة، ولعل امرأتك أبهى منها وأجمل»[٣].

---

(١) فتاوى علي الطنطاوي ص ١٤٦.

(٢) الكساء والمئزرُ يُتَّشح به.

(٣) روائع الطنطاوي ص ١٩٨، ١٩٩ – إبراهيم مضواح الألمعي - ط دار المنارة بجدة – الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.



السجود للصنم

وإليك نماذج من هؤلاء المرضى الذين استسلموا لمرضهم، فلم يحاولوا الاستشفاء بطبيب بارع أو مشفى جامع حتي غزاها المرض فشوَّه ملامحها ومسخ فطرتها ووصل إلى النخاع وقطع عليها خط الرجعة. قيل لأحدهم: جاهد في سبيل الله، فقال:

يقولـــون جاهد يا جميل بغـزوة وأي جهـــاد غيرهـــن أريـد
لكـــل حـديث بيـنهن بشاشـة وكـــل قتيـــل بيـــنهن شـهيد

وأعلن أخ له في الغواية:

ولو أنني أســتغفر الله كلمــا ذكرتك لم تُكتَـــب عليَّ ذنـوب

هذا حال اللسان، أما حال القلب فأسوأ:

محا حُبها حب الأولى كُنَّ قبلها وحَلَّ مكانا لم يكن حَلَّ من قبل

أما حب الله والشوق إليه، فلم يعد له في القلب لا أقول موضع قدم بل موضع إبرة!! بل وصل حالهم إلى وصف مريع أفاض فيه ابن القيِّم ليخوِّف كل عاقل من عواقب المرض ويلوِّح أمام ناظريه براية الخطر، فقال في شفقة الطبيب يبيِّن خطورة المرض وفداحة الإصابة:

«فلو خُيِّر بين رضاه ورضا الله لاختار رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاء معشوقه أحب إليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه عليه، يُسخِط ربه بمرضاة معشوقه، ويقدِّم مصالح معشوقة وحوائجه على طاعة ربه، فإن فضل من وقته، وكان عنده قليل من الإيمان، صرف تلك الفضلة في طاعة ربه، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها وأهمل أمر الله تعالى، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله - إن جعل له - كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لُبُّه وقلبه، وهمه ووقته، وخالص ماله، وربه على الفضلة، قد اتخذه وراءه ظهريًّا، وصار لذكره نسيًّا، إن قام في خدمته في الصلاة فلسانه يناجيه وقلبه يناجي معشوقه، ووجه بدنه إلى القبلة ووجه قلبه إلى المعشوق، ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف في الصلاة على

الجمر من ثقلها عليه وتكلُّفه لفعلها، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه فرحًا بها، ناصحًا له فيها، خفيفة على قلبه لا يستثقلها ولا يستطيلها»[١].

لذا يعاقبه الله في الدنيا قبل الآخرة، وعلى يد من؟! على يد من لا يخطر له على بال ومن بذل في سبيله كل غال: على يد محبوبه الذي أحبه من دون الله. قال ابن القيِّم:

«وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يُدفع أن من أحب شيئًا سواه عُذِّب به ولا بد، وأن من خاف غيره سُلِّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يُبارك له فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد»[٢].

عذابات فوق عذابات، وآلام وحسرات في الدنيا وفي القبر وفي النار!! قال ابن القيم: «فكل من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يُعذَّب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، فإذا سُلِبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يُرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر»[٣].

ولو فكَّر العاشق المسكين في مصير من عشقه وخاتمة من أحب لتاب من فوره وزهد في وصله كما قال المتنبي:

لو فكّر العاشق في منتهى حُسن الذي يسبيه لم يسبه

وأكَّد آخر نفس المعنى فقال:

وان سبتك الدُّمى فانظر بفكرك ما تغدو اليه الدُّمى في ظلمة القبر

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٤٧.

(٢) الوابل الصيب ١/ ١٥.

(٣) الداء والدواء ١/ ٥١.

لكن أين حال هؤلاء من أحياء القلوب وأرباب العقول الذين يتدبرون ويعتبرون، ويقرؤون ما وراء الأحداث فيرشدون، ومن سادات هؤلاء ابن الجوزي الذي علَّمنا في إحدى كنوزه الرائقة:

«تأملتُ حالة أزعجتني، وهو أن الرجل قد يفعل مع امرأته كل جميل وهي لا تحبه، وكذا يفعل مع صديقه والصديق يبغضه، وقد يتقرَّب إلى السلطان بكل ما يقدر عليه والسلطان لا يؤثره، فيبقى متحيِّرًا يقول: ما حيلتي؟! فخفتُ أن تكون هذه حالتي مع الخالق سبحانه، أتقرَّب إليه وهو لا يريدني، وربما يكون قد كتبني شقيًّا في الأزل»[1].

5 شهوة حب الأهل والولد:

وقد ورد التحذير من هذه الشهوة في أكثر من آية من كتاب الله عز وجل، ولعل أخطرها وأعظمها وقعًا على القلب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤، ١٥].

قال الإمام البغوي عند تفسير هذه الآية: «وقال عطاء بن يسار: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي: كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه، وقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرِقُّ لهم ويقيم، فأنزل الله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ بحملهم إياكم على ترك الطاعة، فاحذروهم أن تقبلوا منهم».

وتأمَّلوا: لما ذكر الله العداوة أدخل ﴿مِن﴾ للتبعيض، فقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾، لأن ليس كل الأهل أعداء، ولم يذكر ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لأنه لا تخلو الزوجة والولد من الفتنة واشتغال القلب بها.

وقد تآخت هذه الآية مع حديث بريدة ﷺ تأكيدًا لمعناها وشرحًا لفحواها حيث قال:

---

(١) صيد الخاطر ص ١٩٦ - ط دار الفكر.

«كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر، فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[1].

ويعلق سيد قطب - رحمه الله تعالى- على آية التغابن هذه فيقول:

«ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي، وأبعد مدى وأطول أمدًا؛ فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معا: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

والتنبيه إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدوًّا، إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية؛ ويمس وشائج متشابكة ودقيقة في التركيب العاطفي، وفي ملابسات الحياة سواء، فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان، اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه، فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، وتضحية الكثير.

كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والقرار، أو المتاع والمال، فيكونون عدوا له؛ لأنهم صدوه عن الخير، وعوَّقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا.

كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه؛ اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله، وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات، وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن، ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة: التحذير من الله، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا، والحذر من تسلل هذه المشاعر، وضغط هذه المؤثرات، ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنة الأموال والأولاد، وكلمة فتنة تحتمل معنيين:

(١) صحيح: رواه أبوداود والترمذي عن بريدة كما في ص ج ص رقم: ٣٧٥٧.

الأول: أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يختبركم، فانتبهوا لهذا، وحاذروا وكونوا أبدًا يقظين لتنجحوا في الابتلاء، وتخلصوا وتتجردوا لله، كما يفتن الصائغ الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب!

والثاني: أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية، فاحذروا هذه الفتنة لا تجرفكم وتبعدكم عن الله».

والمعنى الثاني من كلام سيد قطب يبين أن الأولاد قد يشغلون عن الله وعن ذكره ومرضاته وقربه كما دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾ [المنافقون: ٩].

وهي آية من سورة المنافقين التي سردت صفات المنافقين وأحوالهم، ثم تحذير المؤمنين من الوقوع في ما وقعوا فيه من الانشغال بها عن الآخرة والتفريط في صالح الأعمال، وأخذ المال من حل وحرمة؛ تحت ذريعة توفير الراحة والسعادة للأهل والأولاد. قال الزجاج:

«أعلمهم الله عز وجل أن الأموال والأولاد مما يُفتنون به؛ وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه، وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى»(١).

ثمرتا الجبن والبخل

ومن آثار هذه الشهوة إذا طغت وخرجت عن حدود الفطرة السوية: الوقوع في صفتين ذميمتين هما: البخل والجبن، مما سبق وأن نبَّه عليه الرسول ﷺ بقوله: «**إن الولد مبخلة مجبنة**»(٢).

والجبن والخوف يصدان عن القيام بواجب الدعوة والجهاد؛ وقد يحتمل الداعية الأذى والعنت على نفسه في سبيل الله عز وجل، لكن القليل هو من يحتمله في أهله وأولاده؛ خاصة

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ١٦٠.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجة كما في صحيح ابن ماجه رقم: ٢٩٥٧.

إذا تعرض لما يبعده عنهم كالسجن والتشريد.

يقول **سيد قطب** رحمه الله تعالى: «هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفعًا وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم، وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك».

وفي هذا فتنة واختبار أيما اختبار، وهل خُلِقت الشهوات إلا للاختبار؟! ولا يثبت إلا من ثبته الله عز وجل وعصمه بصدق التوكل عليه وحسن الظن به والوثوق برحمته وحفظه.

لكن ماذا إذا ربَّى الإنسان أولاده ليكونوا له عونًا على مشاق الطريق، وعامل ثبات لا فتنة، وقوة تقدم لا تقهقر، كما سبق وفعل **عاصم بن علي** مع بناته اللاتي صرن أساتذة الرجال في مدارس الثبات، فقد روى **محمد بن سويد الطحان**:

«كنا عند **عاصم بن علي** ومعنا **أبو عبيد**، و**إبراهيم بن أبي الليث** وجماعة، و**أحمد بن حنبل** يضرب، فجعل **عاصم** يقول: ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل، فنكلمه؟ قال: فما يجيبه أحد، ثم قال **ابن أبي الليث**: أنا أقوم معك يا أبا الحسين.. يا أبا الحسين.. أَبلغُ إلى بناتي، فأوصيهم، فظننا أنه ذهب يتكفن ويتحنط، ثم جاء، فقال: إني ذهبت إليهن، فبكين. قال: وجاء كتاب ابنتي **عاصم** من واسط: يا أبانا! إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ **أحمد بن حنبل**، فضربه على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق الله، ولا تُجِبه، فوالله لأن يأتينا نعيك أحب إلينا من أن يأتينا أنك أجبت!!»[1].



(١) سير أعلام النبلاء ٩/٢٤٤.

ثانياً: مرض الشبهات:

قال ابن القيِّم: «وإنما سُمِّيت الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها، فإنها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل، وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر، فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد صحتها، وأما صاحب العلم واليقين، فإنه لا يغتر بذلك بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها، فينكشف له حقيقتها، ومثال هذا: الدرهم الزائف، فإنه يغتر به الجاهل بالنقد نظرًا إلى ما عليه من لباس الفضة، والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك، فيطلع على زيفه، فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف»[١].

قال الشيخ علي الطنطاوي وهو يشرح في براعة الطبيب وحكمة المربي وخبرة العالم الفارق بين الشبهات والشهوات:

«والشبهات أخطر بنتائجها لأنها تؤدِّي إلى الكفر، ولكن الشهوات أشد بطبيعتها، إذ إن الشبان لا يستجيب منهم للشبهة إلا قليل، أما ما يثير الغرائز ويحرِّك الرغبات فيلقى الاستجابة عند الجميع، وإن كان منهم من يصبر ويقاوم، ويطوي جوانحه على مثل النار الآكلة ابتغاء ثواب الله وخوفًا من عقابه، الأولى كالمرض الذي يقتل ولكن عداوته بطيئة، والوقاية منه ممكنة، والثانية كالمرض الذي يضني وإن كان لا يُفني، ويُضعف وإن كان لا يُميت، والتوقي منه أصعب»[٢].

وعن السلوك الذي يجب على المسلم أن يسلكه مع الشبهات قال ابن القيِّم مهديًا إلينا نصيحة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وقال لي شيخ الإسلام – رضي الله عنه– وقد جعلت أورد عليه إيرادًا بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشرَّبها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمُر عليها صار مقرًّا للشبهات، فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك»[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) فصول إسلامية ص ٩٥، ٩٦ –ط دار المنارة –الطبعة الثانية - ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

(٣) مفتاح دار السعادة ص ١٤٠.

• فمن الشبهات: تدخل العقل في ما لا يطيق، وخوضه في ما لا طاقة له به، ومن ذلك ما أخبر عنه النبي ﷺ في قوله: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟! من خلق كذا؟! حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»[1].

والدواء بالإضافة إلى الاستعاذة جاء كذلك على لسان عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله عز وجل»[2].

ومما لا يطيقه العقل: الخوض في مجازات وكنايات أوهم ظاهرها معاني لا تليق في جنب الله تعالى مثل: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ ﴾ [الذاريات: ٤٧]، ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، والنجاة في أن نُمِرَّها كما جاءت ولا نقف على الكيفية بل نفوِّض الكيف إلى الله كما فعل روى ذلك جعفر ابن عبد الله قال: «كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله!! الرحمن على العرش استوى كيف استوى؟! فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء يعني العرق، ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأُخرِج»[3].

• ومن الشبهات: الخوض في دقائق العقائد دون داعٍ شرعي، وهو ما لا ينسجم مع منهج السلف القائم على البساطة، وتجنب الخوض في جدليات تحت دعوى أنها من علم العقيدة، وما هي في حقيقتها إلا بقايا علم الكلام الذي نُهينا عن الخوض فيه، وهذا ما دفع الإمام أحمد بن حنبل لهجر الحارث المحاسبي على الرغم من صلاحه وتقواه لخوضه في هذا العلم الجدلي المورث للشك.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٧٩٩٣.
(٢) حسن: رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب كما في صحيح الجامع حديث رقم: ٢٩٧٥.
(٣) حلية الأولياء ٦/ ٣٢٥، ٣٢٦.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. قالت: قال رسول الله ﷺ: «فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم»[١].

وكثيرًا من الخلافات والنزاعات اليوم تقوم على هذه الأمور، والتي صار بعضها للأسف سيفا في يد البعض يكفِّر به غيره ويُفسِّق الآخرين، واسمعوا إلى آخر ما كان من أبي الحسن الأشعري في ما رواه عنه الإمام الذهبي. قال أبو حازم العبدوي: سمعت زاهر بن أحمد يقول: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد أتيته فقال: «اشهد على أني لا أكفِّر أحدا من أهل القبلة لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات»[٢].

وتأمل معي.. كيف يُفني البعض عمره في معارك ثم يتوصل أواخر أيام حياته إلى أنها لم تكن سوى اختلاف عبارات، ولا ينتبه إلى المتاهة التي وضع فيها نفسه وأرشد إليها غيره بل أضله، ولا حلَّ إلا بالرجوع إلى ما كان عليه السلف من البساطة وعدم التكلف والاكتفاء من العقائد بالجمل، وتسخير الأوقات للعمل، والاهتمام بدراسة العقيدة كأثر وسعيٍ لا جدل ولغو، والعمل بالعقيدة بدلاً من الجدل بالعقيدة، فإن العقيدة قرينة العمل، والإيمان يكون بالأعمال لا الأقوال فقط.

وهنا لا بد من التمييز بين كليات العقيدة التي لا اجتهاد فيها، لقطعية الأدلة فيها ثبوتًا ودلالة، وبين جزئياتها التي جاءت النصوص فيها محتملة، وللخلاف فيها متسع، والانشغال بها لا يؤدي إلى الحسم فيها علميا، ولا يترتب عليه أي ثمرة عمليًّا، فقد اختلف الصحابة -رضي الله عنهم- في بعض جزئيات العقيدة، مثل رؤية النبي ﷺ ربه - عز وجل- ليلة الإسراء، وهل كان الإسراء بالجسد أم بالروح، وتكليم النبي ﷺ لقتلى المشركين في بدر، وتعذيب الميت ببكاء أهله، ووردت إلينا أقوالهم في ذلك، فكان كل منهم يبدي رأيه بشكل عرَضي، ولا يتوقف طويلاً عند هذه الأمور، ولا يرى لها أهمية كبرى، بينما هو مستغرق في الجهاد لنصرة الدين والتمكين له، فضلا عن أنهم لم يرد عن أي منهم إنكار على مخالفه في مثل هذه الأمور، بل كانت عباراتهم مشحونة بالأدب الجم والدعاء لمخالفيهم مثل قول عائشة رضي الله عنها: «رحم الله أبا هريرة.. أساء سمعًا فأساء إجابة».

---

(١) صحيح: اللؤلؤ والمرجان حديث رقم: ١٧٠٥، واللفظ لمسلم.

(٢) تاريخ الإسلام.

• ومن الشبهات التشكيك في كتاب الله وبث الشيطان في القلب عدم التصديق ببعض آياته: ومثال ذلك: ما حكاه محمد بن علي بن رازم الطائي الكوفي قال: «كنت بمكة حين كان الجنابي زعيم القرامطة بمكة وهم يقاتلون الحجاج ويقولون: أليس قال لكم محمد المكي: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] فأي أمن هنا. قال: فقلت له: هذا خرج في صورة الخبر والمراد به الأمر أي: ومن دخله فأمّنوه كقوله ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]»(١).

• ومن الشبهات: تلبيس الشيطان على المرء في الوضوء والطهارة، فيشك الإنسان في نفسه، ويظن أنه أحدث فيعيد الوضوء مرة بعد أخرى؛ حتى يجعل الشيطان الوضوء عليه صعبًا، ويحمِّل الإنسان ما لا يطيق، فيترك الوضوء والصلاة جزعًا.

• ومن الشبهات: التنازع في القدر، وهل الإنسان مُسيَّر أم مُخيَّر، وهي قضية جدلية قديمة جديدة، لا ينبني عليها عمل، ولا تبعث القلب على الوجل، وقد سبق وأن غضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا من إثارة هذا الجدل، فعن أبي هريرة ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقئ في وجنتيه الرمان، فقال: «**أبهذا أُمِرتم؟! أم بهذا أُرسِلت إليكم؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمتُ عليكم ألا تتنازعوا فيه**»(٢).

• ومن الشبهات: التشكيك في صحة المنهج الرباني كفرضية الحجاب وتحكيم الشريعة وصلاحيتها للعمل، وهي قضايا العصر التي تتعرَّض لحملات التشكيك وبث الريب في قلوب ضعاف المؤمنين.

---

(١) التحرير والتنوير.

(٢) حسن: رواه الترمذي في كتاب القدر رقم: ٢١٣٣، والحديث حسَّنه الألباني في صحيح الترمذي رقم: ١٧٣٢.


٣
رحلة سقوط
رُدَّ إليَّ روحي



المعصية والفخ

المعصـــية فـــخ، والشـــيطان صـــياد، والإنســـان طـائر، والفـخ مســتتر والحــب ملقـى علـى وجهـه؛ فمتـى أكـبَّ الإنسـان على التقاط الحب اوشك ان يخنقه.

ولذا جاء تحذير النبي ﷺ لأقرب الصحابة إلى قلبه وأحبهم إليه وهو أبو بكر الصديق ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو بكر: يا رسول الله! مُرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: «قل: اللهم عالم الغيب والشهادة، فاطر السماوات والأرض، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه. قال: قُلْهُ إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك»[1].

(وشِرْكِه) بكسر الشين وسكون الراء أي ما يدعو إليه الشيطان من الإشراك بالله، ويُروى بفتحتين (وشَرَكِه) أي مصائده وحبائله التي يفتتن بها الناس، إنها ثلاث نوبات حراسة يوصيك بالمحافظة عليها رسولك الحبيب وهو عليك شفيق وبك رفيق؛ واحدة عندما تصبح، والثانية في مساك، والثالثة عند نومك، فيا معشر الأبطال: إياكم أن تفروا أمام العدو، فكم كسا الفرار أهله لباس العار، وقد سمعتم كلام الجبار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥]، فاثبتوا في وجهه، وأروه الويل ألوانًا، وأنيروا القلب إيمانًا، ولا تكونوا ممن يصنع له التاج، واسمعوا هذا الحديث لتفهموا معنى الحديث:

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول: من أضل اليوم مسلمًا ألبسته التاج. قال: فيخرج هذا فيقول: لم أزل به حتى طلَّق امرأته، فيقول: أوشك أن يتزوج، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى عقَّ والديه، فيقول: يوشك أن يبرهما، ويجيء هذا فيقول: لم أزل به**

(١) صحيح : الصحيحة حديث رقم : ٢٧٥٣.

حتى أشرك، فيقول: أنت أنت! ويجيء هذا فيقول: لم أزل به حتى قتل فيقول: أنت أنت ويُلبسه التاج»[1].

ولن يُكتب لأحد الشفاء اليوم ما لم يجعل الصخرة التي وضعها الشيطان في طريقه صخرة يعبر عليها نحو العافية، والحبل الذي أراد أن يعرقله به عن بلوغ هدفه حبل المشنقة الذي يخنق به إبليس إن شاء الله.

وقد يخفى على بعض المرضى أن من خطوات الشيطان أن يأتي بوسوسة في صورة خواطر الخير، وذلك إذا علم أن المريض من الذين يتوخون البر والطاعة، وأنه من المستحيل عليه ترويج وسوسته إذا كانت مكشوفة، وقد فطن الحسن بن صالح لهذا الفخ الشيطاني فقال لك:

«إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابًا من الخير يريد به بابًا من السوء»[2].

ومن هذه الأبواب التسعة والتسعين اخترت عشرة أبواب لعلها الأهم وهي أيضًا الأخطر والأكثر شيوعًا، وأول هذه الأبواب باب مكتوب عليه:

1 التشديد المهلك:

لا ينبغي للإنسان أن يُحمِّل بدنه ما لا يطيق، فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها صاحبها لم تصل به حيث يريد.

وهذه الخدعة أراد الشيطان أن يوقع فيها عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، فدخل عليه من أبواب عبادات ثلاثة: باب الصيام وباب القيام وباب القرآن، وتأمَّل كيف انتهت قصته بتمني الاعتدال والتوسط الذي أرشده إليه في البداية النبي ﷺ، حيث قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ:

«قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله، ألم أُخبَرْ أنك تصوم النهار وتقوم الليل»، فقلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك

(١) صحيح: كما في السلسلة الصحيحة ٣/ ٢٧٤ رقم: ١٢٨٠.
(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٣١.

عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا، وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله»، [قال عبد الله بن عمرو عن نفسه]: فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ؛ قلتُ: يا رسول الله، إنِّي أَجد قوَّة، قال: «فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزِدْ عليه»، قلتُ: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر، فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ»[1].

هذا في شأن الصيام، أما في شأن القيام فقد دخل الشيطان على الصالح العابد عبد الله بن عمرو بن العاص مرة ثانية فزيَّن له الإفراط في العبادة ليوقعه؛ لذا حذَّر النبي ﷺ نفس الصحابي عبد الله بن عمرو بن العاص من الانقطاع عن قيام الليل من جراء ذلك، فقال: «يا عبد الله، لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»[2].

أما في شأن قراءة القرآن فلنا عودة مع نفس الصحابي عبد الله بن عمرو الذي عاوده الشيطان مرة ثالثة ليحاول أن يحمِّله ما لا يطيق ليورثه الانقطاع بعد الانتظام. قال عبد الله بن عمرو: قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ القرآن في شهر، قلت: إني أجد قوة. حتى قال: «فاقرأه في سبعة، ولا تزِدْ على ذلك»[3].

المداومة على قليل الدواء تورث الشفاء، وتناول عظيم الجرعة منه ثم الانقطاع لا يُحدِث الأثر المرجو، بل يحقق مبتغى الشيطان وهو انقطاعك وعدم دوامك؛ لذا كان من أسهل ما يوصل عدوك إلى هدفه: الغلو وتحميل نفسك فوق طاقتها والغفلة عن سنة التدرج، وتفاصيل خطة الشيطان وبين ثناياها: إفراط في بداية الطريق يورث التفريط آخره، وهو ما يسميه الأطباء اليوم بظاهرة الانتكاسة، فبعد أن يتناول المريض الدواء زمنًا وتبدو عليه أمارات الشفاء؛ يرتكس وينتكس من جراء ما شدَّد على نفسه في الأول.

وهو ما حذَّر منه من قديم الزمن الحسن البصري حين قال:

«إن هذا الدين دين واصب، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٧١٥.
(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ٧١٧.
(٣) المصدر السابق رقم: ٧١٦.

ضعيف، وكان يُقال: ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإنه لا يدري ما قدر أجله، وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف وكلَّف نفسه ما لا يطيق أوشك أن يسيِّب ذلك كله حتى لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف وكلف نفسه ما تطيق كان أكيس، وكان يُقال: شر السير الحقحقة»[1].

وهذه الكمين سقط ويسقط فيه الكثيرون ممن كانت بداياتهم صادقة مخلصة لكنهم لم يتنبهوا لهذا الفخ فوقعوا فيه، ومنهم من أخبرنا بقصته الأستاذ فتحي يكن في كتابه المتساقطون على طريق الدعوة، حيث قال حفظه الله:

«أذكر أن أحد الإخوة أقسم ليحفظن القرآن عن ظهر قلب خلال فصل صيف، ولقد اجتهد في ذلك، ولكنه لم يتمكن فسخط على نفسه سخطاً شديدًا، وصمَّم لينتقمن منها أبشع انتقام، فما كان منه إلا أن حرم نفسه من كل ما أحل الله له، بدأ بصيام متتابع لا يفطر إلا لمامًا وبقيام متتابع لا ينام إلا سهوًا، ثم انقطع عن دراسته وباع كتبه وأثاث غرفته، ولقد انتهى به الأمر بعد ذلك إلى مستشفي للأمراض العصبية، وإلى غيبته عن الدعوة بالكلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[2].

فأصبح كالبازي المُنَتَّف ريشه ... يرى حسرات كلما طار طائر
وقد كان دهرًا في الرياض مُنعَّمًا ... على كل ما يهوى من الصيد قادر
إلى أن أصابته من الدهر نكبة ... إذا هو مقصوص الجناحين حاسر



(١) الزهد لابن المبارك ٤٦٨/١ بتصرف يسير، والحقحقة: شدة السير وأتعبه للظهر.
(٢) المتساقطون على طريق الدعوة ص ٨٦، ٨٧ - ط ١ - الرسالة ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

2 الرجاء القاتل:

إن الرجاء الصادق مقام جميل لطيف يهوّن السير على العابدين، ويحث الكسالى على السير السريع، بل لولا الرجاء لما سار إلى الله تعالى أحد، فإن الخوف وحده لا يحرِّك العبد إنما يُزعجه، ثم الحب هو الذي يحرِّكه والرجاء يجذبه، «ولولا روح الرجاء لعُطِّلت عبودية القلب والجوارح، ولما تحرَّكت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيِّبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات»[(١)].

ومن فوائده: إظهار العبد عبوديته إلى ربه وما يرجوه ويستشرفه من إحسانه وبره، وأنه لا يستغني عنه طرفة عين.

ومن فوائده: التلذذ بالعبادة، فشتان ما بين عمل المحب الذي يرجو الثواب ويستلذ بالعمل وعمل الأجير الذي يتمنى الانتهاء من عمله والتخلص في أقرب فرصة مما يكابده فيه من مشاق.

ومن فوائده: أنه سبحانه يحب من عباده أن يرجوه ويسألوه لأنه الملك الجواد، والجواد فوق الكريم في أن أحب ما إلى الجواد: أن يُرجى ويُسأل، وفي الحديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»، والسائل راج وطالب، فمن لم يرجُ الله غضب عليه.

ومن فوائده: أن الرجاء يطرح العبد على عتبة المحبة، فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى، ثم رضي به وعنه.

ومن فوائده: أنه يبعثه على مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية.

ومن فوائده: أن فيه انتظار دائم وترقب لفضل الله تعالى، وذلك ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إلى أسمائه وصفاته، وتنزه القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة.

---

(١) مدارج السالكين ٤٢/٢ بتصرف.

أنواع الرجاء الثلاثة

لكن الرجاء ليس نوعًا واحدًا إنما هو أنواع ثلاثة: نوعان محمودان ونوع مذموم.

فالأول: رجاء من عمل بطاعة الله فهو يرجو ثوابه.

والثاني: رجاء رجل أذنب ثم تاب واستغفر فهو راجٍ مغفرة الله وعفوه.

والثالث: رجل مُتمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا أكذب الرجاء وهو رجاء أهل الإساءة والعصيان.

والرجاء الصادق هو أن تسبح بشدة ذراعيك نحو اليابسة، وأما الأماني والرجاء الكاذب فهو أن تنتظر حتى تسبح اليابسة نحوك.

لذا كانت العلامة الفارقة بين صحيح الرجاء وباطله وهو ما قاله **شاه الكرماني**: «علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة»[(١)].

وعدَّها **أبو عثمان الجيزي** علامة فارقة كذلك بين السعادة والشقاء حين قال: «من علامة السعادة أن تُطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو»[(٢)].

وهو أمر واضح في كتاب الله، لكننا يبدو أننا كثيرًا ما نقرأ كتاب ربنا بعينين عمياوين!! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فطوى الله سبحانه بساط الرجاء إلا عن هؤلاء العاملين المجدِّين.

فإذا قالت لك النفس المخادعة: أنا أرجو رحمة الكبير المتعال، فطالبها بالبرهان وقل لها: قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ثم أنشِد بصوت عالٍ:

فيا ساهيًا في غمرة الجهل والهوى ... صريع الأماني عن قليل ستندم

أفق قد دنا الوقت الذي ليس بعده ... سوى جنة أو حر نار تُضرَم

---

(١) المدارج ٢/٣٥.

(٢) فتح الباري ١١/٣٠١.

زواج الرجاء بالخوف

والرجاء الحقيقي مستلزم للخوف، والرجاء والخوف حالان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فإذا كان رجاء ولا خوف كان الاغترار بالرحمة والعفو فالقعود عن العمل، وإذا كان الخوف ولا رجاء كان اليأس من رحمة الله والقعود أيضًا عن العمل، ومن تلازمهما أن كل راجٍ خائف من فوات ما يرجوه كما أن كل خائف راجٍ أمنه مما يخاف منه.

ولأجل هذا جاء الرجاء في القرآن في موضع الخوف حيث قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣] قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة، وقال عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثيه: ١٤]. قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم كوقائعه بمن قبلهم من الأمم، والحال المتوازن بين الخوف والرجاء يعبِّر قول الشاعر:

عين تُسر إذا رأتك وأختها ... تبكي لطول تباعد وفراق

فاحفظ لواحدة دوام سرورها ... وعد التي أبكيتَها بتلاق





الغارقون في الوهم!!

قال أبو عمرو بن العلاء:

«بلغني أن الفرزدق جلس إلى قوم يتذكرون رحمة الله، فكان أوسعهم في الرجاء صدرًا، فقال له: لم تقذف المحصنات؟ فقال: احقروني لو أذنبت إلى ولدي ما أذنبته إلى ربي عز وجل أتراهما كانا يطيبان نفسًا أن يقذفاني في تنور مملوء جمرًا؟! قالوا: لا إنما كانا يرحمانك. قال: فإني أوثق برحمة ربي منهما.

سمع هذا الكلام ابن الجوزي ففنَّده وألقى به في نفاية الأفكار بعد أن صرعه بقوله:

«وهذا هو الجهل المحض لأن رحمة الله - عز وجل - ليست برقة طبع، ولو كانت كذلك لما ذُبِح عصفور، ولا أُميت طفل، ولا أُدخِل أحد إلى جهنم»(١).

وقريب من هذا ما حدث مع أبي نواس الذي دخلوا عليه في مرض موته فقالوا له: تُب إلى الله عز وجل، فقال: إياي تخوفون؟ حدَّثني حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي شفاعة، وإني اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» أفترى لا أكون أنا منهم؟!

وردَّ ابن الجوزي ثانية فقال: «وخطأ هذا الرجل من وجهين: أحدهما أنه نظر إلى جانب الرحمة ولم ينظر إلى جانب العقاب، والثاني أنه نسي أن الرحمة إنما تكون لتائب كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ ﴾ [طه: ٨٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وهذا التلبيس هو الذي أهلك عامة العوام»(٢).

أراك امرءًا ترجو من الله عفوه ... وأنت على ما لا يحبُّ مقيم

فحتّى متى تعصي ويعفو إلى متى ... تبارك ربّي إنّه لرحيم

ومن هذا التلبيس ما ذكره ابن القيم في قوله:

---

(١) تلبيس إبليس ص ٤٤٨.

(٢) تلبيس إبليس ص ٤٤٨، ٤٤٩.

«وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال أستغفر الله زال أثر الذنب وراح هذا بهذا، وقال لي رجل من المنتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول سبحان الله وبحمده مائة مرة وقد غفر ذلك أجمعه؛ كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حُطَّت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**»، وقال لي آخر من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل ثم اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا قد محي عنه ذلك، وقال لي آخر قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أذنب عبد ذنبًا فقال: أي رب! أصبت ذنبًا فاغفر لي، فغفر الله ذنبه، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا آخر، فقال: أي رب أصبت ذنبًا فاغفر لي، فقال الله عز وجل: علم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليصنع ما شاء**»، وقال: أنا لا أشك أن لي ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء واتكل عليها، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجُهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب؛ كقول بعضهم:

وكثِّر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم

وقول بعضهم: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله!! وقال الآخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار لها، وقال محمد بن حزم: «رأيتُ بعض هؤلاء من يقول في دعائه: اللهم اني أعوذ بك من العصمة!!»[1].

وما أجمل هذا المثل العقلي والنموذج الواقعي الذي ضربه لنا ابن قدامة، وما نوقش به عاقل إلا اقتنع، ولا مؤمِّل لرحمة الله دون عمل إلا تاب واجتهد. قال رحمه الله:

«فإنَّ من قال: إن الله تعالى كريم، وخزائنه واسعة، ومعصيتي لا تضره، ثم تراه يركب البحار في طلب الدينار، فلو قيل له: فإذا كان الحق كريمًا فاجلس في بيتك لعله يرزقك، استجهل قائل هذا وقال: إنما الأرزاق بالكسب، فيُقال له: هكذا النجاة بالتقوى»[2].

(١) الجواب الكافي ص ١١، ١٢.

(٢) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٦٣.

3 الدموع الخدَّاعة:

وقد لبَّس إبليس على خلق كثير من المرضى يحضرون مجالس الذكر فيبكون، ويكتفون بذلك ظنًّا منهم أن المقصود هو الدموع وليس الرجوع، ولا يعلم المسكين أنه إذا لم يعمل بما سمع زادت الحجة عليه، وكم من مرضى يحضرون مجالس الخير وختمات القرآن في رمضان منذ سنين فيذرفون الدموع لكنها دموع التماسيح، فلا يتغيَّر حال أحدهم بمقدار شعرة، ولا يدع ما اعتاده من الربا والغش في البيع والغيبة للمسلمين والعقوق للوالدين، بل يرجع إلى ما كان عليه بعد أن فرَّغ الشيطان شحنة إيمانه في دموع عابرة وزفرات متقطِّعة لا يبقى أثرها معه بعدها سوى ساعات فإن طالت فأيام، ثم يرجع المريض إلى ما كان عليه إن لم يكن أسوأ.

كان سفيان بن عيينة يقول:

«البكاء من مفاتيح التوبة، ألا ترى أنه يرق فيندم؟»[(١)].

ومن عجب أن تكون أخي ممن يُفتح لهم باب الهداية ثم لا يدخل، تنظر إلى الداخل فترى السكينة والرضا والنعيم الروحي والدنو من الجنة؛ ثم تكتفي بالنظر لا يغريك ما رأيت ولا تجني ثمرة ما بكيت!! ولو كنت حصيفًا لما غادرت مجلس دموعك حتى تعلن صدق رجوعك، ولأبرمت مع الله العهود والمواثيق على تغيير نفسك وإصلاح قلبك قبل جفاف عينك، ولكنت واضحًا تعلم موضع الخطوة التالية وفي أي اتجاه وإلا جفَّ أمل الهداية مع جفاف آخر قطرة دمع نازلة.

وهذا ما فهمه الصحابة وحرصوا عليه، واسمع ما رواه العرباض بن سارية ﷺ حيث قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله!! كأنها موعظة مُودِّع، فأوصنا..».

فانظر نفعك الله كيف اغتنموا نزول الدموع في طلب العمل والتطبيق، والزم طريقهم تنل في الجنة قربهم.

---

(١) الرقة البكاء ١/ ٥٥.

4 اعتياد العبادة:

حين تتحول العبادة إلى عادة تفقد العبادة روحها وتنقلب إلى واجب ثقيل وهم رازح، ودواؤنا وُصِف بأنه روحي فبالروح يتصل، وبها وحدها ينجح أو يفشل، فإذا غابت الروح فمن نعالج؟!

تحول العبادة إلى عادة هو الذي أفقد الصلاة روحها وأضاع معاني المناجاة والاتصال بالقوة التي لا تُغلب، وعرض النفس خمس مرات كل يوم على العليم الخبير، والتهيؤ للحساب قبل يوم الحساب.

تحول العبادة إلى عادة هو الذي أفقد الصدقة معنى مشاركة الفقير وشراء الجنة ومواساة الملهوف وتطهير النفس ومرضاة الرب، فإذا الصدقة واجب لا بد منه، وعبء يُتخلَّص منه، فلا تطهِّر روحًا ولا ترفع درجة.

تحول العبادة إلى عادة هو الذي أفقد الصوم معنى مشاركة الفقير والتصديق بالغيب والسمو بالروح على شهوات الجسد.

قال ابن القيم عن هذه الآفة: «شوب العادة وهو أن يمازج العبودية حكم من أحكام عوائد النفس تكون منفذة لها معينة عليها وصاحبها يعتقدها قربة وطاعة، كمن اعتاد الصوم مثلاً وتمرَّن عليه فألفته النفس وصار لها عادة تتقاضاها أشد اقتضاء، فيظن أن هذا التقاضي محض العبودية، وإنما هو تقاضي العادة، وعلامة هذا: أنه إذا عُرض عليها طاعة دون ذلك وأيسر منه وأتم مصلحة: لم تؤثرها إيثارًا لها لما اعتادته وألفته»[1].

ومن آثار هذه الآفة مثلاً: إفراط البعض في الحج الذي قد يفوِّت على المرء عبادات أعظم أجرًا ومنافع أهم وأولى للمسلمين، وقد كان هذا شائعًا في الماضي كما هو منتشر في الحاضر. قال رجل لبشر الحافي: أعددت ألفي درهم للحج، فقال: أحججت؟ قال: نعم. قال: اقضِ دين مالك. قال: ما تميل نفسي إلا إلى الحج. قال: «مرادك أن تركب وتجيء، ويُقال فلان حاج»[2].

---

(١) المدارج ٢/ ٩٨، ٩٩.

(٢) تلبيس إبليس ص ٤٥٥.

5 احذر المقدمات:

إن مقدِّمات أي ذنب هي الذنب نفسه، وهل حرَّم الله إطلاق البصر إلا لأنه مقدمة الزنا؟! وهل حذَّر النبي ﷺ من جليس السوء إلا لأنه مقدمة الحرام؟! وهل نُهينا عن قليل المسكر إلا لأنه مقدمة الكثير؟! من سار مع قافلة الغافلين وصل إلى ديار الهالكين؛ لأن آخر طريق اليمن يمن، ومن رمى نفسه في الماء أصابه البلل، ولن يستطيع الشيطان أن يمتطي ظهرك يومًا دون أن تمد له يدًا وتحني له ظهرًا.

ولذا كانت قاعدة سد الذرائع من أهم وأثمن وأحكم القواعد الشرعية التي تمثِّل الوقاية الصارمة ضد هذه المكيدة، وكانت من علامات عظمة هذه الشريعة ومن أمارات رحمة الله الواسعة. قال ابن القيِّم:

«فإذا حرَّم الرب تعالى شيئًا وله طرق ووسائل تُفضي إليه، فإنه يُحرِّمها ويمنع منها، تحقيقًا لتحريمه، وتثبيتًا له، ومنعًا من أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المُفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم وإغراءً للنفوس به»[1].

وقال في موضع آخر:

«وإذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع إلى المحرَّمات، فنهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين لكونه ذريعة إلى أن يسبوا الله سبحانه وتعالى عدوًا وكفرًا.

وأمسك ﷺ عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة لكونه ذريعة إلى التنفير وقول الناس: إن محمدًا يقتل أصحابه.

وحرَّم القطرة من الخمر وإن لم تحصل بها مفسدة لكون قليلها ذريعة إلى شرب كثيرها.

وحرَّم الخلوة بالمرأة الأجنبية والسفر بها والنظر إليها لغير حاجة حسمًا للمادة وسدًّا للذريعة.

ومنع النساء إذا خرجن إلى المسجد من الطيب والبخور.

(١) إعلام الموقعين ٣/ ١٣٥.

ومنعهن من التسبيح فى الصلاة لنائبة تنوب؛ بل جعل لهن التصفيق.

ونهى المرأة أن تصف لزوجها امرأة غيرها حتى كأنه ينظر إليها.

ونهى عن بناء المساجد على القبور ولعن فاعله، ونهى عن تعلية القبور وتشريفها، ونهى عن البناء عليها وتجصيصها والكتابة عليها والصلاة إليها وعندها وإيقاد المصابيح عليها؛ كل ذلك سدًّا لذريعة اتخاذها أوثانًا، ونهى الله سبحانه وتعالى النساء أن ﴿ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، فلما كان الضرب بالرِّجل ذريعة إلى ظهور صوت الخلخال الذي هو ذريعة إلى ميل الرجال إليهن نهاهن عنه.

وأمر الله سبحانه الرجال والنساء بغض أبصارهم لما كان النظر ذريعة إلى الميل والمحبة التي هي ذريعة إلى مواقعة المحظور.

وحرَّم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها لكونه ذريعة إلى قطيعة الرحم»[1].

وهذه المقدمة ليست مقدمة إلى استشراء المرض على النطاق الفردي فحسب، بل على نطاق الأمة وعبر عهود من الزمن وأجيال من الأمم، وقد تأمل أحد هذه القواعد الأستاذ محمد قطب حين قبس من حديث «ما أسكر قليله فكثيره حرام» قبسة عكس أشعتها علينا، ثم قال كعالم اجتماع حاذق عاش دهورًا من الزمن يرصد الانحراف وإن دق ويشخِّص الأعراض وإن خفيت:

«تبدأ الجريمة بسيطة خفيفة لطيفة.. اختلاط بريء تحت إشراف الآباء أو غيرهم من المشرفين.. ونزهات لطيفة أو نواد ظريفة، ولا بأس من إتاحة شيء من الخلوة «البريئة» بين شاب وفتاة، وما الذي يمكن أن يحدث في خلوة كهذه بريئة وعين الرقيب على بعد خطوات.. أو حجرات؟!

ابتسامة من هنا وكلمة إعجاب من هناك؟ وضمة خاطفة في غفلة من الرقيب؟ وقبلة طائرة تطفئ الغلة أو تشعل اللهيب؟

«يا سيدي»!

---

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٣٧٥-٣٨٠ بتصرف.

ثم يحدث ما يحدث في الخمر..

الإدمان..

الكأس الأولى تصبح بعد حين تافهة ضئيلة المفعول. لابد من كأس ثانية.

والقبلة الأولى تغري دائمًا بالمزيد، لا يمكن أن تتوقف، ليس ذلك من طبائع الأشياء.

ولكن الجيل الأول مع مع ذلك لا يسرف في الجريمة، ولا يصل إلى الإدمان المجنون.

هنالك الشخص الواقف في داخل النفس بالمرصاد، ومعه العصا ينذر ويحذِّر ويهدد بعظائم الأمور، وهنالك التقاليد التي تربط المجتمع ولا يسهل الخروج عليها دفعة واحدة، ومن ثم لا تحدث الجريمة الكاملة في أول جيل، وإنما «يتبحبح» الناس قليلاً ويفكون القيود.

ويمضي المجتمع في طريقه منتشيًا لا يحس بالخطر، ولا خطر حتى الآن هناك.

ويظن المجتمع – نظريًّا – أنه قادر على ذلك إلى غير نهاية، قادر على أن يفك القيود ومع ذلك لا يقع في الجريمة أو لا يصل إلى الإسراف المعيب، وهو مخلص في عقيدته تلك الضالة لأنه يقيس على نفسه ويغفل حقيقة الأمور، يغفل الضوابط الخفية التي أنشأها في أعماق نفسه الجيل السابق المتحفِّظ، والتي لن يخلِّفها هو للجيل المقبل لأنه غير مؤمن بها، يظنها تشددًا بلا ضرورة ولا لزوم!

ينسى الرجل أنه قد رأى أمه متحفِّظة لا تختلط بالرجال، ورآها مكتسية لا يتعرَّى من جسدها شيء، ومن ثم تقاومه هذه الصورة على غير وعي منه وهو يدعو فتاة غريبة إلى الاختلاط به، ويدعوها إلى تعرية نفسها أو جسدها ليستمتع به، ثم تقاومه حتى وهو مندفع بالشهوة، فلا يسرف ولا يتبجَّح بالإثم.

والفتاة التي رأت أمها محتشمة وزرعت في نفسها النفور من العري- النفسي والجسدي- تتحفَّظ كذلك- بوعي منها وبغير وعي- حتى وهي تُهِم بالانزلاق، فلا تسرف ولا تتبجَّح بالإثم.

ثم يتراجع هذا الجيل..

ويجيء جيل جديد تربية الأم التي ذاقت في شبابها «متعة» التحلل البسيط من القيود، والأب كذلك.

الأم والأب اللذان ذاقا شيئًا من المتعة ولم يسقطا السقوط الكامل – والأم خاصة – لن ينظرا إلى التقاليد «المتزمتة» بعين الاحترام.

علام التشدد؟! ألم ينفلتا هما من هذا التشدد ولم يحدث شيء؟ «فليتبحبح» الأولاد «قليلاً» ولا ضير! ومن ثم ينشأ الجيل الجديد وقد ضعف الشخص الواقف في داخل النفس بالمرصاد، ولانت العصا فلم تترك أثرًا في الضمير، وتفككت التقاليد فلم تعد تمنع المحظور، ويتراجع هذا الجيل.

ويأتي جيل يرى أمه قد تعرَّت من شيء من الثياب وشيء مماثل من الفضيلة (والجسم والنفس صنوان في هذه الأمور!) الولد الذي يرى أمه عارية لا تثور في نفسه نخوة الرجولة والحرص على الأعراض، فقد زالت في نفسه حرمة الجسد، وصار نهبًا يباح للعيون، وبعد ذلك لما هو أكثر من العيون، والبنت التي ترى أمها عارية لا تؤمن بالقيد، ويلتقي هؤلاء الأولاد والبنات، يلتقون على شهوة الجسد الفائرة، ويلتقون بلا ضابط ولا حدود، وتتم الدورة المحتومة، والهاوية في آخر الطريق»[1].

لذا كان لا بد من إقامة خط الدفاع، وهو ما أرشدنا إليه قائدنا ورسولنا محمد ﷺ: **«اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال، من فعل ذلك استبرأ لعرضه ودينه، ومن أرتع فيه كان كالمرتع إلى جنب الحمى يوشك أن يقع فيه»**[2].

وكل من تجاوز هذا الستر وعبر هذه المقدِّمات فقد أعطى نسخة من مفتاح قلبه للشيطان، ثم يشكو في النهاية دخولَ الشيطان عليه ووسوسته إليه!!

المباح عقبة بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المباح تطرَّق إلى المكروه، ومن استكثر من المكروه تطرّق إلى الحرام، ومن هنا حذَّر الصالحون من الإسراف في المباح. قال **ابن القيم**:

«وقال لي يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة أو نحو هذا من الكلام، فالعارف يترك كثيرًا من المباح

---

(١) قبسات من ... ل ص١٣١-١٣٤ – محمد قطب – الطبعة الشرعية الثانية عشرة ١٤١٥-١٩٩٥.

(٢) صحيح: رواه كما في ص ج ص رقم: ١٥٢.

إبقاء على صيانته، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخًا بين الحلال والحرام، فإن بينهما برزخًا»[(١)].

السرف في إطلاق البصر سيجره ولا بد إلى وقوعه على الحرام، والسرف في الكلام سيجره ولا بد إلى زلات اللسان وآفات الكلام، والسرف في الطعام يؤدي إلى السمنة وضخامة البدن وسيطرة الشهوات، ومنها إلى التثاقل والكسل والتراخي، إن لم يكن الانقطاع و القعود عن فضائل الأعمال، ولعل ذلك هو السر في نهي الله وتحذيره من السرف: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وهو ما وصل إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ:

«إياكم والبطنة في الطعام والشراب؛ فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما؛ فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف، وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»[(٢)].

6 اليأس:

وأنا أورد مزيلات القنوط وناسفات اليأس هذه حتى لا يدفعك تكرار السقوط يومًا إلى ترك محاولة الاستشفاء وطلب الدواء، فخذها مني عشر جرعات رجاء شافيات من تناولها انقشعت عنه سحب دخان القنوط المتصاعد من وسط ركام الذنوب، لتهب على قلبه نسائم الرجاء الجميل، فترجع القلوب بيضاء نقية لا يحجبها عن الله شيء.

إنها لغة الاستجداء ليس يُفهم غيرها في ساحة العفو، لجأ إليها الحسن فقال في لهجة صادقة وعبارة صريحة حين وقف على قبر وكيع بن أبي الأسود ثم قال: «اللهم ارحم وكيعًا فإن رحمتك لن تعجز عن وكيع»[(٣)].

نفس اللهجة نطق بها لسان كاتب الوحي معاوية بن أبي سفيان ﷺ حين تمثّل عند الموت قول القائل:

---

(١) المدارج ٢/ ٢٦.
(٢) كنز العمال ٤١٧١٣.
(٣) حسن الظن بالله ١/ ١٠١.

هو الموت لا منجا من الموت والذي نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثم قال: اللهم فأقل العثرة، وعاف من الزلة، وجُد بحلمك على جهل من لم يرجُ غيرك، ولم يثق إلا بك، فإنك واسع المغفرة ليس لذي خطيئة مهرب إلا أنت، فبلغ هذا القول سعيد بن المسيب - رحمه الله- فقال: «لقد رغب إلى من لا مرغوب إليه مثله، وإني لأرجو ألا يعذِّبه»(١).

وهو درس مهم نتعلمه هنا لنعمل به؛ حيث لابد للرجاء من تدريب عليه في الدنيا حتى يصير عادة يسهل استجلابها عند الموت حين يكون حسن الظن ضرورة ولا ينفع وقتها الخوف، وإذا لم تجرِّب الرجاء الآن وأنت في صحتك ورخائك فلن تستطيع استجلابه عند موتك واحتضارك؟!

ويبشِّرك بالثالثة شعرًا محمود الوراق فيقول:

حسن ظني بحسن عفوك يا ربُّ جميلٌ وأنت مالك أمري
صُنتُ سري عن القرابة والأهل جميعًا وكنتَ موضع سري
ثقةً بالذي لديك من الستر فلا تُخزني يوم نشري
يوم هتك الستور عن حجب الغيب فلا تهتكن للناس ستري
لقِّني حُجَّتي وإن لم تكن يا رب لي حجة ولا وجه عذر(٢)

ويأتيك بالرابعة دعاءً عمر بن ذر لما حجَّ اجتمع الناس إليه؛ فقالوا: يا أبا ذر!! ادعُ بدعوة، فقال: «نعم.. اللهم ارحم قومًا لم يزالوا مذ خلقتهم على مثل ما كانت عليه السحرة يوم رحمتهم»(٣).

وبالخامسة تدبرًا من كتاب الله عون بن عبد الله حين قال: «ما كان الله لينقذنا من شيء ثم يعيدنا فيه ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾، وما كان الله ليجمع أهل

---

(١) حسن الظن بالله ١/ ١١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق ١/ ٢٧.

قسمين في النار: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾، ونحن نقسم بالله جهد أيماننا ليبعثن الله من يموت»[١].

وبالسادسة حكمة من حكم ابن عطاء وهو يكتب بقلم الروحانية عباراته الحانية ليهز المشاعر القاسية:

«من استغرب أن يُنقِذه الله من شهوته، وأن يُخرِجه من وجود غفلته، فقد استعجز القدرة الإلهية، وكان الله على كل شيء مقتدرًا»[٢].

وبالسابعة مواجهة لنفسك وتشخيصًا لعيب من عيوبها الخفية على لسان ابن عطاء أيضًا: «من علامة الاعتماد على العمل: نقصان الرجاء عند وجود الزلل»[٣].

والاعتماد على العمل الصالح معناه أن تصلي وتتصدق وتصوم عادة لا لذكر الله تعالى الذي شُرِعت لأجله هذه العبادات، فلا حال لقلبك ولا حلاوة لروحك وأنت تطيع ربك، ومن ثم فلا حلاوة لعبادة، وهو ما سماه البعض عبادة العبادة، والتخلص من الاعتماد على العمل يكون بتجريب مقياس دقيق من صنع ابن عطاء، ليسلط الأضواء الكاشفة على حالنا مع الله.

وبالثامنة بكاء ممتزجًا بحرقة الحسن بن الحسن بن علي، فقد روى الأصمعي: دخلتُ في الطواف عند السحر؛ فإذا أنا بغلام شاب حسن الوجه حسن القامة عليه شملة[٤] وله ذؤابتان وهو متعلق بأستار الكعبة يقول:

ألا أيها المأمول في كل ساعة ... شكوتُ إليك الضر فارحم شكايتي
ألا يا رجائي أنت كاشف كربتي ... وهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي
فزادي قليل ما أراه مُبلّغي ... أللزاد أبكي أم لبعد مسافتي
أتيت بأعمال قباح رديئة ... فما في الورى خلقٌ جنى كجنايتي

(١) حلية الأولياء ٤/ ٢٦٣.
(٢) شروح الحكم العطائية ص٣١٠.
(٣) الحكم العطائية ص ٥ – دار السلام.
(٤) الشملة: كساء دون القطيفة يشتمل به.

أتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائي ثم أين مخافتي

قال: فتقدمتُ إليه وكشفتُ عن وجهه؛ فإذا به الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فقلت: يا سيدي مثلك من يقول هذه المقالة وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة. قال: «هيهات يا أصمعي.. إن الله خلق الجنة لمن أطاعه وإن كان عبدًا حبشيًّا، وخلق النار لمن عصاه وإن كان ولدًا قرشيًّا. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]»[١].

وبالتاسعة طمعًا لذيذًا ورغبة جارفة من يحيى بن معاذ وهو يقول: «إن قال لي يوم القيامة: عبدي ما غرَّك بي؟ قلت: إلهي برُّك بي»[٢].

وبالعاشرة رؤيا منام رآها أبو العباس بن سريج رحمه الله، حيث رأى خلال مرض موته في منامه كأن القيامة قد قامت، وإذا الجبار سبحانه يقول: أين العلماء؟ قال: فجاءوا، ثم قال: ماذا عملتم فيما علمتم؟ قال: فقلنا يا رب قصَّرنا وأسأنا. قال: فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابًا غيره، فقلت: أما أنا فليس في صحيفتي الشرك، وقد وعدت أن تغفر ما دونه، فقال: اذهبوا به فقد غفرت لكم، ومات بعد ذلك بثلاث ليال!![٣].

فاللهم ارزقنا قبل موتنا بشارة كهذه، وأعطنا قبل رحيلنا إشارة على فوزنا ونجاحنا، حتى نتهيأ لرقدة القبور والسرور ملء قلوبنا، وأزيدكم كرمًا فوق العشرة بشارتين رائعتين تنعشان القلب الحزين وتجلوان عن مرآته صدأ اليأس المريع:

البشارة الأولى للكريم صاحب العطايا الربانية ابن عطاء يقول فيها: «لا صغيرة إذا قابلك عدله[٤]، ولا كبيرة إذا واجهك فضله».

---

(١) تاريخ دمشق.

(٢) صفة الصفوة ٤/ ٩٥.

(٣) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٤.

(٤) أي لا صغيرة من ذنوبك إذا قابلك عدل ربك بل كلها كبائر، وحتى حسناتك التي عملتها لا يُنسب الفضل فيها إليك، فإذا افتخرت بصدقتك وجدت أن المال منه، وإذا انتشيت بطاعتك فهو الذي حبَّب إليك الإيمان وزيَّنه في قلبك، وإذا اغتررت بصلاحك وسط عصبة الفاسدين صدح فيك قول ربك: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾، فإن صفة العدل إذا ظهرت على من كرهه الله تلاشت حسناته وعادت صغائرُه كبائر لأن الله سيُعذِّبه على أصغر ذنب.

وموضع البشارة هنا أنه لا كبيرة لك إذا واجهك فضله، والفضل هو إعطاء الشيء بغير عوض، فإن صفة الفضل إذا ظهرت لمن أحبه الله اضمحلَّت سيئاته وبُدِّلت حسنات، فاللهم اجعلنا ممن تحبهم وترضى عنهم.

والبشارة الثانية لعلم الزهد يحيى بن معاذ الذي ذاق طعم الرجاء ووجد أثره بعد سيئاته أكثر مما وجده بعد طاعاته، وأبان سبب ذلك في بعض مناجاته:

«يكاد رجائي لك من الذنوب يغلب رجائي إليك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص وكيف أُحرِزُها وأنا بالآفة معروف؟! وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟!»[1].

واسمعوا معشر اليائسين مسك الختام وأصل الكلام متمثِّلا في البشارة القرآنية لتطرب آذانكم وتهدأ قلوبكم: ﴿ **ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ** ﴾ [الحديد: ١٧].

فكما يحيي الله هذه الأرض الميتة بعد هلاكها كذلك يهدي الإنسان الضال عن الحق إلى الحق، فيوفِّقه ويُسدِّده للإيمان حتى يرجع مؤمنًا من بعد كفره، ومهتديًا من بعد ضلاله.

7 عبادات مفضولة:

فقد يدفع الشيطان العبد إلى طاعة مفضولة قاصدًا أن يفوِّت عليه طاعة أفضل منها، والأحاديث التي تحذِّر من ذلك كثيرة، فعن أفضلية الجهاد روى أبو هريرة ﷺ: أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ مرَّ بشِعْب فيه عيينة ماء عذب، فأعجبه طيبه، فقال: لو أقمت في هذا الشعب فاعتزلت الناس، ولا أفعل حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«لا تفعل؛ فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاة ستين عامًا خاليًا؛ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله؛ من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة»**[2].

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ١٥٣.

(٢) صحيح لغيره: كما في الصحيحة رقم: ٩٠٢.

وقد روى عبد الله بن عمرو ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد فقال: «أحي والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد». متفق عليه، وفي رواية: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

ولذا ما كان الحسن البصري مبالغًا ولا مغاليًا حين قال -رحمه الله- لرجل: تعشَّ العشاء مع أمك تقرُّ به عينُها أحبُّ إليَّ من حجة تطوُّعًا.

وقد سئل الفضيل بن عياض عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص للزهد، فقال: «ما للزهد وأكل الخبيص!! ليتك تأكل وتتقي الله، إن الله لا يكره أن تأكل الحلال إذا اتقيت الحرام، انظر كيف برك بوالديك، وصلتك للرحم، وكيف عطفك على الجار، وكيف رحمتك للمسلمين، وكيف كظمك للغيظ، وكيف عفوك عمن ظلمك، وكيف إحسانك إلى من أساء إليك، وكيف صبرك واحتمالك للأذى، أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص»[1].

وقد أشار إلى أفضلية كسب الحلال وأولوية إطابة المطعم إذا تعارض مع القيام والصيام إبراهيم بن أدهم فقال: «أطب مطعمك، ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم بالنهار»[2].

وقد رصد ابن عطاء كل هذا في حكمة من حكمه الغالية التي جاء فيها:

«من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات»[3].

8 الإلحاح وعدم اليأس:

قال ابن القيم:

«ولما كانت الوسوسة كلامًا يكرره الموسوس ويؤكد عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة؛ فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه، ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه كالدوران والغليان والنزوان

---

(١) المستطرف ١/ ٣٨٤ والخبيص حلوى عبارة عن خليط من التمر والسمن.
(٢) الحلية ٨/ ٣١.
(٣) شروح الحكم العطائية ص ٣٠٨.

وبابه، ونظير ذلك زلزل ودكدك وقلقل وكبكب الشيء؛ لأن الزلزلة حركة متكررة وكذلك الدكدكة والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء إذا كبَّه في مكان بعيد، فهو يكب فيه كبًّا بعد كب، كقوله: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٩٤]، ومثله رضرضه إذا كرر رضه مرة بعد مرة، ومثله: ذرذره إذا ذره شيئا بعد شيء، ومثله: صرصر الباب إذا تكرر صريره، ومثله: مطمط الكلام إذا مطه شيئًا بعد شيء، ومثله: كفكف الشيء إذا كرر كفَّه وهو كثير»[١].

والوسواس يتضاعف أثره عند مرض القلب، ويقل بل قد ينعدم عند أحياء القلوب، ولذا لما سئل يحيى بن معاذ عن الوسوسة قال: «إن كانت الدنيا سجنك كان جسدك لها سجنًا، وإن كانت الدنيا روضتك كان جسدك لها بستانًا»[٢].

فالدنيا للمؤمن سجن يحبس نفسه فيه عن كثير من الحرام والشبهات؛ لذا تنحبس وساوسه تحت قبضته، ولا يسمح لها أن تنال منه وذلك بفضل قوة إيمانه وطُهر قلبه، أما الكافر والمنافق فالدنيا روضتهما يرتعان فيها؛ ولذا تكثر وساوسهما وتؤذيهما حتى الهلاك.

قال ابن القيِّم:

«واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها»[٣].

وحين يتعوَّد شيطانك على الطرد مرة بعد مرة، وإغلاق الباب في وجهه طويلا ييأس حتى قيل إن بعض المريدين سأل بعض المشايخ فقال: أيها الشيخ.. بأي شيء تدفع إبليس إذا قصدك بالوسوسة؟! فقال الشيخ: «إني لا أعرف إبليس فأحتاج إلى دفعه!! نحن قوم صرفنا هِمَمَنا إلى الله فكفانا ما دونه!!»[٤].



(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٧٤.
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٥٧.
(٣) الفوائد ص ١٧٤.
(٤) طريق الهجرتين ص٣٤٧.

9 الرياء:

عمل المرائين قشر لا لب فيه، واللب وحده هو الذي يثقل كفة الميزان في ساحة الحشر لا القشر، وإن كان حظ النفس في المعصية ظاهرًا جليًّا؛ فإن حظها في الطاعة باطن خفي، ومداواة ما خفي من الأمراض أصعب.

المرائي يزوِّر توقيع العابدين المخلصين ليقبض في الدنيا الثمن: الشهرة وعلو المكانة، ولن يجني في الآخرة غير العذاب ومرير المهانة.

ثوب الرياء يشفُّ عما تحته فإذا اشتملت به فإنك عاري

وهو عيب يقدح أول ما يقدح في صدق العبودية لله كما قال ابن عطاء:

«استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك».

وليس أشد غيرة من الله؛ لذا يعاقب من خدش حمى العبودية بأن يتعثَّر ويسقط في منتصف الطريق. قال ابن الجوزي: «وإنما يتعثَّر من لم يُخلِص»[1].

وهو ما كان يتعلَّمه الصالحون حتى صاروا أساتذة فيه كما قال يوسف بن أسباط: «تعلَّموا صحة العمل من سُقْمه، فإني تعلَّمته في اثنتين وعشرين سنة»[2].

واسمعوا العجب العجاب من الإمام مالك الذي قال: «جلستُ إلى ابن هرمز ثلاث عشرة سنة، وكنت قد اتخذت في الشتاء سراويل محشوًّا، كنا نجلس معه في الصحن في الشتاء، فاستحلفني أن لا أذكر اسمه في الحديث!!»[3].

وهذا شيخ الإسلام طلحة بن مصرف - رحمه الله- اشتُهِر بالقراءة حتى سُمِّي سيد القراء، فلما علم إجماع أهل الكوفة على أنه أقرأ من فيها، ذهب ليقرأ على الأعمش ليسلخ هذا الاسم عنه، و لتنزل رتبته في أعين الناس، و يأبى الله إلا أن يرفع ذكره في العالمين!!

(١) صيد الخاطر ١/ ٣٥٨.
(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٤٤.
(٣) تاريخ الإسلام.

وهذا إمام أهل السنة يقول ابن القيم رحمه الله: «وكان بها إمام أهل السنة على الإطلاق أحمد بن حنبل الذي ملأ الأرض علمًا وحديثًا وسنة حتى إن أئمة الحديث والسنة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة، وكان - رضي الله عنه- شديد الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحب تجريد الحديث، ويكره أن يُكتب كلامه، ويشتد عليه جدًّا، فعلم الله حسن نيته وقصده، فكُتِب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سِفرًا، ومنَّ الله سبحانه علينا بأكثرها، فلم يفتنا منها إلا القليل، وجمع الخلال نصوصه في الجامع الكبير، فبلغ نحو عشرين سفرًا أو أكثر»[1].

وكما في أرض الحجاز كان هناك عبد آخر في أقصى الغرب يتحدَّث نفس اللغة الإيمانية وينبض نفس النبض وهو أبو عبد الله محمد بن عتاب القرطبي، وكان قد خلَّف صندوقًا مقفلاً قد أوصى ألا يُفتح إلا بعد موته، فلما مات فُتِح، فإذا فيه أربعة كتب من أربعة رؤساء: ابن عباد وابن الأفطس وابن صمادح وابن هود، كل منهم يدعوه إلى نفسه وتقلَّد القضاء ببلده، وقد كُتب على كل كتاب منها: تركتُ هذا لله!!

وقاهر آخر للشيطان هو الإمام الشافعي حيث قال الربيع بن سليمان عنه: «دخلتُ على الشافعي وهو عليل، فسأل عن أصحابنا وقال: يا بني.. لوددت أن الخلق كلهم تعلموا - يريد كتبه - ولا يُنسب إليَّ منه شيء»[2].

واسمعوا خبر من يفرح إذا لم يُفسح له في مجلس، ويُسرُّ إذا لم يبجَّل ويُعطى مكانته اللائقة؟! وهو ما حدث مع عبد الله بن المبارك يومًا حين أتى سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب، ولم يعرفه الناس فزاحموه ودفعوه، فلما خرج قال: «ما العيش إلا هكذا يعني حيث لم نعرف ولم نوقَّر»[3].

والرياء شبكة يحاول الشيطان أن يلقيها على كل من اقترب من ساحة الشهرة؛ لذا قال الفضيل:

«لا يترك الشيطان الإنسان حتى يحتال له بكل وجه، فيستخرج منه ما يخبر به من عمله،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/ ٢٨.
(٢) حلية الأولياء ٩/ ١١٨.
(٣) صفة الصفوة ٤/ ١٣٥.

لعله يكون كثير الطواف فيقول: ما كان أحلى الطواف الليلة، أو يكون صائمًا فيقول: ما أثقل السحور أو ما أشد العطش، فإن استطعت أن لا تكون محدِّثا ولا متكلِّما ولا قارئًا، إن كنت بليغًا قالوا: ما أبلغه وأحسن حديثه وأحسن صوته، فيعجبك ذلك فتنتفخ، وإن لم تكن بليغًا ولا حسن الصوت قالوا: ليس يحسن يُحدِّث وليس صوته بحسن؛ أحزنك وشقَّ عليك فتكون مرائيًا، وإذا جلست فتكلمت ولم تبال من ذمَّك ومن مدحك فتكلم»[1].

ما أخفى رياء هؤلاء!!

ومن الرياء الخفي: تشوُّف البعض إلى إبراز عبادته لغيره، «فإذا دُعي إلى طعام قال: اليوم الخميس ولو قال أنا صائم كانت محنة، وإنما قوله اليوم الخميس معناه أني أصوم كل خميس، وفي هؤلاء من يرى الناس بعين الاحتقار لكونه صائمًا وهم مفطرون، ومنهم من يُلازم الصوم ولا يبالي على ماذا أفطر، ولا يتحاشى في صومه عن غيبة ولا عن نظرة ولا عن فضول كلمة، وقد خَيَّل له إبليس أن صومه يدفع إثمه، وكل هذا من التلبيس»[2].

ومن الرياء الخفي: تحسين الدعاة عملهم أمام الناس بقصد أن يقتدي بهم الخلق، «فيأتيه الشيطان في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومُقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت، فأحسن عملك بين يديه، فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة، وهو أيضًا عين الرياء ومُبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرًا لا يرضى لغيره تركه، فلِمَ لم يرْتضِ لنفسه ذلك في الخلوة، ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه»[3].

ومن الرياء الخفي: المبالغة في اتهام النفس بالرياء، فيذم الإنسان نفسه من حيث يريد أن يمدحها، ويرفع قدرها بين الناس وهو يبدو أنه يضعها.

---

(١) الحلية ٨/ ٩١.

(٢) تلبيس إبليس ص ١٧٧.

(٣) الإحياء ٤/ ٣٨٢.

ومن الرياء الخفي ما قصده ابن عطاء في قوله: «ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك».

بمعنى أن الرياء كما يتسلل إلى عملك إذا عملته بحضرة الناس وهو الرياء الجلي؛ فإنه قد يدخل عليك إذا عملته وحدك وهو الرياء الخفي، وذلك بأن تقصد بعملك الصالح وعبادتك توقير الناس لك ومسارعتهم إلى قضاء حوائجك، وأن تغضب على من قصَّر في حقك، فمن شاهد من نفسه شيئًا من هذا العلامات فليعلم أنه مرائي بعمله وإن أخفاه عن سائر المخلوقات.

النجاة!!

والنجاة من هذا الفخ جزء منها نظري وجزء عملي، فأما النظري فيقول عنه أبو حامد الغزالي:

«لا بد في رد الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة والكراهة والإباء، فلا فائدة إلا في اجتماع الثلاث، فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكر في آفات الدنيا وعظيم نعيم الآخرة.

ومن المعرفة معرفة آفات الرياء وآثاره المهلكة مما يثير كراهة له تقاوم شهوة النفس في إطلاع الناس على عملها ورغبتها في الرياء؛ فيتصارع في العبد قوتان: الشهوة التي تدعوه إلى الرياء، وقوة المعرفة التي تدعوه إلى الكراهة ومن ثم إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقوى القوتين وأغلبهما»[1].

وأما الجزء العملي من العلاج، فيكمله أبو حامد قائلاً:

«فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك، وما يُمِدُّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد

(١) الإحياء ٣/ ٣١٣ بتصرف واختصار.

والتسديد، وإن الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب، والله لا يضيع أجر المحسنين، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا»[١].

10 الخوف من الرياء:

وهو عكس الكمين السابق، ذلك أن الأمر إذا زاد عن حدِّه انقلب ضده، والشمس تنشر نورًا، لكنها تقتل حرًا، والماء يروي لكنه أيضًا يُغرِق، والشيطان لا يبالي بأي حيلة ظفر بك؛ بإفراط أو تفريط، فالساقط في هذا الفخ كمن هرب من عقرب وفزع إلى ثعبان.

وهو كمين خفي من كمائن الشيطان يدفع المريض إلى التوقف عن كثير من الطاعات خوفًا من الرياء، حتى يصاب المسكين بالوسوسة قائلا: هل أنا مخلص أم مراءٍ؟! أخاف أن لا يقبل الله لي عملاً؟! وينتهي الأمر بعذابات نفسية وقلق واضطراب مع قعود عن كثير من صالح العمل، وليس هذا من التقوى في شيء، بل الأمر كما قال الفضيل بن عياض: «ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيَك الله منهما»[٢].

وعلى الرغم من الخوف من الرياء شعور محمود حيث المؤمن صاحب نفس لوامة حتى قال عبدة بن أبي لبابة الكوفي: «أقرب الناس من الرياء آمنهم منه»[٣]، لكن الاعتدال مطلوب، لأن الخوف إذا زاد عن حدِّه انقلب جزعًا وهلعًا، والخوف سوط دافع إلى العمل فإذا أقعد عن العمل فليس أضر منه.



(١) الإحياء ٣/ ٣١٢.
(٢) الأذكار ١/ ١٨.
(٣) حلية الأولياء ٦/ ١١٣.


٤
حراسة
الأبواب
الستة
رُدَّ إليَّ
روحي



على عتبة هذا الباب:

يقول ابن القيم وهو يشير إلى أهمية الوقاية في مدارج السالكين:

«فمتى خلصت الأبدان من الحرام وأدناس البشرية التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا، زكت أرض الخلق فقبلت بذر العلوم والمعارف»[1].

لابد إذن من حملة تعقيم أولي وتطهير قلبي مبدئي، وقطع أنابيب التغذية الشيطانية قبل توصيل أنابيب التغذية الإيمانية؛ حتى إذا ما بدأنا مرحلة العلاج كان القلب نقيًّا مستعدًّا لتلقي كل خير، ووافق الدواء موضع الشفاء بإذن الله، ولا بد من انتفاء موانع الانتفاع بالخير ليُحدِث الخير أثره في القلب.

قال ابن الجوزي:

«اعلم أن الجوارح كالسواقي توصل إلى القلب الصافي والكدر، فمن كفَّها عن الشر جلت معدة القلب بما فيها من الأخلاط، فأذابتها وكفى بذلك حمية، فإذا جاء الدواء صادف محلاً قابلاً، ومن أطلقها في الذنوب أوصلت إلى القلب وسخ الخطايا وظلم المعاصي، فلما وُضِع الدواء كان بينه وبين القلب حجاب»[2].

وتأثير الذنوب تأثير تراكمي مثل تأثير السموم في جسم الإنسان، إذ لم يصب الإنسان بالسرطان إلا بعد تعرضه بالتراكم لكميات المواد الضارة التي تتراكم مع الزمن ولا تظهر

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٤٧٣.

(٢) التبصرة ٢/ ٢٢٦ – ابن الجوزي.

أعراضها المدمرة إلا بعد مدة قد تصل لسنوات طويلة؛ لذا أوصى المقدسي كل المرضى قائلاً: «فالذي علينا: تفريغ المحل، والانتظار لنزول الرحمة؛ كالذي يُصلح الأرض وينقيها من الحشيش، ويضع فيها البذر، وكل ذلك لا ينفع إلا بمطر، ولا يدري متى يُقدِّر الله أسباب المطر، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى أنه لا يخلِّي سنة من مطر، وكذلك قلما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات، فينبغي أن يكون العبد قد طهَّر القلب من حشيش الشهوات، وبذر الإرادة والإخلاص، وعرَّضه لمهاب ريح الرحمة، وكما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع عند ظهور الغيم؛ كذلك انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة، وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب كيوم عرفة ويوم الجمعة وفي رمضان»[1].

وهو ما دفع كذلك ابن القيم أن يورد فائدة من فوائده بعنوان: قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، فاللسان إذا اشتغل بالكلام الذي لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفع إلا إذا فرَّغ لسانه من النطق بالباطل، وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكنها الشغل بالطاعة، فالعين لا يمكن أن تنظر إلى القرآن وجمال الكون تفكرًا وتأملاً إلا إذا امتنعت عن النظر المحرَّم، والقدم لا يمكنها أن تمشي إلى مكانين في آن واحد، ولابد لها لكي تمشي إلى المسجد أن تنصرف عن الملهى، واليد التي يستعملها صاحبها في الشر لن تجد للخير وقتًا، والأذن الممتلئة بالغناء تأنف من سماع الذكر، والخلاصة أن لا حركة للجوارح في خدمة الله إلا إذا فرَّغها صاحبها من خدمة غير الله.

نزِّه فؤادك عن سوانا والقنا فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا من حَلَّ ذا الطلسم فاز بكنزه

يا أهل الرباط!!

قال بعض الحكماء:

«مثل القلب مثل بيت له ستة أبواب، ثم قيل لك: احذر أن يدخل عليك من أحد الأبواب شيء، فيفسد عليك البيت، فالقلب هو البيت، والأبوا[ب] [اللـ]ـسان، والبصر، والسمع، والشم،

(١) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٧٦.

واليدان، والرجلان، فمتى انفتح باب من هذه الأبواب بغير علم ضاع البيت!»[١].

ولذا كان من حرس قلبه من أعظم الخلق وأزكاهم، وكان عمله هذا نوعًا من أنواع المرابطة في رأي ابن القيِّم الذي عرَّف المرابطة بقوله:

«وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل منه العدو ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور يدخل منه العدو، فيجوس خلال الديار، ويفسد ما قُدِّر عليه فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلي مكانها، فيصادف العدو والثغر خاليًا، فيدخل منها»[٢].

أخي..

قد أقبل عليك الشيطان بخيله ورجله، فوجد قلبك متربِّعًا على عرش الجسد، وأمره نافذ في جميع جنده، قد تحصن بهم يدافعون عنه ويحمون حماه، فلم يتمكنوا من الهجوم عليه إلا بخيانة بعض جنده، فإن ملكوا ثغر العين أو الأذن أو اللسان أو اليد أو الرجل رابطوا عليه، ومنعوا الخير من الدخول، وأغروا كل قبيح بالاقتحام، لتمسي قلوب العباد بين قتيل وأسير وجريح.

وهذه المرابطة حكمها الشرعي أنها فرض عين على كل مسلم؛ كما أوضح ذلك أبو حامد الغزالي فقال: «فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة، وهو فرض عين على كل عبد مُكلَّف، وما لا يُتوصَّل إلى الواجب إلا به فهو أيضًا واجب، ولا يُتوصَّل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة»[٣].

الشيطان أخطر سارق

قال أبو حازم سلمة بن دينار: «قد رضيت من أحدكم أن يُبقي على دينه كما يبقي على نعليه»[٤].

---

(١) رسالة المسترشدين ص ١٧٥.
(٢) الجواب الكافي ص ٦٦.
(٣) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٢.
(٤) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٩.

وهي كلمة قاسية، ولعله يعني بها أن أحدنا إذا دخل المسجد ومعه حذاؤه؛ خاف عليه اللصوص، فوضعه أمامه مخافة أن يُسرق، حتى لا يخرج من المسجد حافي القدمين، فإن حدث ونسي ووضع حذاءه وراء ظهره تشتت ذهنه في صلاته، وضاع خشوعه من أجل حذاء! وكان أول ما يفعل بعد التسليم: أن يلتفت بسرعة إلى مكان الحذاء يطمئن عليه!! وإن حدث وسُرِق حذاؤه وكان غالي الثمن؛ ظل حزينًا مكروبًا أياما عدة حزنا لعل لم يحزن مثله قط لضياع صلاة أو أكل حرام!!

والشيطان سارق الإيمان، فكيف لا يخاف الإنسان على إيمانه؟! وكيف لا يحذر أعدى أعدائه؟! وقد يترك إيمانه وراء ظهره؛ يسرق منه الشيطان ما يريد، وينهب منه كلما شاء، فيا أخي.. إيمانك أم حذاؤك؟! دينك أم نعلك؟! آخرتك أم أحقر ما في دنياك؟!

ثم إنك لو ورثت مالا كثيرًا أو كنزًا ثمينًا، وأودعته بيتك؛ فهل تنسى باب بيتك مفتوحا؟!أم تجعل عليه الأقفال الشداد؟! فهذا كنز إيمانك عبثت به أيدي الغفلة والبطالة وأتباع الشياطين وأنت لم تضع عليه أي قفل؟! أليس أولى بالحراسة وأجدر بالحماية؟!

علم الخير يرفرف

ومع هذا نقول: إن محاولات الشيطان الدائمة للسطو على قلبك واقتحام قلعته هي شهادة لك لا عليك، واعتراف عملي بامتلاء قلبك بالخير واحتوائه على كل غال أغرى الشيطان بالهجوم عليه.

قال رجل للعلاء بن زياد:

إذا صليت وحدي لم أعقل صلاتي. قال: «أبشر!! فإن هذا علم الخير، أما رأيت اللصوص إذا مروا بالبيت الخرب لم يلووا عليه، وإذا مروا بالبيت الذي رأوا فيه المتاع زاولوه حتى يصيبوا منه شيئًا»[1].

والآن مع أول هذه الأبواب وأهمها....

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٤٥.



أسهل باب يتسلل منه الشيطان إلى القلب، بل هو أكثر باب يرتاده الشيطان ويمر خلاله كل يوم، وذلك لأنه أكثر الأعضاء عملاً وأسهلها شغلاً وأقلها تعبًا عندما يعمل، فمن غفل عن حراسة لسانه تسلل الشيطان منه إلى قلبه وسيطر على كيانه، وبعدها ساقه إلى شفا جرف هار.

قال ﷺ: **«أكثر خطايا ابن آدم في لسانه»**[1] لذا وجب حراسة هذا الثغر من أخطائه وزلاته كمًّا وكيفًا.

فاللسان إذن بوابة دخول؛ يدخل إلى القلب عبر اللسان ما يُطهِّره أو ما يدنِّسه، لذا قال ﷺ: **«لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه...»**[2].

ومعنى الحديث: مهما داوم القلب على القربات وتعرَّض لشتى أنواع الأدوية والعلاجات، فلن يطهر أبدًا حتى يزيل ما علق بلسانه من أوساخ، وإلا كانت الجوارح تبني واللسان يهدم؛ لذا تتوسل الأعضاء كل صباح إلى القلب حتى لا يضيع مجهودها سدى وتعبها في سبيل الحق هباء منثورًا، وحتى لا تؤاخذ بجريرة غيرها. قال ﷺ: **«إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفِّر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»**[3].

ومعنى تكفِّر أي تتذلل وتتواضع له من التكفير؛ وهو أن ينحني الإنسان ويطأطيء رأسه قريبًا من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم أحد، والمعنى أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان، لأن اللسان أشد الأعضاء جموحًا وطغيانًا وأكثرها فسادًا

---

(١) حسن: رواه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ١٢٠١.

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن أبي الدنيا في الصمت كلاهما من رواية علي بن مسعدة كما في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم: ٢٥٥٤.

(٣) حسن: رواه الترمذي وابن خزيمة والبيهقي عن أبي سعيد كما في ص ج ص رقم: ٣٥١.

وعدوانًا، ويؤكد هذا المعنى قول الزاهد البصري أبو يحيى مالك بن دينار: «إذا رأيت قساوة في قلبك ووهنًا في بدنك وحرمانًا في رزقك؛ فاعلم أنك تكلمت فيما لا يعنيك»[1].

اختبار القلب

واللسان بوابة خروج كذلك، فيخرج من القلب عبر اللسان ما هو ساكن في القلب ومُحْتَبَس فيه، وما اللسان إلا مغرفة ينقل ما في القلب إلى الخلق، وما أجمل قول يحيى بن معاذ:

«القلوب كالقدور في الصدور تغلي بما فيها ومغارفها ألسنتها، فانتظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه من بين حلو وحامض وعذب وأجاج؛ يُخبرك عن طعم قلبه: اغتراف لسانه»[2].

بوابة الدخول والخروج هي التسمية التي أطلقها يحيى بن معاذ الرازي على اللسان حيث قال: «القلب باب السكينة، واللسان باب القلب، فإذا ضاع الباب؛ دخل من أراد وخرج من أراد»[3].

وكأن وجهه يُطِل عليك عبر القرون ومن وراء السطور، ليهتك أستار خلوتك ويقول لك: حاسب نفسك وأحصِ قولك وراقب كل كلمة تخرج من فؤادك قبل لسانك لتتعرف على هويتك!! لذا وصف عز وجل المنافقين بقوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من أي علامة مرئية، فمهما حاولوا التستر والاختباء والهروب من المواجهة والكيد في خفاء فلسانهم أول فاضح وأوضح الملامح، لامتلاء قلوبهم بالدنس الذي سرى إلى ألسنتهم؛ ولذا قال ابن عطاء:

«كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز».

(١) فيض القدير ١/ ٢٨٦.
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٦٣.
(٣) شعب الإيمان ٤/ ٢٧٣.

من هنا كان اختبار القلب أولى خطوات العلاج وعلى قمة أولويات خطة الاستشفاء، وتكشف نتيجة الاختبار إما عن قلب يمثل خزانة الخير العامرة أو هو مستودع الشر العاتي:

1 خزانة الخير العامرة:

وانظروا إلى يوسف - عليه السلام- وروعة طهارة قلب نبي، وكيف انعكس ذلك على لسانه وحلاوة نطقه وعذوبة كلامه، فقد رمته امرأة العزيز في عرضه زورًا وبهتانًا، واتهم بأشنع تهمة تنال من سمعة المرء وتستهدف شرفه، لكن اسمعوا أطهر قلب وهو يرد على أكذب ادعاء بأسمى رد وأوجز بيان؛ ليس بعريضة دفاع مطولة بل بأربع كلمات فحسب لا غير: ﴿ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ ﴾ [يوسف: ٢٦]، وكان الاختصار والإيجاز هنا لأن الأمر متعلق بشخصه، أما حين تعلق الأمر بربه لما دخل السجن وخاض غمار الدعوة إلى الله؛ انطلق لسانه في طلاقة وإسهاب داعيًا صاحبيه في السجن:

﴿ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

[يوسف: ٣٧-٤٠].

ومرة ثالثة يعلِّمنا أطهر قلب كيف يعف اللسان ويسمو عاليًا فوق السحاب، فبعد أن رماه إخوته في البئر وحاولوا قتله في وحشية نادرة، ما جرحهم بلسانه وما آذاهم بلفظ؛ بل ألقى بالتهمة على الشيطان لائمًا حين قال:

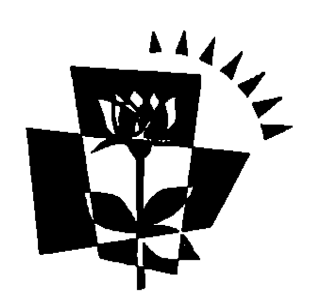
﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

والمراد أن طهارة القلب تجعله يرسل إلى اللسان أجمل الكلم وأطيب الجمل، فيطهر اللسان بعد القلب ليكون صاحبهما أفضل الناس بشهادة النبي ﷺ:

«أفضل الناس كل مخموم القلب صدوق اللسان»(١).

فلابد لبلوغ الأفضلية إذن وإدراك المثالية من طهارة اللسان علامة على طهارة القلب، ويشهد لهذا دعاء النبي ﷺ لعلي، فعن علي بن أبي طالب ﷺ [ت: ٤٠] قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت: يا رسول الله.. تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء!! قال: فضرب بيده في صدري، ثم قال: **«اللهم اهد قلبه وثبِّت لسانه»**. قال: فما شككت بعد في قضاء بين اثنين»(٢).

فانظر كيف لم يكتفِ النبي ﷺ بالدعاء له بهداية القلب حتى ذكر اللسان، وبيَّن أن ثبات اللسان هو قرين هداية القلب أو نتاجها، وظلت هذه الدعوات مباركات وبقي أثرها مع علي ﷺ حتى قال في من قاتلوه ورموه بالكفر من الخوارج: إخواننا بغوا علينا!!



---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عمرو كما في الصحيحة رقم: ٩٤٨، وتتمة الحديث: قالوا: صدوق اللسان نعرفه؛ فما مخموم القلب؟ قال: «التقي النقي؛ لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد»، وفي لسان العرب لابن منظور بتصرف ١٢/ ١٨٩ مادة خمم: خَمَّ البيتَ والبئرَ يَخُمُّهما خمًا واختمَّهما: كنسهما، والاختِمامُ مثله، والمِخمَّة: المِكْنَسَةُ، وخُمامَةُ البيت والبئر: ما كُسِحَ عنه من التراب فأُلقِيَ بعضُه على بعض؛ والخُمامَةُ والقُمامة: الكُناسة وما يُخَمُّ من تراب البئر، وخُمامةُ المائدة: ما ينتثرُ من الطعام فيؤكل ويُرْجَى عليه الثواب، وقلب مَخْموم أي نقي من الغِلِّ والحسد، ورجل مخموم القلب: نَقِي من الغش والدَّغَلِ.

(٢) صحيح: الإرواء حديث رقم: ٢٥٠٠.

2 مستودع الشر العاتي:

وقد يكون القلب مستودع الشر فلا يخرج من القلب عبر اللسان إلا ما يغضب الرب ويصرف الملك ويجلب الأبالسة، وقد سبق وأن حذَّرنا النبي ﷺ من قلب كهذا فقال: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا يَرِيَه، خيرٌ من أن يمتلئ شعرًا**»[١].

وتأمَّل: فالذي يمتلئ هو الجوف أي القلب، وما اللسان إلا رسول مغلوب على أمره ينقل ما يأمره به القلب ويحمل ما يُكلَّف به، أفيُلام الرسول ولا يُلام المُرسِل؟ أو يعاقب الجندي والمسئولية في عنق القائد؟!

ومناسبة مبالغة النبي ﷺ في ذم الشعر أن الذين خوطبوا بذلك كانوا في غاية الإقبال عليه والاشتغال به، فزجرهم عنه ليقبلوا على القرآن وعلى ذكر الله، ومن بين هؤلاء نابغة بني شيبان الذي كان إذا أنشد الشعر قبض على لسانه، ثم قال: «لأسلِطنَّ عليك اليوم ما يسوؤك: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»[٢]، ولكم في ذلك ومضة اقتداء يا عشاق الغناء.

وأنت يا أخي تستطيع في ضوء ما سبق أن تقيِّم حالة قلبك الآن، وأن تحكم عليه وعلى محتواه حياة أو موتًا، وصلاحًا أو فسادًا، وخيرًا أو شرًّا، وقربًا أو بعدًا وكل هذا عن طريق لفظات لسانك، وإذا كان قلبك ليس على ما يرام أو كان من النوع الثاني أي مستودع الشر، فليس لك خلاص ولا عندك مهرب إلا إذا فهمت العبارة التالية ووضعتها موضع التنفيذ:

الحراسة النوعية في ظل التهديد المرعب من الكلمة القاتلة أو السكوت المهلك بالتوازي مع طهارة القلب بكلمة.

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٤٥٥. قال النووي: «المراد أن يكون الشعر غالبًا عليه مستوليًا عليه بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى، وهذا مذموم من أي شعر كان فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه، فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئًا شعرًا». المنهاج ١٥/ ١٤، ومعنى «يريه»: يأكل جوفه ويفسده.

(٢) شعب الإيمان ١/ ٤٣٦.

الحراسة النوعية في ظل التهديد المرعب من الكلمة القاتلة أو السكوت المهلك بالتوازي مع طهارة القلب بكلمة.

الحراسة النوعية في ظل التهديد المرعب من الكلمة القاتلة أو السكوت المهلك بالتوازي مع طهارة القلب بكلمة.

وتكرار العبارة السابقة مقصود، لكي تُكررها نطقًا فتحفظها فهمًا وعملاً، حتى تكبير خطها المتدرِّج متعمد، لأنك كلما قرأتها مرة من بعد مرة زاد فهمك لها ومن بعدها امتثالك وعملك بها، وإليك شرح مفرداتها بالتفصيل:

الحراسة النوعية

واجب هو حراسة ثغر اللسان من فداحة أخطائه أي من زلاته كيفًا، فللسان خطورة تؤدي بصاحبه إلى الهلاك من جراء كلمة واحدة دون أن يشعر!! نعم كلمة واحدة، فرُبَّ حتوف في حروف، وكم من إنسان أهلكه لسان، وكم من كلمة صرخت في وجه صاحبها: لا تقُلني، وفي الحديث: «**إن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟! فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك**»[1]، وفي رواية تفصيلية لنفس الحديث على لسان أبي هريرة ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر، قال: خلِّني وربي، أَبُعثت عليَّ رقيبًا؟ قال: والله لا يغفر الله لك، أو لا**

(١) صحيح : رواه مسلم عن جندب البجلي كما في ص ج ص رقم : ٢٠٧٥.

يدخلك الله الجنة، فقبض الله أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار». قال أبو هريرة: «والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[(١)].

والحديث كما ترى يجمع الترغيب والترهيب في سلة واحدة، فالترغيب يشع من بين ثنايا أن الله غفر للآثم وأحبط عمل من استبعد على رحمة الله أن تسعه، والترهيب في أن الله أحبط سائر عمل رجل بكلمة واحدة.

التهديد المرعب

إن اللسان المعوج قد يحبط صالح العمل ويذهب بسوالف الخير التي كان يعملها صاحبه، بل ويهوي بصاحبه من أعلى منزلة عند الله إلى أن يُطرد من رحمة الله!! واسأل نفسك معي: من الذي يهدَّد في هذه الآية؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

نزلت هذه الآية في الصحابيين الجليلين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- عندما رفعا صوتيهما عند رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه (قدم ركب من تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال عمر: بل أمِّر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١] حتى انقضت)[(٢)].

إنه التهديد المخيف لخير أصحاب النبي ﷺ على الإطلاق، وأول المبشَّرين بالجنة، ومن

---

(١) حسن: رواه أبو دواد في الأدب، وحسنه الألباني في شرح الطحاوية ص ٣١٩.

(٢) صحيح: رواه البخاري (٩/ ١٤٧ فتح).

قال عنهما ﷺ: «هذان السمع والبصر»(١)، بل إن أحدهما هو من قال عنه النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً من أمتي لاتخذت أبا بكر»(٢).

والثاني من قال عنه عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده!! ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك»(٣).

ومع ذلك فلا مجاملة على حساب الدين، وتأمَّل قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ لأن عمل الإنسان قد يحبط وهو لا يشعر، وكم من كلمة أودت بصاحبها من حيث لا يدري.

إنها كذلك لغة التهديد التي طالت أحب الخلق إلى النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، وذلك لما قالت كلمة عن صفية فيها لمسة ازدراء تعيِّرها أنها قصيرة؛ فعرَّفها النبي ﷺ خطورة الكلمة الواحدة وقدرتها على تعكير بحار زاخرة من الأعمال الصالحة، فقال لها: «لقد قلتِ كلمة لو مُزِجت بماء البحر لمزجته»(٤).

لذا قُذِف الرعب في قلب عبدالله بن أبي زكريا من أن تنسف حسناته من جرَّاء كلماته، وتحبط كل أعمال جوارحه بعمل جارحة واحدة، فكابد وجاهد لسانه عشرين عامًا حتى وصل إلى بر الأمان وحرس لسانه بجند الإيمان؛ حتى صار أفضل أهل الشام. شهد له بذلك شيخ الإسلام وعالم أهل الشام الإمام الأوزاعي لما قال: «لم يكن بالشام رجل يفضل على ابن أبي زكريا. قال: عالجتُ لساني عشرين سنة قبل أن يستقيم لي»(٥).

إن هذا التهديد جزء أساسي من علاج اللسان الذي يقذف بسيئ الكلم وفاحش القول صباح مساء، فلابد له من خوف يملؤ القلب ليردعه عن غيه، ويحول بينه وبين إطلاق قذائف الباطل من لسانه.

---

(١) صحيح : رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن حنطب كما في ص ج ص رقم : ٧٠٠٤.
(٢) صحيح : رواه الشيخان عن أبي سعيد الخدري كما في اللؤلؤ والمرجان رقم : ١٥٤١.
(٣) صحيح : رواه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص كما في اللؤلؤ والمرجان رقم : ١٥٥٢.
(٤) صحيح : رواه أبوداود والترمذي عن عائشة كما في ص ج ص رقم : ٥١٤٠.
(٥) الحلية ٥/ ١٤٩.

الكلمة القاتلة

قال رسول الله ﷺ: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النار»**(١).

إنها رحلة السقوط في الجهنم؛ رحلة تستغرق سبعين عامًا!! نعم سبعين عامًا من السقوط المريع إلى قاع النار من جرَّاء كلمة واحدة!! والحديث هنا لم يحدد ما هي هذه الكلمة ليظل القلب دومًا في يقظة، ويحاسب نفسه قبل كل كلمة منكرة، ويراجع سجل كلماته الماضية ليلجم نفسه عن نطق أي كلمة يؤدي إلى المشاركة في الرحلة الجهنمية ذات الأعوام السبعين، واسمعوا كيف فهم التابعي الكبير **علقمة بن وقاص** هذا المعنى فحذر من يحب من حصائد ألسنتهم، وذلك لما مر به رجل له شرف، فقال له **علقمة**: «إن لك رحمًا، وإن لك حقًّا، وإني رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء، وتتكلم عندهم بما شاء الله أن تتكلم به، وإني سمعت **بلال بن الحارث المزني** صاحب رسول الله ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ:

«إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عز وجل له بها من رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عز وجل عليه بها من سخطه إلى يوم يلقاه». قال **علقمة**: «فانظر ويحك ما تقول، وماذا تكلم به، فرُب كلام قد منعني أن أتكلم به ما سمعت من **بلال بن الحارث**»(٢).

ولعل الكلمة التي عناها **علقمة** هنا: كلمة نفاق أو موافقة على باطل أو تزيين لمنكر أو إعطاء ختم الموافقة الشرعية على سلسلة جرائم طاغية، وما أكثر ما نرى هذا في زماننا اليوم وكل يوم.

والقرآن زاخر بنماذج من الكلمات القاتلة كأنها رسالة تحذير وصيحة نذير:

- أحد المنافقين دفعه نفاقه إلى قول: ﴿ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ﴾ [التوبة: ٤٩]، فأتاه الإذن بالهلاك على الفور: ﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾ [التوبة: ٤٩].

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن سليمان بن صرد، وأحمد وأبوداود والترمذي عن معاذ كما في ص ج ص رقم: ٢٤٩١.
(٢) صحيح: رواه ابن ماجة عن بلال بن الحارث كما في صحيح ابن ماجة ٢/ ٣٥٨ والصحيحة رقم: ٨٨٨.

- فرعون لما نطق بكلمته المتكبِّرة: ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف: ٥١]؛ كان عقابه أن أجراها الله من فوق رأسه غريقًا مدحورًا.
- اليهود لما نطقوا كفرًا وقالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ توعَّدهم الله وطردهم من رحمته بقوله: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ﴾[المائدة: ٦٤].

أو السكوت المهلك

لكن الحراسة المشددة ليست على الكلام فحسب، بل على الصمت كذلك إذا كان في موضع يتعيَّن فيه الكلام، لذا يأمر الشيطان جنده بأمرين اثنين لا يبالي بأيهما أهلك القلب، فيقول: «قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضرُّه ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحته عباده أو التكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم؛

أحدهما: التكلم بالباطل، فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

الثاني: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الأول أخ لكم ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع إخوانكم لكم»(١).

طهارة القلب بكلمة!

ولأن رحلة التغيير والتطهير تبدأ من اللسان رأينا عبد الله بن عمر رضي الله عنه يرتِّب أولويات حملة التطهير الشاملة فيقول:

«أحقُّ ما طهَّر العبد: لسانه»(٢).

إن الكلمة الواحدة لها أعظم الأثر في شفاء القلب من أمراضه، نعم كلمة واحدة وحدها

---

(١) الجواب الكافي ٦٩.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣٠٧.

قد تشفي وتكفي؛ لذا أرشد النبي ﷺ رجلاً يغلي قلبه ويقذف الحمم على من حوله في ثورة غضب عارمة، فقال: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد؛ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد**»[١].

فانظر حفظك الله كيف تصنع الكلمة في القلب وتطهِّره وتشفيه، فكل من اختبر قلبه فوجد ما يكره، فعليه سلوك طريق الاستدراك عن طريق لسانه، فيلهج بالقرآن والذكر والاستغفار وليتناول الأدوية اللسانية التي سنعرض لبعضها في فصل: جرعات الدواء.

ليس دواء القلب إذن في الصمت، إنما دواؤه في التكلم بكلمات الخير، والكلمات الخبيثة في القلب المتسللة عبر اللسان لا تزيحها سوى كلمات الخير، ولسانك على ما عوَّدته.

عوِّد لسانك نطق الخير تحظ به … إن اللســـــان لمــا عــوَّدتَ معتاد
مُوَكَّل بتقاضـــي ما سننتَ له … فاختر لنفسك وانظر كيف ترتاد

لكن ما هي كلمات الخير؟! أهي كلمات القرآن والذكر وحدها تشفي الصدور؟!

كلا.. إنها كذلك أي كلمة تفصل بين متنازعين، أو تُصلِح بين اثنين، أو تكشف حقًّا، أو ترد جائرًا، أو تُسكن غاضبًا، أو تُرشد حائرًا، أو تهدي عاصيًا، أو تثبت مؤمنًا، أو تواسي مكروبًا، أو تنصر مظلومًا.

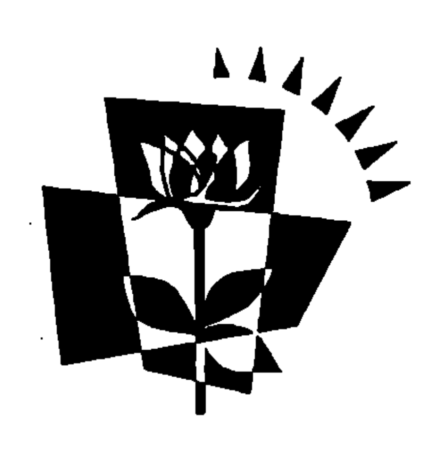
وقد ترتقي هذه الكلمة بصاحبها لتبلغ به أعلى عليين، وترفع صاحبها إلى أعلى مقام، وهو مقام لم يُر النبي ﷺ باكيًا على أحد كبكائه على صاحب هذا المقام، إنه **حمزة بن عبد المطلب** ﷺ الذي قال عنه ﷺ: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»[٢].

فكلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي التي رفعت صاحبها إلى هذا المقام، بل ورفع النبي ﷺ قدر كلمة الحق إلى أن جعلها أحب جهاد إلى الله: «**أحب الجهاد إلى الله: كلمة**

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن سليمان بن صرد، وأحمد وأبوداود والترمذي عن معاذ كما في ص ج ص رقم: ٢٤٩١.
(٢) حسن: رواه الضياء عن جابر كما في ص ج ص رقم: ٣٦٧٥.

حق **تُقال لإمام جائر**»[1]، وكلمة الحق أيضًا هي التي هوت بتاركها إلى أن ألحقته بزمرة الشياطين، فالساكت عن الحق شيطان أخرس.

وهي الكلمة التي كادت تنجي صاحبها من الخلود في النار إن قالها ولكنه أبى، فقد مر عمر ﷺ بطلحة بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال: ما لك كثيبًا؟ أساءتك إمرة ابن عمك؟! قال: لا ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إني لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند موته إلا كانت نورًا لصحيفته، وإن جسده وروحه ليجدان لها روحًا عند الموت**»، فلم أسأله حتى تُوفي. قال: أنا أعلمها.. هي التي أراد عمه عليها، ولو علم أن شيئًا أنجى له منها لأمره[2].



(١) حسن: رواه أحمد والطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ١٦٨.

(٢) صحيح: صحيح ابن ماجة ٢/٣١٨، وإمرة ابن عمك يعني بها خلافة أبي بكر.



الباب الثاني
السمع

السمع أولاً أم البصر؟!

قال بعض العلماء: السمع أفضل من البصر لأنه عز وعلا حين ذكرهما قدَّم السمع على البصر، فقال عز وجل: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]، وقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٤٦] وقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [السجدة: ٩].

وسبب ثانٍ لتفضيل السمع وهو أن الله يحاسب عليه قبل البصر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وسبب ثالث وهو سبب علمي: أن السمع ينشط في الوليد قبل بصره، ولعل هذا من إعجاز السنة النبوية أن توصي بأن يُؤذَّن في أذن المولود اليمنى ويقام في اليسرى فور ولادته ليكون أول ما يدخل سمعه أطهر الكلام وأشرفه.

وسبب رابع هو سبب عقلي: أن السمع يُدرَك به من الجهات الست وفي النور والظلمة، ولا يُدرَك بالبصر إلا من الجهة المقابلة له، وبواسطة من ضياء وشعاع.

لكن شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه- حسم الأمر والنزاع بين السمع والبصر في إيجاز بليغ وتوضيح مبين فقال:

«وفصل الخطاب أن إدراك السمع أعم وأشمل، وإدراك البصر أتم وأكمل، فهذا له التمام

والكمال، وذاك له العموم والشمول، فقد ترجَّح كل منهما على الآخر بما اختُصَّ به»[١].

ما هي الحراسة؟!

والسمع هو ثاني ثغر من حيث الخطورة بعد ثغر اللسان، فهو الثاني في تأثيره على القلب وتحكمه فيه؛ ولذا قال **الحارث المحاسبي**: «وليس من جارحة أشد ضررًا على العبد بعد لسانه من سمعه، لأنه أسرع رسول إلى القلب، وأقرب وقوعًا في الفتنة»[٢].

وحراسة السمع هي باختصار: حراسته من أن يدخل فيه كل ما حُرِّم قوله، قال **سعد القصير**: «نظر إليَّ **عمرو بن عتبة** ورجل يشتم رجلاً بين يدي، فقال لي: ويلك – وما قال لي ويلك قبلها – نزِّه سمعك عن استماع الخنا كما تنزِّه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريك القائل، وإنه عمد إلىٰ شر ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو رُدَّت كلمة جاهل في فيه لسعِد رادُّها كما شقي قائلها»[٣].

ومما أنشدوه في هذا:

وَسَمْعَكَ صُنْ عن سماعِ القبيح ... كصَوْنِ اللسانِ عن النُّطْقِ بِهْ
فإنَّكَ عندَ سماعِ القبيحِ ... شريكٌ لقائِلِه فانتبِهْ

سماع الإشاعة

وممن جعلت على سمعها جندًا ذا بأس شديد ووضعت عليه حراسة مشدَّدة **زينب بنت جحش** رضي الله عنها، واسمع خبرها من أم المؤمنين **عائشة** وهي تروي حادثة الإفك:

قالت **عائشة** رضي الله عنها: «سأل رسول الله ﷺ **زينب بنت جحش** عن أمري: ما علمت؟ أو ما رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرًا.

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٧٨.
(٢) رسالة المسترشدين ص ١٨١ – دار السلام- الطبعة العاشرة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
(٣) العقد الفريد ٢/ ٢١٠.

قالت عائشة: وهي التي كانت تُساميني من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، قالت: وطفقت أختها حمنة تُحارِب لها، فهلكت فيمن هلك»(١).

ومعنى تُساميني: تعاليني من السمو، وهو العلو والارتفاع، أي تطلب من العلو والرفعة والحظوة عند النبي ﷺ ما أطلب، أو تعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده، فانظر إليها رحمك الله مع ما كان بينها وبين عائشة من الغيرة والمنافسة وشدة التسابق نيلاً للحظوة عند رسول الله، لكنها تقية حمت سمعها وبصرها من كل سوء، وأبت أن تطلب مكانة عالية بعمل دنيء، أما أختها حمنة فأخذت تردد ما قاله أهل الإفك لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مكانة أختها زينب، فهلكت بإثمها واستحقت إقامة حد القذف عليها.

إن سماع الإشاعة ثم نقل الأخبار دون تثبت هو الذي أدَّى بحمنة إلى جلدها ثمانين جلدة، وإن النفس تميل بطبيعتها إلى حب سماع الأخبار وتلتذ بذلك، وهو ما يجب أن يدفع صاحب الكلمة إلى الحذر الشديد من صحتها قبل أن النطق بها؛ لأن جيشًا من البشر سيسمع ما قال وينقل عنه؛ ليتضاعف بلاء المتكلم إن كان كاذبا، وقد نجحت زينب فيما فشلت فيه أختها، وهل عُذِّب مروِّج الإشاعة في قبره إلا لأن غيره سمع ثم نقل؟! ففي الحديث الذي وصف عذاب القبر: «فإذا رجل جالس ورجل قائم على رأسه بيده كلوب من حديد، فيُدخله في شدقه فيشقه حتى يخرجه من قفاه، ثم يُخرجه فيُدخله في شدقه الآخر، ويلتئم هذا الشِّدق فهو يفعل ذلك به»، فلما سأل عن ذلك قالا: «أما الرجل الأول الذي رأيت فإنه رجل كذَّاب يكذب الكذبة، فتُحمل عنه في الآفاق، فهو يُصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء»(٢).

فكل مجلس يدعوك لحرام أو مقدِّمات حرام أو يتعرَّض فيه سمعك لغيبة أو نميمة، أو يُذبح فيه الإيمان على موائد الغفلة؛ فاعلم أنه ما هو إلا مؤامرة كبرى من الشيطان يستهدف بها غزو قلبك عن طريق ثغر السمع وأنت من الغافلين، والمطلوب منك على وجه السرعة أن توصد الباب أمامه، فإن لم تقو على ذلك؛ فغادر مسرح الجريمة في الحال، وانجُ بقلبك.

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٧٦٣.
(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن سمرة كما في ص ج ص رقم: ٣٤٦٢.

حين ينام الحرّاس!!

وفوق ذلك أن الله سوّى بين مستمع الكذب وآكل السحت، فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٢]، والسر في شدة التحذير من عاقبة سماع السوء هو أن الكلمة تنغرس في القلب باستماعها حتى إنها لتنبعث أثناء الصلاة أو الذكر من حيث لا يدري العبد أو يحتسب، فوقوع الأقوال في الأسماع أشبه بوقوع البذور في الأرض؛ لا بد أن تنبت وتتفرع عروقها وأغصانها ولو بعد حين.

وفي ذلك يقول شيخنا علي الطنطاوي:

«وكذلك كل ما تسمعه لا سيما إن سمعته في الصغر، إنه بذرة خير أو بذرة شر، إذا وجدت الظرف المناسب وضَعَتك على طريق الجنة أو سبيل النار، فانتبهوا - يا أيها القراء - لما تنظرون فيه من كتب ومجلات، وما تسمعونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة، أو إسدال الستار على المسرحية، إن بعضه يبقى ما بقيت الحياة»[1].

وصدق رحمه الله، إن الكلمات طيبة كانت أم خبيثة يبقى بعضها مع الإنسان حتى يموت، فكم من كلمة طيبة وموعظة هادية سمعها المرء منا وظل يذكرها طوال حياته، فانتشلته في ساعة غفلة، وعصمته من غشيان خطيئة، وأنقذته من الوقوع في كبيرة في وقت كان أحوج ما يكون فيه إلى الوقاية والحفظ، فكان سماع هذه الكلمة له: طوق النجاة وإكسير الحياة.

ومن أمثال هذه الكلمات المنجيات الهاديات الباقيات ما سبق وانطلق من لسان علي بن أبي طالب ﷺ فأصاب قلب الفرزدق الشاعر في لحظة صفاء عن طريق أذنه، وذلك حين وفد الفرزدق على علي بن أبي طالب ﷺ ومعه ابنه، فقال له علي: يا أبا الأخطل!! من هذا الذي معك؟! قال: ابني وهو شاعر. قال: علِّمه القرآن فهو خير له من الشعر، فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيَّد

(١) ذكريات الشيخ علي الطنطاوي ١/ ٧٤ - ط ٢ - دار المنارة ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م.

نفسه، وآلى على نفسه أن لا يحلَّ قيده حتى يحفظ القرآن، فحفظه في سنة!![1].

وهو ما يُشعل نار الغيرة في قلب كل داعية ويستفزه لئلا يبخل بأي كلمة طيبة فلعل فيها الفتوح، وفي المقابل قد يكون سهم الكلمة الخبيثة قد رشق في القلب، وصار مؤثرًا باقيًا ناشرًا سمه طوال الحياة وحتى المهات، مما قد يؤدي والعياذ بالله إلى سوء الخاتمة، وإن السُمَّ في الطعام ربما بقي أثره زمنًا ثم يزول، وقد يرفضه الجسم بقيء ونحوه، بل وقد يتناول الإنسان من الدواء ما يزيل أثره في الجسم، أما الكلام فربما لا يزول أثره مهما فعلت، واسمع القصة من ابن القيِّم وهو يحكي قصة محتضر:

«وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريق إلى حمام منجاب؟! وهذا الكلام له قصة، وذلك أن رجلاً كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابها يشبه باب هذا الحمام فمرت به جارية لها منظر، فقالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟! فقال: هذا حمام منجاب، فدخلت الدار ودخل وراءها، فلما رأت نفسها في داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه، وقالت خدعة منها له وتحيُّلاً لتتخلص مما أوقعها فيه وخوفًا من فعل الفاحشة: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها، فأخذ ما يصلح ورجع، فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه في شيء، فهام الرجل وأكثر الذكر لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة، ويقول:

يارب قائلة يومًا وقد تعبت ... أين الطريق إلى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته:

هلا جعلت سريعًا إذ ظفرت بها ... حرزًا على الدار أو قفلاً على الباب

فازداد هيمانه واشتد هيجانه، ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا»[2].

---

(١) المستطرف ١/ ٤٢، ٤٣.

(٢) الجواب الكافي ص ١١٧.

الهجوم المبارك أو سماع الحق

والمقصود به أن تفتح سمعك لآيات القرآن، وبركات الذكر، وفيوض المواعظ الربانية، وسلسبيل الأحاديث النبوية، فتطرب أذنك حين تسمع كلمة تدل على هدى أو تعصم من ردى، لكن القلوب مع سماع الحق ليست على درجة واحدة، بل إن سماع القلوب للحق «على ثلاثة أنواع:

سماع إدراك بحاسة الأذن، وسماع فهم وعقل، وسماع إجابة وقبول، والثلاثة في القرآن فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١٢]، وقولهم: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾[الروم:٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[فاطر:٢٢]، فالتخصيص هنا لإسماع الفهم والعقل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون أي ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا؛ لأن في قلبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم من الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٥١]، فإن هذا سماع قبول وإجابة مثمر للطاعة»[1].

وسماع القبول والإجابة يشمل النوعين اللذين قبله وهما سماع الإدراك وسماع الفهم،

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٨٣-٤٨٤ بتصرف.

وليس سماع الإدراك بشيء فإن البهائم تسمع والكفار يسمعون، وليس سماع الفهم وحده بشيء فإن قساة القلب يفهمون لكن لا يعملون، لكن سماع القبول والإجابة وحده هو ما يثقِّل الميزان ويدل على حياة قلبك واستمرار سريان النبض فيه، ويأتي سماع القبول والإجابة عندما تصادف الكلمة المسموعة لحظة خشوع أو حالة إنابة أو موقف انكسار من ذنب أو حتى مجرَّد توفيق إلهي خفي أو لطف جلي مُسبَّبًا أو غير مسبَّب، وعندها تجد مسام القلب مفتوحة، فيحدث أعظم الأثر، وتتغيَّر أحوال هذا القلب كليًّا من الموت إلى الحياة، ومن الرمم إلى القمم، ويبدو ذلك جليًّا في توبة الإمام **الفضيل بن عياض** إذ كان شاطرًا يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو قوله تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾** [الحديد: ١٦] فلما سمعها قال: بلى يا رب! قد آن، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها قافلة فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، قال: «ففكرت وقلت أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني تُبت إليك وجعلتُ توبتي مجاورة البيت الحرام»[(١)].

وهذا هو الذي كان يدفع سلفنا الصالح إلى سماع النصح وغَرَس فيهم حسن الإصغاء وعدم مقاطعة أحد في حديثه؛ ولو كانوا يحفظون ما يقول لعلهم به ينتفعون وبنوره يستبصرون، فقد ورد عن **عطاء بن رباح** أنه قال: «إن الشاب ليحدثني حديثًا فأستمع له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن تلده أمه»، ومثله في الأدب **سفيان الثوري** الذي قال: «إن الرجل ليُحدِّثني بالحديث قد سمعته قبل أن تلده أمه، فيحملني حسن الأدب أن أنصت وأستمع له»، وبدون هذا لا تكون ذكرى ولا انتفاع ولا تجدي نصيحة ولا خطب: **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾** [ق: ٣٧].



(١) نزهة الفضلاء ٢/ ٦٠٠.

والهجوم المضاد أو سماع الباطل

وفي مواجهة الحراسة المشدَّدة لا يسكت الشيطان بل يُستفزُّ ليقظتك، ويُعِدُّ للهجمة المضادة والهجوم المعاكس، ولن تجد مثله عدوًّا متربصًا وهو ليس أي عدو بل أعدى أعدائك، وعلى هلاكك حريص، وفي إغوائك مثابر؛ لذا يوصي جنده قبل كل معركة وفي كل جولة من جولات الصراع قائلاً:

«امنعوا ثغر الأذن أن يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تُدخِلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه، وتخيَّروا له أعذاب الالفاظ وأسحرها للألباب، امزجوه بما تهوي النفس مزجًا، وألقوا الكلمة، فإن رأيتم منه إصغاءً إليها؛ فزيدوه بإخوانها، فكلما صادفتهم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله أو كلام النصحاء، فإن غُلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك، فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وإفهامه أن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه»[1].

وهو مع هذا يسلك سلوك المراوغة والحيل وليس واضحًا في كيده. قال الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢]، فسمَّاه ربنا زخرفًا وهو القول الباطل الذي يزخرفه صاحبه ويزينه ما استطاع، ثم يلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به، وأكثر الناس تنطلي عليهم الحيل، فيردون الشيء بلفظ ويقبلونه نفسه إذا لبس ثوب لفظ آخر؛ يرفضون الربا ويقبلونه فائدة، ويرفضون الرشوة ويقبلونها هدية، ويرفضون الغيبة ويقعون فيها باسم الموضوعية، ويرفضون الكفر ويغشون حدوده تحت راية حرية الفكر والتجديد.

---

(١) الجواب الكافي ٦٧، ٦٨.

الحرب على جبهتين

ويدخل الشيطان ثغر السمع من طريقين يؤديان إليه، وهما: الشهوة والشبهة، فهما أصل كل فتنة كما قال ابن القيِّم، فكل من لم يوصد باب سمعه اليوم بقفل ثقيل، وترك بابه مفتوحًا أو أغلقه دون إحكام، فقد اشترك مع الشيطان في جريمته وهي سرقة إيمانه عن طريق شهوة أو شبهة، فسرعان ما يغتنم العدو الفرصة فيتسلل مستغلاً هذه الثغرة، ثم تجد بعدها من يشكو أن قلبه لا يخشع في مجالس الذكر، ولا يبكي لما يبكي له غيره!!

وهذان الطريقان لابد لنا من إلقاء مزيد من الضوء عليهما ليظهرا لكل ناشدٍ للصحة والعافية فيحذرهما، وهما:

1 أولا: الشهوة

يا أيها العاشق سمعه قبل طرفه فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانًا، وجيش العشق قد يدخل القلب من باب السمع قبل أن يدخلها من باب البصر.

قال بشار بن برد:

يا قوم أُذْني لبعض الحيِّ عاشِقَةٌ والأذن تَعشَقُ قبل العين أحيانًا

وأنا أزيد فأقول: والوصف يحرك من الشوق أغصانًا وأفنانًا؛ لذا قال غيره:

ما كنت أعلم والضمائر تُصدِّق أن المسامع كالنواظر تعشق

وهل اشتاق المؤمنون إلى الجنة وما رأوها إلا لأنهم سمعوا عن جمالها وغاية نعيمها؟! وهل ذابت قلوب المحرومين من زيارة الديار المقدَّسة شوقًا إلى رؤية البيت الحرام إلا لأنهم سمعوا أوصافه ممن رآه وعاينه؟!

ولارتباط السمع بفتنة الشهوة نهى الله نساء النبي ﷺ عن الخضوع بالقول فقال: ﴿ إِنِ

﴿ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والخضوع حقيقته التذلل، وأُطلق هنا على رقة القول واللين والتكسر فيه لمشابهته إياه.

قال الألوسي: «لذا رُوي عن بعض أمهات المؤمنين أنها كانت تضع يدها على فمها إذا كلمت أجنبيًّا تغير صوتها بذلك خوفًا من أن يسمع رخيمًا لينًا، وعُدَّ إغلاظ القول لغير الزوج من جملة محاسن خصال النساء جاهلية وإسلامًا»(١).

وقد أرشد الله زوجات نبيه ﷺ إلى هذا الخلق دلالة على تفضيلهن وإعلاء قدرهن؛ بإرشادهن إلى دقائق الأخلاق التي قد تمنع الغفلة من مراعاتها لخفاء الشعور بآثارها، فإن في كلام النساء رقة طبيعية، وقد يكون لبعضهن من اللطافة والحسن والجمال ما إذا انضم إلى لينها الطبيعي الخلقي تضاعف البلاء ضعفين، وكان كلامها أقتل من السيف، وظن من يحادثها من الرجال أنها تميل إليه وتتودد له، فعشقها من صوتها، وهواها من كلامها، وربما اجترأت نفسه على مغازلتها، وبدرت منه بادرة تخدش حرمة المرأة المسلمة، فكيف بأزواج النبي ﷺ وهن أمهات المؤمنين.

ولارتباط السمع بفتنة الشهوة نهي النبي ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»(٢)، والمباشرة هي الاطلاع على بدنها مما يجوز للمرأة أن تراه ولا يجوز أن يراه الرجل، وقوله «**كأنه ينظر إليها**» دلالة على دقة الوصف وكثرة الإيضاح.

وهذا باب عظيم وأصل أصيل في سد الذرائع، فإن الحكمة من هذا النهي خشية أن يُعجِب الزوج الوصفَ المذكور، فيُؤدي ذلك إلى تطليق الواصفة أو الافتتان بالموصوفة، وذلك من جرَّاء السماع فقط وقبل الرؤية.

ولارتباط السمع بفتنة الشهوة حرَّم الله سماع الغناء الذي يؤجج الشهوة ويجلب الحسرة، وحتى الاستماع للأناشيد والكلمات التي لا فحش فيها ولا سوء؛ إذا جاوز حده حتى انشغل بها صاحبها وصار الترنم بها في خلواته بديلاً عن الترنم بآيات القرآن؛ أضرَّت في هذه الحالة وأدَّت

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٢٢/ ٥.
(٢) صحيح: رواه البخاري وأحمد وأبوداود والترمذي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٧١٧٩.

عكس المطلوب منها، وقد أجمع علماء القلوب أن طول الاستماع إلى الباطل يطفئ حلاوة الطاعة من القلب؛ ولذا يعمد الشيطان دومًا إلى أن يُلقِي في قلب المريض حب الغناء وترديده والتعلق به ليصرف عنه أنوار القرآن وحلاوة الذكر، ومن هنا قرَّر عبد الله بن مسعود ﷺ في وضوح: «الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»[1].

قال عدو الغناء المحرَّم الإمام ابن القيِّم:

«للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق ونباته فيه كنبات الزرع بالماء، فمن خواصه: أنه يُلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا لما بينهما من التضاد، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغي وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله، ويُحسِّنه ويُهيِّج النفوس إلى شهوات الغي، فيثير كامنها ويزعج قاطنها ويُحرِّكها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان، فإنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وحليفه وخدينه وصديقه، عَقَد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذي لا يُفسخ، وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تُنسخ.

وهو جاسوس القلب وسارق المروءة وسوس العقل، يتغلغل في مكامن القلوب، ويطلع على سرائر الأفئدة، ويدب إلى محل التخيل، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرقاعة والرعونة والحماقة، فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار الإسلام وحلاوة القرآن؛ فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله وقلَّ حياؤه وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه وتخلى عنه وقاره وفرح به شيطانه وشكا إلى الله تعالى إيمانه وثقل عليه قرآنه، وقال: يارب لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحد، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، وأبدى من سره ما كان يكتمه، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب»[2].

---

(١) العلل ومعرفة الرجال ٢/ ٧٦.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٢٤٨، ٢٤٩.

2 ثانيًا: الشبهة

روى أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«يوشك الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ثم ليتفُل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ من الشيطان»[١].

قال أبو هريرة: «فوالله إني لجالس يومًا إذ قال لي رجل من أهل العراق: هذا الله خلقنا فمن خلق الله. قال أبو هريرة: «فجعلت أصبعي في أذني، ثم صحت: صدق رسول الله.. الله الواحد الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»[٢].

ولذا حذَّرنا السلف المبارك من نقل أي بدعة تثير غبار الشبهات في سماء القلب الصافي، فقال سفيان الثوري: «من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه لا يلقيها في قلوبهم»[٣].

وتواصوا جميعًا بذلك فلم يشذ منهم واحد، فهذا طاووس وكان جالسًا وعنده ابنه، فجاء رجل من المعتزلة، فتكلم في شيء، فأدخل طاووس أصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع، وقال: يا بني.. أدخل أصبعك في أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئا، فإن هذا القلب ضعيف، ثم قال: أي بني!! اسدد، فما زال يقول اسدد حتى قام الآخر[٤].

وسدُّ الأذن كان من هؤلاء العلماء الأجلاء مع ما كانوا فيه من حياة القلب وقوة الإيمان وعمق اليقين، فكيف بمن هو دونهم في العلم والتقوى والاجتهاد؟!

إن من الخطورة البالغة أن يعطي المرء سمعه للشبهات التي تنسف الدين وتدع الحليم حيران، وتعلَّم الدرس أخي المبتدي الذي يريد أن يهتدي من محمد ابن سيرين وهو أورع أهل زمانه الذي قيل فيه: ما رأينا رجلاً أفقه في ورعه، ولا أورع في فقهه من محمد بن سيرين؛ ولذا كان من تمام فقهه وورعه معًا أنه لما جاءه رجل، فذكر له شيئًا من القدر، فقال محمد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(١) حسن: رواه أبو داود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٨١٨٢.
(٢) تلبيس إبليس ص ٤٤٥.
(٣) الحلية ٧/ ٣٤.
(٤) تلبيس إبليس ص ٢٩.

﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. قال: ووضع إصبعي يديه في أذنيه، وقال: إما أن تخرج عني وإما أن أخرج عنك. قال: فخرج الرجل. قال: فقال **محمد**: «إن قلبي ليس بيدي، وإني خفت أن ينفث في قلبي شيئًا، فلا أقدر على أن أخرجه منه، فكان أحب إلي أن لا أسمع كلامه»(١).

وسواء كان الشيطان قائدًا في طريق الشهوات أو طريق الشبهات، فكلاهما داخل في حديث النبي ﷺ:

«والأذنان زناهما: الاستماع»(٢).



أ

---

(١) الطبقات الكبرى ٧/ ١٩٧.

(٢) صحيح: رواه أبو داود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥١٦١.



الباب الثالث
القدمــان

قلّد طريقة مشيه؟!

كان من صفات مشيه ﷺ أنه (كان يمشي مشيًا يُعرَف فيه أنه ليس بعاجز ولا كسلان)[1].

تعلم كيف كان يمشي ﷺ؟!

ومن صفات مشيه أنه (كان إذا مشى تقلع كأنما ينحدر من صبب)[2]، أي من موضع منحدر من الأرض، فهو يرفع رجله عن قوة وجلد، والمراد به مشي السرعة والهمة والنشاط، وليس أي مشي، فالماشي قد يكون متباطئًا أو مترددًا، لكن مشي قمة أولي العزم من الرسل كان من نوع آخر، فهو مشي العزم الذي لا يعرف الوهن، والثقة في صحة الوجهة والطريق التي لا يعتريها أدنى شك، والتصميم على بلوغ الهدف الذي لا يهدأ حتى يبلغ الغاية، فلا تواني ولا توقف بل ولا حتى التفات: (كان إذا مشى لم يلتفت)[3]لأن من يلتفت لا بد له من توقف ولو أدنى توقف، وطاقة العزم النبوي لا تقبل مثل هذا ولو في مشيها.

أخي.. إن قدمك هي مركبك الذي تركبه ليسير بك نحو الخير أو الشر، أو السفينة التي تبحر بها في بحر الحياة المتلاطم الأمواج لترجع محملاً ببضائع الصالحين او سلع البطالين، فيا ساعيا بقدمه إلى ما حرَّم الله: أفهم أن يسافر الإنسان في تجارة يرجو ربحها ويخشى كسادها، أما أن يسافر في رحلة خسارتها معروفة قبل أن تبدأ، فما هذا بتاجر، إنما غِرٌّ لا يعلم فن التجارة، أو أحمق وضعوا بين يديه كومة ذهب وطلبوا إليه التخلص منها!!

---

(١) حسن: السلسلة الصحيحة رقم: ٢١٤٠.
(٢) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٠٨٣.
(٣) صحيح: رواه الحاكم عن جابر كما في ص ج ص رقم: ٤٧٨٦.



ثماني خطوات باليمين

وهي الخطوات التي تمشي بها قدمك نحو الخير، وما أكثر سبل الخير التي تستطيع أن تسلكها قدمك..

☑ **فهي تمشي** في حاجة مسلم واقعة تحت إغراء الثواب في قول رسول الله ﷺ:

«ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله تعالى قدمه يوم تَزِلُّ الأقدام»(١)، فلما حرَّك قدمه في قضاء حاجة هذا العاجز جازاه الله بمثلها وهو ثباتها على الصراط يوم تزل الأقدام، وقد حذَّر بعض السلف من التأخر عن هذا الفضل وهدَّدوا بأن (من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته)(٢).

☑ **أو تمشي** في عيادة مسلم لتجد الله عنده، فتسأله ما تشاء وتنال منه الكرامة والثواب، وتنهمر عليك من الرحمات فوق ما يخطر ببالك. قال ﷺ: **«إذا عاد الرجل أخاه المسلم مشى في خرافة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان عشيًّا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح»**(٣).

☑ **أو تمشي** في أعقاب جنازة لتخشع وتتعظ. قال ﷺ: **«من تبع جنازة حتى يصلي عليها كان له من الأجر قيراط، ومن مشى مع الجنازة حتى تُدفن كان له من الأجر قيراطان، والقيراط مثل أحد»**(٤).

☑ **أو تمشي** إلى مسجد ويا حبذا لو كان بعيدًا لتكثر الخطى وتتتابع، واحدة تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة، لتجد كل ذنوبك قد نُسفت مع أول خطوة تطأ بها عتبة بيت الله. قال ﷺ: **«من توضأ للصلاة فأسبغ الوضوء، ثم مشى إلى الصلاة المكتوبة، فصلاها مع الناس غفر الله له ذنوبه»**(٥)، وكلما زادت المسافات تكاثرت الحسنات: **«أعظم الناس أجرًا في**

---

(١) حسن: رواه الطبراني وابن أبي الدنيا عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ١٧٦.
(٢) إغاثة اللهفان ٢/ ١٩٥.
(٣) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن علي كما في ص ج ص رقم: ٦٨٢.
(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن البراء ومسلم وابن ماجة عن ثوبان كما في ص ج ص رقم: ٦١٣٤.
(٥) صحيح: رواه أحمد ومسلم والنسائي عن عثمان كما في ص ج ص رقم: ٦١٧٣.

الصلاة أبعدهم إليها ممشى»(١).

هذا في صلاة الفرض، فماذا عن النافلة؟! اسمع واطرب: قال ﷺ: «**من مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة، ومن مشى إلى صلاة تطوع فهي كعمرة نافلة**»(٢).

☑ **أو تمشي** المشية الأسبوعية المباركة التي تضاعف أجرك فوق الخيال، وهي مشيك إلى صلاة الجمعة، والخطوة منها بعبادة سنة!! قال ﷺ:

«**من غسَّل يوم الجمعة واغتسل، ثم بكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام، واستمع وأنصت ولم يلغُ؛ كان له بكل خطوة يخطوها من بيته إلى المسجد عمل سنة أجر صيامها وقيامها**»(٣).

☑ **أو تمشي** في زيارة أخ لك في الله لتأنس به وتتواصى معه بالحق والصبر طامعا في جائزة هذا الحديث: «**زار رجل أخًا له في قرية، فأرصد الله له ملكًا على مدرجته، فقال: أين تريد؟ قال: أخًا لي في هذه القرية، فقال: هل له عليك من نعمة تربها؟ قال: لا إلا أني أحبه في الله. قال: فإني رسول الله إليك أن الله أحبك كما أحببته**»(٤).

☑ **أو تمشي** في دعوة الخلق وهداية الناس حتى تكل قدماك ويبلى حذاؤك!! واسمع تفتيش أستاذنا الراشد على كتيبة الدعاة في ابتداء سيرهم في طريق الدعوة، فقال حفظه الله:

«وقد كنت في الأيام الخوالي ألاطف إخواني فأفتِّش على أحذيتهم! ليس على نظافتها وصبغها ورونقها كالتفتيش العسكري، بل على استهلاكها وتقطُّعها والغبار الذي عليها، وأقلبها فأرى النعل، فمن كان أسفل حذاؤه مهترئًا تالفًا فهو الناجح، وأقول له: شاهدك معك: حذاؤك يشهد لك أنك تعمل وتغدو في مصالح الدعوة وتروح، وتطبِّق قاعدة:

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي موسى وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ١٠٦٥.
(٢) حسن: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في ص ج ص رقم: ٦٥٥٦.
(٣) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والأربعة عن أوس بن أوس كما في ص ج ص رقم: ٦٤٠٥.
(٤) صحيح: رواه البخاري في الأدب ومسلم وأحمد عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٣٥٦٧. قال الغزالي: زيارة الإخوان في الله من جواهر عبادة الله وفيها الزلفة الكريمة إلى الله مع ما فيها من ضروب الفوائد وصلاح القلب لكن بشرطين: أحدهما: أن لا يخرج إلى الإكثار والإفراط. الثاني: أن يحفظ حق ذلك بالتجنب عن الرياء والتزين وقول اللغو والغيبة ونحو ذلك. فيض القدير ٤/ ٦١.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وبكثرة حركتك تلِف حذاؤك، فأنت المجتاز المرضي عندي»[١].

☑ **أو تمشي** لترتقي ذروة سنام الإسلام جهادًا في سبيل الله. قال ﷺ: **«ما اغبرَّت قدما عبد في سبيل الله إلا حرَّم الله عليه النار»**[٢] وعندما صدَّق الناس هذا الحديث وترجموه إلى فعال رأينا إيثار التعب على الراحة واختيار التلذذ بالمشقة والمنافسة في سكب العرق لأن فيه وداع النار وفراق اللهب إلى الأبد. قال **أبو المصبح المقرائي** قال: «بينما نحن نسير بأرض الروم في طائفة عليها **مالك بن عبد الله الخثعمي إذ مرَّ مالك بجابر بن عبد الله** وهو يمشي يقود بغلا له فقال له مالك: أي أبا عبد الله!! اركب فقد حملك الله، فقال جابر: أصلح دابتي وأستغني عن قومي وسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النار»**، فأعجب **مالكا** قوله، فسار حتى إذا كان حيث يسمعه الصوت ناداه بأعلى صوته: يا أبا عبد الله!! اركب فقد حملك الله، فعرف **جابر** الذي أراد برفع صوته وقال: أُصلِح دابتي وأستغني عن قومي وسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النار»**، فوثب الناس عن دوابهم، فما رأينا يومًا أكثر ماشيًا منه»[٣].

ولذا حرص رسول الله ﷺ على عدم التأخر عن هذا الخير والمبادرة إليه بنفسه، وهو أن يعفِّر قدمه الشريف في تراب المعركة رافضًا أن ينوب عنه في هذا الشرف أحد، فعن **عبد الله بن مسعود** ﷺ قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير كان **أبو لبابة وعلي** زميلي رسول الله ﷺ، فكانت عقبة رسول الله ﷺ فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما.

وفوات هذا الخير وضياع هذا المشي المبارك هو وحده الذي أبكى **يونس بن عبيد** عند موته لأن الحياة تدب في قلبه، فقد نظر رحمه الله إلى قدميه عند موته فبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبد الله؟! قال: «قدماي لم تغبرا في سبيل الله ع: جل»[٤].

---

(١) صناعة الحياة.

(٢) صحيح: رواه الأربعة عن مالك بن عبدالله الخثعمي كما في ص ج ص ٥٥٤٢.

(٣) صحيح: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١٠/ ٤٣٦. قال: شعيب ؤوط: حديث صحيح.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ٣٠٤.

☑ **أو تجري** بقدميك تتدرَّب بهذا على الجهاد وجولات الكرِّ والفرِّ، ولو كان هذا التدريب بلعب الكرة أو سباق الخيل، بشرط أن تصاحبك نية صالحة كما كان يفعل **نور الدين محمود زنكي** رحمه الله. قال **ابن الأثير**:

«وكان رحمه الله لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة، وكان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس، وكان **نور الدين** يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله ويعتقد فيه اعتقادًا حسنًا، فبلغه أن **نور الدين** يدمن اللعب بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنتُ أظنك تلهو وتلعب وتعذِّب الخيل لغير فائدة دينية، فكتب إليه **نور الدين** بخط يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، إنما نحن في ثغر العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت؛ فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضًا ملازمة الجهاد ليلاً ونهارًا شتاء وصيفًا؛ إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جمامًا لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف في الكرِّ والفرِّ في المعركة، فنحن نركبها ونروِّضها بهذا اللعب، فيذهب جمامها، وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة»[1].

مع أربع وقفات!!

فإن لم تقو قدماك على هذا المشي وعجزت عنه كان الوقوف بديلاً عن المشي، والوقوف نوعان: **نوع سلبي ونوع إيجابي**، أو نوع وقائي ونوع علاجي، فأما **النوع الأول** فهو **السلبي أو الوقائي** فهو الوقوف عن المشي الحرام الذي يقود إلى أماكن السوء ومواطن المعصية، فقدماك قد تقودانك إلى الهاوية دون أن تشعر حين تسلك بك مسالك الشر، وتمضي بك مع صحبة السوء وأهل الغفلة، وتجعلك تتبع خطوات الشيطان حتى تصل إلى البؤرة الفاسدة، وعندها تنهار حراسة بقية الثغور بعد اقتحام ثغر القدم، فالعين تنظر إلى الحرام، واللسان يذكر كل شيء إلا الله، والسمع يصغي إلى كل سوء، والبداية: القدم التي زلت بالجسم وهوت به، وأنت السبب: أطعت قدمك فأهلكْتَ جسدك وتعدَّت آثار الدمار إلى قلبك، ثم

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ص ٣٥.

ترقيت أقصد هويت لتأخذ مكانك بين جند إبليس دون أن تقصد؛ ذلك أن كل من رآك تأثر بك ولعله قلّدك أو نافسك، وهذا ما فهمه مقاتل من قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] حيث قال رحمه الله: «استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس»(١).

وأماالنوع الثاني من الوقوف فهو الوقوف الإيجابي أو العلاجي، وهو ثلاثة أنواع:

☑ **الأول:** أن تقف وقوفًا تؤدي به واجب الشكر الذي سبق وأن أداه رسول الله ﷺ حين نالت قدماه الشريفتان شرف هذه المهمة، حين قام من الليل حتى تفطرت قدماه ممتثلاً أمر ربه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، ففهم أن المراد منه: إذا فرغت في النهار من الدعوة والجهاد فانصب قدميك في الليل بالقيام.

☑ **الثاني:** أن تقف وقوفًا من نوع آخر أكثر صعوبة وأشد وطأة في ميدان قتال وساحة جهاد، ولذلك فهو أعظم أجرا من قيام الليل ولو كان قيام ليلة القدر وفي أطهر بقعة!! قال ﷺ: **«موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود»**(٢).

☑ **الثالث:** أن تقف بقدميك ثباتًا في المعركة لا تتراجع تحت وطأة هجوم عدو وزحفه مستحضرًا قول ربك على لسان المؤمنين وهم يدعون بتثبيت الأقدام: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، مستأنسا بقول نبيك ﷺ: **«ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم: الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل؛ وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا!! كيف صبر لي بنفسه؟...»**(٣).

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٢٠.
(٢) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٦٦٣٦.
(٣) حسن: رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٦٢٩.



الباب الرابع
اليــــدان

أخي.. تستطيع أن تصنع بيدك مفتاح الجنة أو القفل الموضوع على أبوابها ليحول بينك وبين دخولها، وتستطيع أن تنسج بيدك ثوبك الحريري من سندس وإستبرق في الجنة أو ثياب شقوتك من النار، ألا إن أنامل يدك عاملة عاملة، لكن من العمل ما ينفع صاحبه ومنه ما يقتل صاحبه، ويدك هي بداية كل أعمالك ومفتاح كل جوارحك وأعضائك. فهي التي تطعمك رزقك حلالاً كان أو حرامًا، وهي التي تكسوك ثيابك حلالاً كانت أو حرامًا، وهي التي تلبسك حذاءك لتقصد به وجهتك ومرادك حلالاً كان أو حرامًا؛ لذا فهي شريكك في أعمال الخير والشر.

اثنتا عشرة يدٍ عليا

والمقصود باليد العليا هنا هي اليد التي تعمل الصالحات، والمشغولة دومًا في حرث الخير، والتي تعرف طريق الجنة جيدا، وتشهد لك يوم العرض، وتنبري تنافح عنك يوم الحساب.

أخي.. لم لا تجعل ثغر اليد مفتاحًا لكل خير، وتُدخِل منها كل بر، لتنعم بعدها وتتفيأ ظلال مكافأة: **«ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سُرِق منه صدقة، وما أكل السبع فهو له صدقة، وما أكلت الطيور فهو له صدقة، ولا يرزؤه أحد كان له صدقة»**[1].

لم لا تحاول كل زوجة دخول الجنة عن طريق يدها وهو أمر يسير سهل، فما عليها إلا أن تعمل بهذا الوصية: **«ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟ الودود الولود العئود التي إذا**

(١) صحيح: رواه مسلم عن جابر كما في صحيح مسلم ٣/ ١١٨٨.

ظُلِمت قالت: هذه يدي في يدك؛ لا أذوق غمضًا حتى ترضى»[١].

لم لا يحاول كل زوج أن يربح زوجته عن طريق يده، فيناولها اللقمة ويضعها في فمها برقة متناهية ومشاعر متسامية، وهي وصية خير البشر لأهله ﷺ: «**وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجِرت بها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك**»[٢].

أو هي اليد التي ترحم وتعطف وتحنو وترِقُّ، فتسري رقتها إلى القلب الذي يلين ويخشع؛ لذا قال ﷺ: «**إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»[٣].

لم لا تعمل أخي بكلتا يديك في سبيل رزقك، وتتعب حتى تحصِّل أطيب الكسب وألذ الطعام يدفعك إلى ذلك شهادة نبيك الطيبة: «**أطيب الكسب عمل الرجل بيده**»[٤]، لكن لابد مع التعب من إتقان وبراعة، ووفاء بحق الصنعة، وعدم غشٍّ لمسلم أو غير مسلم، وهو معنى قول النبي ﷺ: «**خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح**»[٥].

واسمع خبر **علي بن أبي طالب** ﷺ حين روى عنه **مجاهد** فقال: «**خرج علينا علي بن أبي طالب** يومًا معتجرًا فقال: جعت مرة بالمدينة جوعًا شديدًا، فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرًا تريد بلَّه، فأتيتها فقاطعتها كل ذنوب على تمرة، فمددت ستة عشر ذنوبًا حتى مجلت[٦] يداي، ثم أتيت الماء، فأصبت منه، ثم أتيتها، فقلت بكفي هكذا بين يديها، وبسط **إسماعيل** يديه، وجمعهما فعدَّت لي ستة عشر تمرة، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فأكل معي منها»[٧].

أخي.. لم لا تكتب بيدك كتاب خير، ومن كتب كتاب خير نال أجره وأجر من قرأه في حياته وبعد مماته؛ ولذا قيل: كتاب المرء ولده المخلَّد، وتأمل مؤلفات علمائنا، وكيف كابدوا المشاق في كتابتها التماسًا لثوابها، وأنهكوا أيديهم

(١) حسن: رواه الطبراني عن كعب بن عجرة كما في ص ج ص رقم: ٢٦٠٤.
(٢) صحيح: رواه الشيخان عن سعد بن أبي وقاص كما في اللؤلؤ والمرجان رقم: ١٠٥٣.
(٣) حسن: رواه الطبراني في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ١٤١٠.
(٤) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن رافع بن خديج كما في ص ج ص رقم: ١٠٣٣.
(٥) حسن: رواه أحمد عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٣٢٨٣.
(٦) مجلت يده: إذا ثخن جلدها وظهر فيها ما يشبه البثور من شدة العمل.
(٧) حلية الأولياء ١/ ٧١.

كتابة وأرهقوها حتى وصلنا هذا الخبر حتى قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: «سمعتُ جدي يقول على المنبر في آخر عمره: كتبت بإصبعيَّ هاتين ألفي مجلَّد»، وقال يحيى بن معين: «كتبتُ بيدي ألف ألف حديث».

وصدق من قال منشدًا:

وما من كاتب إلا سيبلى ... ويُبقي الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب يداك كتاب شرٍّ ... يسوؤك في القيامة أن تراه

أخي.. تستطيع كذلك أن تتصدق بيدك ولتكن اليمين، ويتضاعف أجرك أيها الهمام إذا قامت يدك بمهمة أخرى بعد أن حازت شرف التصدق وهي مهمة التخفي! نعم التخفي عن أعين الناس طلبًا لرضا رب الناس، بل والمبالغة في ذلك حتى لا تكاد شمالك تعلم كم أنفقت أختها، وقد توصلك يدك إلى مصافِّ سادة الكرم وأرباب الجود الذين وصفهم الشاعر أحدهم فقال:

فتى جُبلت يداه على العطايا ... كما جُبل اللسان على الكلام

أخي.. لم لا ترفع بيدك راية الجهاد في سبيل الله إن استطعت؟! وتذكَّر كيف ضحَّت ذراعًا جعفر بن أبي طالب ﷺ يوم مؤتة، وقد حمل الراية بيمينه، فقُطِعت فقامت شماله بالمهمة، فقُطِعت، فتناول الراية بعضديه استبسالاً واستماتة حتى استشهد ﷺ، فكافأه الله بما جاء في النشرة الإخبارية النبوية التي أذيعت على جمهور الصحابة على الهواء مباشرة وفي التو واللحظة: «إن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم يطير بهما مع الملائكة»[1].

أو هي اليد التي ترمي في سبيل الله، فلعلها إن فَعَلت دخل صاحبها في دعاء النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص ﷺ: «ارم فداك أبي وأمي»، وقد رمى سعد في غزوة أحد ألف سهم في سبيل الله، فعن علي ﷺ قال: ما رأيت رسول الله ﷺ جمع أبويه لأحد غير سعد بن مالك، فإنه قال له يوم أحد: «ارم سعد فداك أبي وأمي»[2].

---

(١) صحيح: رواه الدار قطني والحاكم عن البراء كما في ص ج ص رقم: ١٧٩٢.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن علي كما في ص ج ص رقم: ٥٧٦٨.

لذا حرص على عبادة الرمي العالم الزاهد إبراهيم بن أدهم، وإن لم يُنقل عنه في كتب السير إلا خطب الوعظ وكلمات النصائح، فإن موعظته الأخيرة كانت موعظة عملية جهادية، وذلك حين حضرته الوفاة سنة ١٦٢هـ، (وذكروا أنه تُوُفِّي في جزيرة من جزائر الروم وهو مرابط،... فلما كانت غشية الموت قال: أوتروا لي قوسي، فأوتروه، فقبض عليه فمات وهو قابض عليه؛ يريد الرمي به إلى العدو)[١].

وكأنه - رحمه الله- أراد إلقاء معنى الجهاد في نفوس الناظرين، بل وفي نفوس أفراد كل جيل مؤمن تبلغه قصة احتضاره وحكايته.

ولعلها تكون رمية مباركة تصيب من العدو مقتلاً، ويتضاعف بها الأثر والنكاية، فيتضاعف الأجر تبعًا لذلك كما حدث للصحابي أبي الغادية الذي رمى بيده سهمًا واحدًا فقتل به ثلاثمائة رومي مرة واحدة!! قال عثمان بن أبي العاتكة: «رمى العدو الناس بالنِّفط، فقال معاوية: أما إذ فعلوها فافعلوا، فكان يترامون بها، فتهيَّأ رومي لرمي سفينة أبي الغادية في طنجير[٢]، فرماه أبو الغادية بسهم، فقتله، وخرَّ الطنجير في سفينتهم، فاحترقت بأهلها، وكانوا ثلاثمائة، فكان يقال: رمية أبي الغادية قتلت ثلاثمائة نفس»[٣].

وليس الرمي رمي السهام فحسب، وإنما كل ما يُحدِث أثر السهام في قلوب الأعداء وينصر الأمة في أي ميدان، ولعل إتقان العمل وجودة الصناعة والتفاني في مختبرات العلم لا يقل أجرًا اليوم عن رمية سهم في نحور العدو.

والمجاهد في سبيل الله بكل شيء يؤجر وبأدنى عمل يؤجر، ولو كان إطعام فرسه بيده أو تزويد معداته بالوقود بلغة عصرنا هذا، وفي ذلك يبشِّر النبي ﷺ كل مجاهد: «من ارتبط فرسًا في سبيل الله، ثم عالج علفه بيده كان له بكل حبة حسنة»[٤].

أخي.. لم لا تميط عن الطريق الأذى بيديك، فتكون أخا لرجل رآه النبي ﷺ في الجنة، فقال مبيِّنًا عمله وموضِّحًا جزاءه وجزاء كل من عمل بعمله من

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٤٥، ١٤٦.
(٢) الطنجير: قِدر نحاسي.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٤٥.
(٤) صحيح: رواه ابن ماجة وابن حبان عن تميم الداري كما في ص ج ص رقم: ٦٠٠٨.

بعده، فقال: «لقد رأيتُ رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»[1].

إنها كذلك اليد التي تصافح المؤمنين لتتناثر الذنوب مع المصافحة، وتتصافح القلوب وتتعانق مع تصافح الأيدي وتشابكها: «إن المؤمن إذا لقي المؤمن فسلَّم عليه وأخذ بيده فصافحه؛ تناثرت خطاياهما كما يتناثر ورق الشجر»[2].

أو هي اليد التي تبايع رسول الله وتمدُّ يدها في صدق ووفاء مستشعرة أنها تبايع الله وتعقد معه سبحانه المواثيق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، ولهذا لما بعث النبي ﷺ عثمان بن عفان ﷺ إلى مكة رسولاً إلى المشركين، وتغيَّب عن بيعة الرضوان أصر النبي ﷺ على أن لا يحرم يد عثمان من هذا الشرف، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، وضرب بها على يده قائلاً: «هذه لعثمان».

وإن فاتنا شرف لمس كف رسول الله ﷺ، إلا أن هذه البيعة باقية وتبعاتها نافذة، وإن كانت بيعة الرضوان بيعة على الموت في سبيل الله، فإن بيعتنا اليوم هي بيعة على الحياة في سبيل الله، ولعلها الأصعب والأشق.

وعشر أيادٍ في السافلين

واليد السفلى هي العابثة في المعاصي المشغولة في حرث الشر التائهة عن طريق الجنة، ولابد للمرء أن يجني ما زرعت يداه.

- فمن استخدم يديه في التخلص من حياته أذاقه الله من نفس الكأس، وأعاد معه جريمته وبنفس الطريقة مالا يُحصى من المرات لكن في الآخرة وطوال مدة مكثه في النار. قال ﷺ: «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار»[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥١٣٤.

(٢) صحيح: الصحيحة رقم: ٥٢٦.

(٣) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٥٤٩٤.

- والذي يخطُّ بيده حرفا في عقد ربا يغضب عليه ربه ويطرده من رحمته ولو كان مجرد شاهد أو كاتب. قال ﷺ: **«لعن الله آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه»**(١).
- والذي يُشهر بيده السلاح في وجه أخيه أصابه أم لم يصبه ملعون حتى يخفض سلاحه: **«إذا شهر المسلم على أخيه سلاحا؛ فلا تزال ملائكة الله تلعنه حتى يشيمه عنه»**(٢).
- والذي يقدِّم بيده مالا لرشوة، والذي يقبل هذه الرشوة كلاهما تظل تطاردهما لعنة الله حتى يتوبا إلى الله ويُقلعا: **«لعنة الله على الراشي والمرتشي»**(٣).

ولذا حرص أصحاب النبي ﷺ على تطهير اليد السارقة بإقامة الحد عليها، حتى سارع من سرق منهم إلى التخلص من يده التي اعتدت، والتبرؤ منها وكأنها ليست منه قبل أن تُدخله النار غدًا، ففي حديث ضعيف الرواية لكنه قوي المعنى عن **عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري عن أبيه** ؓ أن **عمرو بن سمرة ابن حبيب بن عبد شمس** أنه جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله!! إني سرقتُ جملاً لبني فلان، فطهِّرني، فأرسل إليهم النبي ﷺ، فقالوا: إنا افتقدنا جملاً لنا، فأمر به النبي ﷺ، فقُطِعت يده، قال ثعلبة: «أنا أنظر إليه حين وقعت يده؛ وهو يقول: الحمد لله الذي طهَّرني منكِ.. أردتِ أن تدخلي جسدي النار»(٤).

- وأما الخمر، فإن تسع أيادٍ ملعونة بسببها لأنها شاركت من قريب أو من بعيد في هذه الجريمة، واليد وحدها كانت سبب طرد صاحبها من رحمة الله. قال ﷺ: **«لعن الله الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وآكل ثمنها»**(٥).
- وأما المرأة فإن أغراها الشيطان، ونفخ فيها من سحره، فمدَّت يدها لتتزين بما حرَّم الله، فقد طردت نفسها بنفسها من رحمة ربها. قال ﷺ: **«لعن الله الواشمات والمستوشمات،**

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٥٠٨٩.
(٢) حسن: رواه البزار عن أبي بكرة كما في ص ج ص رقم: ٦٣٥.
(٣) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة والترمذي عن ابن عمرو كما في ص ج ص رقم: ٥١١٤.
(٤) ضعيف: رواه ابن ماجة عن ثعلبة الأنصاري كما في ضعيف ابن ماجة رقم: ٥١٠.
(٥) صحيح: رواه أبو داود والحاكم عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ٥٠٩١.

والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحُسن، المغيِّرات خلق الله»[١].

- ولو أن شيخًا أو شابًّا أراد اللهو فامتدت يداه إلى النَّرد فقد ظلم نفسه لأنه عصى ربه: «**من لعب بالنَّرد فقد عصى الله ورسوله**»[٢]، وارتكب بذلك أقبح الجرم الذي وصفه النبي ﷺ وصفًا ينفِّر كل سويِّ الفطرة سليم العقل، ففي رواية مسلم: «**من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه**».

- ولو أن كاتبًا كتب بيده كتابًا يثير فيه شهوة ويشعل فيه غريزة، أو يبث شبهة ويزلزل عقيدة، فستظل صحيفة سيئاته تتلقى يوميًّا وعلى مدار الساعة أكوامًا من السيئات كلما قرأ كتابه قارئ أو وقع في شِراكه غافل، ولا سيما إن كسب هذا الكاتب عليه مالاً: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

إن الكلمة المكتوبة قد تفعل في القلب ما لا يفعله الحسام؛ ولذا قال **حبيب بن أوس الطائي**:

ولضربـــة من كاتب ببنانه أمضى وأقطع من رقيق حسام

قوم إذا عزموا عداوة حاسد سفكوا الدما بأسنة الأقـلام

- يا زناة الأيادي.. ألا تعلمون ما هو زناكم وما خطورة جرائمكم؟! اسمعوا رسول الله ﷺ يقول: «**واليد زناها اللمس**»، وإن كان **معن بن أوس** قد قال:

لعمرك ما أهويتُ كفي لريبة ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

فإن رسول الله ﷺ كان أطهر منه وأطهر من السحاب نفسه؛ لذا فما مست يده يد امرأة لا تحل له قط.

- وقال ﷺ في موضع آخر يصف نوعًا آخر من الزنا لِيُحذِّرنا منه: «**واليد زناها البطش**»، وفي هذه أيضًا بلغ ﷺ القمة فروى عنه **أنس بن مالك** رضي الله عنه أنه: «**ما ضرب ﷺ بيده خادمًا قط ولا امرأة، ولا ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قط؛ إلا أن يجاهد في سبيل الله**»[٣]، ولك في حبيبك خير أسوة يا ناشد الكمال وعاشق الجمال.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والأربعة عن ابن مسعود كما في ص ج ص رقم: ٥١٠٤.

(٢) حسن: رواه أحمد وأبوداود وابن ماجة عن أبي موسى كما في ص ج ص رقم: ٦٥٢٩.

(٣) صحيح: رواه أحمد عن عائشة كما في الصحيحة رقم: ٥٠٧.



اربع نظرات حرام

1 النظرة الأولى: النظرة المتطلِّعة

قال تعالى آمرًا نبيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

جاء في سبب نزول هذه الآية عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: «ضاف النبي ﷺ ضيفًا، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: «**يقول لك محمد رسول الله: أسلفني دقيقًا إلى هلال رجب**». قال: لا إلا بِرَهْن، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته فقال: «**أما والله إني لأمين من في السماء وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه**»، فلما خرجتُ من عنده نزلت هذه الاية: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ إلى آخر الآية؛ كأنه يُعزِّيه عن الدنيا»[1].

ومعنى الآية أي لا تطمح ببصرك إلى زخارف الدنيا طموح رغبة وتمني، وأزواجًا منهم أي أصنافًا من الكفرة وقرناء منهم، فإن ما في الدنيا من أصناف الأموال والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيته مستحقر لا يُعبأ به أصلا، ولا يكون الرجل مادًّا عينيه إلى الشيء إلا إذا أدام النظر نحوه، وإدامة النظر إليه تدل على استحسانه وتمني نواله.

وامتثل النبي ﷺ أمر ربه، ونصح أمته بما عمل به وسار عليه، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) ابن كثير ٢/ ٧٣٤.

«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»[١].

ويالها من وصية شاملة جامعة مانعة، كلماتها قليلة، وفوائدها غزيرة. قال ابن بطال:

«هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدا في زيادة تقربه من ربه.

ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالا منه، فإذا تفكَّر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيُلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده.

وقال غيره: في هذا الحديث دواء الداء لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدًا، ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعيًا إلى الشكر»[٢].

وامتثل عروة بن الزبير ﷺ ما أمر الله به نبيه وما أمر النبي به أمته، فاستراح، فكان إذا رأى شيئًا من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله فدخله وهو يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢]، ثم ينادي بالصلاة: «الصلاة يرحمكم الله»[٣].

الحسرة والخطأ والغزو

وحين خالف ابن عون هذه الوصية ونظر إلى من هو أعلى منه دنيا؛ صنع حسرته بنفسه وأورد نفسه موارد ندمه، فقال رحمه الله: «صحبتُ الأغنياء فلم أر أحدًا أكثر همًّا مني، أرى دابة خيرًا من دابتي، وثوبًا خيرًا من ثوبي، وصحبتُ الفقراء فاسترحت»[٤].

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ١٥٠٧.
(٢) فتح الباري ١١/ ٣٢٣.
(٣) القرطبي ١١/ ٢٣٣.
(٤) فيض القدير ٢/ ٧٣.

وفوق الحسرة والندامة يكون الإثم والخطأ إذا كان المنظور إليه على خطأ ومعصية ولم تنكر عليه، فهذا **سفيان الثوري** وكان قاعدًا بالبصرة يومًا فقيل له: هذا **مساور بن سوار يَمُرُّ**، وكان على شرطة **محمد بن سليمان**، فوثب فدخل داره، وقال: «أكره أن أرى من يعصي الله ولا أستطيع أن أغيِّر عليه»[١]، وتبعه على الدرب **الفضيل بن عياض** الذي أصدر أمرًا صريحًا لمن أحب ممن يعرف وممن لا يعرف:

«لا تنظروا إلى مراكبهم، فإن النظر إليها يطفئ نور الإنكار عليهم»[٢].

وفوق الإثم والخطأ كذلك تكون الثالثة، وهي أن الدنيا تغزو قلبك ويزيح همها همَّ الآخرة من صدرك على إثر إدامة النظر إلى من هو أغنى منك، فلا يبقى للآخرة في القلب متنفس أو موضع قدم، وهو ما قرَّره **أبو سليمان الداراني** حين قال:

«إذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحَّلت الآخرة منه، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تجئ الآخرة تزحمها؛ لأن الدنيا لئيمة والآخرة عزيزة»[٣].

العدوى تنتشر!!

واسمعوا كيف يفسد الخليل خليله، ويُعدي الصاحب صاحبه في هذا الشأن:

عن **عثمان بن عطاء** عن أبيه قال: «كان **أبو مسلم الخولاني** إذا انصرف إلى منزله من المسجد كبَّر على باب منزله فتُكبِّر امرأته، فإذا كان في صحن داره كبَّر فتجيبه امرأته، وإذا بلغ باب بيته كبَّر فتُجيبه امرأته، فانصرف ذات ليلة فكبَّر عند باب داره فلم يُجبه أحد، فلما كان في الصحن كبَّر فلم يُجبه أحد، فلما كان عند باب بيته كبَّر فلم يُجبه أحد، وكان إذا دخل بيته أخذت امرأته رداءه ونعليه ثم أتته بطعامه. قال: فدخل البيت، فإذا البيت ليس فيه سراج، وإذا امرأته جالسة في البيت منكسة تنكت بعود معها، فقال لها: مالك؟! قالت: أنت لك منزلة من معاوية وليس لنا خادم فلو سألته فأخدمنا وأعطاك، فقال: اللهم من أفسد عليَّ

---

(١) الورع ص ٦٧.
(٢) الورع ١/ ٦٧، ٦٨.
(٣) حلية الأولياء ٩/ ٢٦٠.

امرأتي فأعمِ بصرها. قال: وقد جاءتها امرأة قبل ذلك، فقالت لها: زوجك له منزلة من معاوية، فلو قلت له يسأل معاوية يخدمه ويعطيه عشتم. قال: فبينا تلك المرأة جالسة في بيتها إذ أنكرت بصرها، فقالت: ما لسراجكم طُفئ؟ قالوا: لا فعرفت ذنبها، فأقبلت إلى أبي مسلم تبكي وتسأله أن يدعو الله عز وجل لها أن يرد عليها بصرها. قال: فرحمها أبو مسلم، فدعا الله لها، فردَّ عليها بصرها»[1].

2 النظرة الثانية: النظرة الخائنة

لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح[2]، فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان ﷺ، فلما دعا النبي ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله.. بايع عبد الله، فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثًا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله، فقالوا: ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟! ألا أومأت إلينا بعينك، فقال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة أعين»[3].

وخائنة العين هو أن يُضمر الإنسان في قلبه غير ما يُظهر للناس، فإذا كفَّ أحد لسانه وأومأ بعينه بخلاف ذلك فقد خان، وإذا أطلق لسانه بحلو الحديث عن أحد وأومأ بعينه بعكس ذلك من ورائه فقد خان، فلابد للعين من أن تُوافق القلب وإلا كانت خائنة.



(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٩، ١٣٠.

(٢) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري أبو يحيى أخو عثمان من الرضاعة، ولاه عثمان مصر، وكان بطلاً شجاعًا مذكورًا، وكان أمير غزوة ذات الصواري من أرض الروم غزاها في البحر، فالتقى الروم وكانوا في ألف مركب فتلهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها، ولما احتضر قال: اللهم اجعل آخر عملي صلاة الصبح، فلما طلع الفجر توضأ وصلى، فلما ذهب يسلم عن يساره فاضت نفسه. تاريخ الإسلام بتصرف.

(٣) التمهيد ٦/ ١٧٦.

3 النظرة الثالثة: النظرة المتلصصة

قال ﷺ: «من اطلع في بيت قوم بغير إذن ففقؤوا عينه فلا دية له ولا قصاص»[(١)].

لقد حرَّم النبي ﷺ الاطلاع على بيت المسلم دون إذنه حماية لثغر عينك من أن تغزوه النظرة المهلكة، إنها الحماية الثنائية المتبادلة للناظر والمنظور إليه، حماية الناظر من فساد قلبه، وحماية المنظور إليه من خرق حرمته وخصوصيته؛ ولذا شرع الله الاستئذان. قال تعالى:

﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النور: ٢٧].

يقول شهيد القرآن سيد قطب:

«لقد جعل الله البيوت سكنًا، يفيء إليها الناس، فتسكن أرواحهم، وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب!

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرمًا آمنًا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس.

ذلك إلى أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان، يجعل أعينهم تقع على عورات، وتلتقي بمفاتن تثير الشهوات، وتهيئ الفرصة للغواية، الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة، تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار، وتحوِّلها إلى علاقات آثمة بعد بضع خطوات أو إلى شهوات محرومة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات.

ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجومًا، فيدخل الزائر البيت، ثم يقول: لقد دخلت! وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراهما عليها أحد، وكان يقع أن تكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة، هي أو الرجل، وكان ذلك يؤذي ويجرح، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها؛ كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة، حين تقع العين على ما يثير.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٦٠٤٦.

من أجل هذا وذلك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي، أدب الاستئذان على البيوت، والسلام على أهلها لإيناسهم، وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول».

4 النظرة الرابعة: النظرة الجائعة:

وهي نظرة الرجل إلى المرأة الأجنبية بشهوة، ونظرة المرأة إلى الرجل الأجنبي بشهوة، وهؤلاء هم..

الشاربون من البحر!!

قد لا تلمح ما تفعله النظرة في قلب صاحبها في التو، لكنها تزرع النار في الفؤاد لتأتي عليه آخر الليل لتحيله رمادًا في رماد، وما أشبهها بعقرب الساعة تراه في الصباح ثابتًا فإذا عدت إليه آخر النهار وجدته قد انتقل من مكانه، فهو يمشي وإن لم تر مشيه، ويعمل وأنت لا تشعر أنه يعمل.

إن إطلاق البصر يؤدي إلى كثرة عرض الصور المنقوشة في الذهن والمحفورة في القلب، سواء أكانت حية في واقعية أو مطبوعة في مجلة أو متحركة على شاشة، ولا شك أن تكرار النظر يؤدي إلى سهولة استدعاء هذه الصور عند مفارقتها، وسهولة استدعائها تؤدي ولابد إلى تخيلها بوضع مثير مما يؤدي إلى مضاعفات المرض وزيادة آلامه، وبهذا يتعذب صاحب القلب المسكين.

تولّع بالعشق حتى عشق ... فلما استقل به لم يُطق
رأى لجة ظنها موجة ... فلما تمكّن منها غرق
ولما رأى أدمعًا تستهلُّ ... وأبصر أحشاءه تحترق
تمنى الإفاقة من سُكره ... فلم يستطعه ولم يستفق

ومن خطورة هذا المرض أنه لا يقتصر على صورة معينة ولا يقف عند حد، فإذا نظر المريض إلى امرأة استرسل بصره إلى غيرها، الواحدة بعد الأخرى والصورة بعد الصورة، دون أن يشفي غليله أو يطفئ لهيبه، فكان كالذي يشرب من ماء البحر.. لا البحر ينفد ولا هو يرتوي.

ومن خطورته كذلك أنه بريد الزنا. قال سيد قطب:

«وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر، أو هو الخطوة التالية لتحكيم الإرادة

ويقظة الرقابة، والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى، ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة بوصفهما سببًا ونتيجة، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع، كلتاهما قريب من قريب»[1].

قصة النظرات الثلاث!!

وهذا صحابي ينظر إلى امرأة ويدقق النظر إليها وهو في صحبة من؟! في صحبة خير الخلق وسيد الرسل رسول الله ﷺ، وأين؟ في أرض المناسك والبلد الحرام، ومتى؟ يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر أعظم الأيام عند الله.

واسمعوا القصة:

أن امرأة من خثعم استفتت رسول الله ﷺ في حجة الوداع [يوم النحر]، و**الفضل بن العباس** رديف رسول الله ﷺ، وكان **الفضل** رجلاً وضيئًا، فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم، فأخذ **الفضل بن العباس** يلتفت إليها وكانت امرأة حسناء (وفي رواية: وضيئة) (وفي رواية: فطفق **الفضل** ينظر إليها وأعجبه حسنها) وتنظر إليه، فأخذ رسول الله ﷺ بذقن **الفضل** فحوَّل وجهه من الشق الآخر.

وفي رواية **الفضل** نفسه: «فكنت أنظر إليها فنظر إلي النبي ﷺ فقلب وجهي عن وجهها، ثم أعدت النظر فقلب وجهي عن وجهها حتى فعل ذلك ثلاثًا وأنا لا أنتهي».

وكان **العباس** حاضرًا هذا الموقف فقال: يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: «رأيت شابًّا وشابة فلم آمن الشيطان عليهما»[2].

فما علاج العشق إذا وقع بأول نظرة؟

مبدئيًّا.. ليس أجهل من طبيب يداوي سكران في وقت سكره، لن يكون للسكران دواءٌ حتى يفيق؛ لذا كانت إرادة المريض ورغبته في الشفاء شرطًا أساسيًّا لحدوث الشفاء.

(١) في ظلال القرآن ص ٢٥١٢.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي كما في ص ج ص رقم: ٥٥٩٧.

حين أخذنا هذا السؤال وانطلقنا إلى عيادة أقرب طبيب فإذا به ابن الجوزي، فحمدنا الله وسألناه فوصف لنا سطرين من كتابه (ذم الهوى) من قرأهما وعمل بما فيهما حصل له الشفاء بإذن الله، فاقرأ معي لتشفى:

«علاجه الإعراض عن النظر، فإن النظر مثل الحبة تُلقى في الأرض، فإذا لم يُلتفت إليها يبست، وإن سُقيت نبتت، فكذلك النظرة إذا ألحقت بمثلها»[1].

العاشق.. كلما أراد التوبة فشل، وكلما نوى الرجوع أبت عليه نفسه، وكلما دعاه للخير داعٍ جذبه إلى الهوى عشرة، ويظل هكذا يحاول ويفشل، وينهض ويسقط حتى ينهار في النهاية ويرفع الراية البيضاء ويترك المحاولة وعندها.. الهلاك.

العاشق.. مطلق بصره ومهمل عينه قد بعث قلبه في تأمل آثار الجمال فماذا جنى؟! لم يشعر بنفسه إلا وهو أسير الأغلال، وما أقلع عن النظرات حتى خرَّ صريع الحسرات، وما برحت سهام الفاتنات ترمي قلبه حتى سقط بينهن قتيلاً، وما زالت تفعل فيه ما لا تفعله السيوف حتى هلك.

مسكين.. سافر بعينيه إلى محاسن المنظور إليه فلم يجنِ إلا وعثاء السفر والحسرة والندم، وأهلك نفسه بالاشتراك في هذه الرحلة، وما درى أن المسافر فيها على شفا جرف هار، وما أخطره من سفر؛ لا يستطيع المسافر فيه الرجوع إلى ما كان عليه من الفطرة السليمة والسكينة الإيمانية، ولا يصل إلى ما ظنه المتعة الأبدية والسعادة السرمدية، رأى من بعيد ما ظنه برد الشراب فلما جاءه وجد أليم العذاب وسريع الحساب.

العاشق.. وعَدَكَ الشيطان فأخلف، أغراك بسراب السعادة، وغرَّك بخادع الأمل، ثم تركك في نهاية المشوار فريسة للوعات الحسرة وزفرات الندم وطبقات النار وألسنة اللهب فماذا ربحت؟! يا هاجرًا جنة السعادة إلى نار العذاب.. يا من باع فرح ساعة لا شهر بغم سنة بل دهر: ما فائدة طعام لذيذ لكنه مسموم؟! ما العائد من شيء أوله لذة وآخره موت!!

العاشق.. أمتَّ قلبًا كان حيًّا فأحسن الله عزاك؟! والله لو نطقت عينك لاشتكتك،

---

(١) ذم الهوى ص ٤٤٠ - ط دار الكتب العلمية.

فواجه نفسك ولا تكن كالنعامة تخفي رأسها في التراب؛ لتواري جسدها من سنان الحراب!!
واعلم أنه كم من نظرة تحلو في العاجلة لكن مرارتها في الآخرة لا تُطاق.

أعـان طرفي على قلبي وأعضائي ... بنظــرة وقفت جسمي على دائــي
وكنتُ غِرًّا مما يجني على بدني ... لا علم لي أن بعضي بعض أعدائي

مضاعفات المرض

يجب على كل عاقل أن يحترز من كل ما يضاعف أثر النظرة الجائعة:

☒ الفراغ:

في أحضان الفراغ تولد آلاف الرذائل، وتختمر جراثيمُ الشهوات والجرائم، وإذا كانت الدنيا غراسًا للآخرة؛ فإن الفارغين يُحشرون يوم القيامة مفلسين لا حصاد لهم غير الندم والخسران.

اقتله قبل أن يقتلك!!

قال ابن القيِّم: «وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى المعرضة عنه المتعوِّضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوق إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور ولهذا قال تعالى في حق يوسف ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فدلَّ على أن الإخلاص سبب لدفع العشق وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصَرْف المُسَبِّب صَرْف لسببه ولهذا قال بعض السلف العشق حركة قلب فارغ يعني فارغًا مما سوى معشوقه»[1].

فإن الفراغ أشد ما يكون فتكًا بصاحبه، وقد ذكر ابن حزم رحمه الله أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك يُوَكِّل ثقةً له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر، لأنهم يقولون: إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشتاق إلى الرجال، وتحِنُّ إلى النكاح[2].

(١) زاد المعاد ٤/ ٢٦٨ ط. الرسالة.
(٢) طوق الحمامة ص ١٤٠ – منشورات مكتبة دار الحياة.

⊠ السير منفردًا متاهة:

جاء في الحديث أنّ النبي ﷺ (نهى عن الوحدة: أن يبيت الرجل وحده)[1].

وذلك من حرص الحبيب علينا؛ حتى لا يقع المريض فريسة للشيطان، فيسهل على العدو التسلل إلى قلبه في غيبة الإخوان، فيرمي إليه بذور الهوى ويشعل فيه نار الشهوة عن طريق الخواطر الشهوانية والرغبات الأرضية، مستعينًا في ذلك بغياب الرقيب وانعدام النصح.

⊠ غياب الحجر الصحي:

إنما يوصف الدواء لمن يقبل الدواء، أما المخلِّط فإن الدواء يضيع عنده، فإن صحَّ عزمك على استعمال دوائي فاسمع أصف:

البعد عن مواطن الوباء والنفوذ الشيطاني التي نشر الشيطان فيها جنده فسادوا حتى صارت بؤرة للفتن، مثل الشواطئ والأسواق، فواجبٌ على كل من يأمل في الشفاء أن يجتنب هذه الأماكن قدر استطاعه ولا يدخلها إلا لحاجة، وهي وصية استشاري قلوب المؤمنين أبي الفرج ابن الجوزي:

«فاحذر رحمك الله من أن تتعرض بسبب البلاء فبعيد أن يسلم مقارب الفتنة منها، وكما أن الحذر مقرون بالنجاة فالتعرض بالفتنة مقرون بالعطب، ونذُر من يسلم من الفتنة مع مقاربتها»[2].

وإن كان هذا كلامه وقد عاش في القرن السادس فما نقول نحن في هذا الزمان؟ فاجتنب أماكن الاختلاط إلا لحاجة، وأما الفتنة التي تناديك في السواحل والشواطئ على لسان الأجساد العارية، وفي المكتبات على لسان الجرائد المصورة والروايات الخليعة، وفي المدرسة والجامعة على لسان أصحاب الاستهتار والفجور، وفي برامج التلفاز العابثة والقنوات الفضائية الماجنة وصفحات الإنترنت الفاسدة، ففر من المجذوم فرارك من الأسد، والموعد الجنة يا خاطب الحور.

⊠ الاختلاط بريد الزنا:

واسمع إلى خبر هند بنت الخس وهي إحدى أميرات العرب في الجاهلية، وكانت مشهورة

---

(١) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمر كما في ص ج ص رقم: ٦٩١٩.

(٢) ذم الهوى ص ١٢٦ - ط دار الكتب العلمية- ط ٢.

بالعقل والذكاء والفصاحة والحكمة، وذُكر أنها زنت مع عبد لها فقيل لها: ما حملك على الزنا مع عقلك ورأيك؟! فقالت: قرب الوِساد وطول السَّواد، أي قرب مضجع الرجل مني وطول مسارَّته لي، والسواد: المسارَّة، وساوده: إذا سارَّه، وأصله من السواد وهو الشخص، وذلك أن المُسارَّ يُدني شخصه من شخص من يُساره فيُقال: ساوده؛ أي أدنى سواده من سواده[1].

والناظر في أي جريمة زنا يرى في الاختلاط أس المشاكل وأصل البلاء ومضاعف المرض، وليست المعاينة كالسماع، فنظرة واحدة في أحوال الغارقين في الوحل تغني عن آلاف الخطب والمواعظ وصيحات التحذير، ومن لم تنفعه عينه لم تنفعه أذناه. قال يحيى بن معاذ: «من لم يعتبر بالمعاينة لم يتعظ بالموعظة، ومن اعتبر بالمعاينة استغنى عن الموعظة»[2].

المتوالية المهلكة !!

ولا أحد يعلم طبيعة النفوس البشرية كخالقها سبحانه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾؛ لذا فقد قامت فلسفة الإسلام في مكافحة الشهوة ورحمته بأبنائه على الحد من الاختلاط عن طريق عدد من الإجراءات الاحتياطية والخطوات الوقائية التي تنزع فتيل الشهوات، لأن أي اختلاط يستمر وقتًا من الزمن، وأي علاقة بين الجنسين تمتد وتطول لابد وأن تؤدي إلى نوع من الارتباط بين الرجل والمرأة لينقلب إلى عاطفة متصاعدة شئنا أم أبينا، ثم تنقلب حبًّا، ومن بعد الحب العشق والهيام، ومن ثم خوف الفتاة المستمر من ترك الحبيب لها أو الانحدار معه نحو الهاوية، وقد تتعرض لصدمة نفسية ومحنة كبيرة واضطرابات عصبية ونفسية في حال الفراق، وتواجه المشاكل الدائمة مع أسرتها، فضلاً عن خسارتها لعلاقتها بربها[3].



(١) كتاب جمهرة الأمثال ٢/ ١٢٧ - أبو هلال العسكري - ط دار الفكر - الطبعة الثانية.
(٢) طبقات الصوفية ص ١١٣.
(٣) من كتابي (ونطق الحجاب).



الشم

وهـذا هـو آخـر ثغـر يوصـل إلى القلـب، وقـد يـدخل منـه الحـرام البـيِّن كشـمِّ المرأة الأجنبية، لذا عرف الصحابة خطورة هذا الثغر حتى قرَّر أبو موسى الأشعري ﷺ:

«لأن يمتلئ منخراي من ريح جيفة أحب إليَّ من أن يمتلئا من ريح امرأة»[1].

واتفق معه في ذلك وأقرَّه عليه الصحابي ابن الإسلام أبو عبد الله سلمان الخير ﷺ الذي ردَّد نفس المعنى قائلا :

«لأن أُزاحم جملا قد هُنِّئ بالقطران أحب إليّ من أن أُزاحم امرأة عطِرة»[2].

وما ذلك إلا لأنهما تعلما من نبيه ﷺ الذي شدَّد على كل امرأة تعطَّرت أن لا تخرج من بيتها ولو لأطهر مكان وهو المسجد لأداء أسمى عبادة وهي الصلاة، فقال: «لا تُقبل صلاة لامرأة تتطيب لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»[3]، بل ووصفها بوصف غاية في الشدة لينفِّر كل امرأة منه فقال:

«إذا استعطرت المرأة فمرَّت على القوم ليجدوا ريحها فهي زانية»[4].

لكن لماذا هذا الوصف المريع: زانية؟!

والجواب: لأنها هيَّجت شهوة الرجال بعطرها، وحملتهم على النظر إليها، فالشم هنا قام مقام النظر حيث قاد إليه، وكل من نظر إليها فقد زنى بعينه؛ وتشوَّش قلبه، ووهن إيمانه.

وقد تنافس في حراسة هذا الثغر أبطال أفذاذ حتى لا يدخل منه أي ما يُعكِّر صفو القلب، ولو كان مباحًا ولكنه الورع؛ كما روى يونس بن أبي الفرات: أن عمر بن عبد العزيز - رحمه

---

(١) من كتابي (ونطق الحجاب) ص ٧٤.

(٢) نثر الدر ١/ ١٢٢ ، هو سلمان الفارسي ﷺ وسبب تسميته ابن الإسلام أنه سئل عن نسبه فقال : أنا سلمان ابن الإسلام. أسد الغابة ١/ ٤٦٢.

(٣) صحيح : رواه أبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم : ٧٣٨٥.

(٤) صحيح : رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي موسى كما في ص ج ص رقم : ٣٢٣٠.

الله- أُتي بغنائم مسك، فأخذ بأنفه، فقالوا: يا أمير المؤمنين!! تأخذ بأنفك لهذا. قال: «إنما ينتفع من هذا بريحه، فأكره أن أجد ريحه دون المسلمين»[1].

وأما الشم المستحب، فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي حواسك على ذلك، ويبسط النفس إلى العلم والعمل، ولهذا كان مما حُبِّب إلى نبينا ﷺ من دنيانا الطيب، وكان هديه في الريحان أن لا يرده إذا أُهدي إليه، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ:

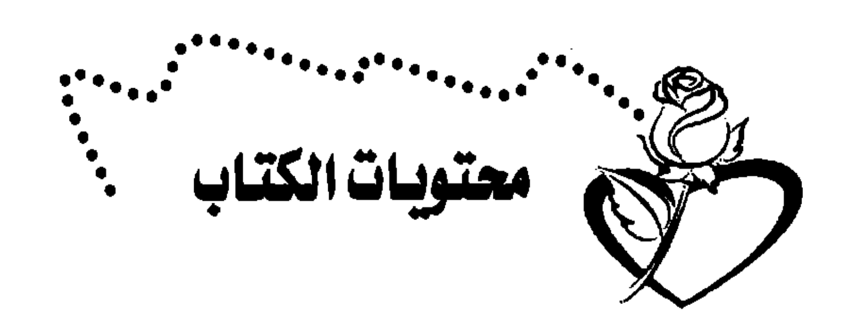
«من عُرِض عليه ريحان فلا يرده، فإنه طيب الريح خفيف المحمل»[2].

ومن الشم المستحب شم الزوج لعطر زوجته والزوجة لعطر زوجها، وعندما يجد كل منهما الريح الطيب والعطر الشذي من زوجه يزداد له حبًّا وألفة وارتباطًا وقربى.



(١) الورع ص ٧٤.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأبوداود عن أبي هريرة كما في ص ج ص رقم: ٦٣٩٢.



الموضـــــــوع	الصفحة

1 موضع الإصابة

- تحرير قلب!! ٧
- بطاقة دخول ٩
- المقدمة ١١
- ما هو القلب؟! ١٧

١) إنه الملك ١٨

٢) الهدف المشترك ٢٠

٣) طهارته شرط الدخول ٢١

٤) موضع نظر الله ٢٣

٥) النافع الوحيد ٢٦

٦) بيت الإيمان والتقوى ٢٨

٧) هشاشة المصاب ٢٩

٨) السرطان ٢٩

٩) وحده مالك دوائه ٣٠

١٠) موضع الانقلاب ٣٢

١١) أطباؤه مرضى ٣٣

١٢) رسالة تحذير ٣٦

١٣) أعمال القلوب أولى وأغلى ٣٧

١٤) عليه مدار الأجر وتفاوته ٣٨
١٥) رفعة الدنيا وشرف الآخرة ٣٩
١٦) العلم الحقيقي ٤١
١٧) شرط الطبيب الناجح ٤٣
١٨) قلب يقلب المعركة ٤٤
١٩) مستودع الأخلاق والمشاعر ٤٥
٢٠) بين الموت والحياة ٤٧

2 بأي قلب نلقاه؟!

♥ بأي قلب نلقاه؟! ٥١
♥ القلب الحي ٥٢
١) إذا ذُكِر الله وجل قلبه ٥٢
٢) له في كل شيء عبرة ٥٣
٣) انتفاضة الأحياء ٦١
٤) حلو اللسان ٦٢
٥) غزير الدمع ٦٤
٦) همومه أخروية ٦٧
٧) توحيد الخوف ٦٩
٨) غيرة الأنبياء ٧٠
♥ القلب القاسي ٧٢
♥ علامات القسوة ٧٥
١) تعطل الحواس ٧٥
٢) احتلال الدنيا القلب ٨٢
٣) انتكاسة الفطرة ٨٥
٤) الفرح بالخطيئة ٨٦

٥) ألعوبة الشيطان ٨٧
٦) بكاء الذليل ٨٨
٧) داء الذكر ٨٩
♥ القسوة من تسعة ٩٠
١) كثرة الأكل ٩٠
٢) كثرة النوم ٩٣
٣) كثرة الكلام ٩٨
٤) كثرة المخالطة ١٠٢
٥) نقض عهد الله ١٠٧
٦) تعليم العلم دون استعماله ١٠٨
٧) كثرة الذنوب ١١١
٨) كثرة الضحك ١١١
٩) أكل الحرام ١١٥
♥ القلب المريض ١١٧
♥ أولاً: مرض الشهوات ١١٩
١) شهوة حب الدنيا وجمع المال ١٢٠
٢) شهوة حب الشهرة ١٢٧
٣) شهوة حب الرئاسة ١٢٨
٤) شهوة النساء ١٣٥
٥) شهوة حب الأهل والولد ١٤٠
♥ ثانيًا: مرض الشبهات ١٤٤

3 رحلة سقوط

♥ المعصية والفخ ١٥١
١) التشديد المهلك ١٥٢

٢) الرجاء القاتل ١٥٥
٣) الدموع الخدَّاعة ١٦٠
٤) اعتياد العبادة ١٦١
٥) احذر المقدمات ١٦٢
٦) اليأس ١٦٦
٧) عبادات مفضولة ١٧٠
٨) الإلحاح وعدم اليأس ١٧١
٩) الرياء ١٧٣
١٠) الخوف من الرياء ١٧٧

4 حراسة الأبواب الستة

♥ الوقاية خير من العلاج ١٨١
♥ الباب الأول: اللسان ١٨٥
• اختبار القلب ١٨٦
♥ الباب الثاني: السمع ١٩٧
• الحرب على جبهتين ٢٠٥
♥ الباب الثالث: القدمان ٢١١
♥ الباب الرابع: اليدان ٢١٧
♥ الباب الخامس: البصر ٢٢٤
• أربع نظرات حرام ٢٢٤
• مضاعفات المرض ٢٣٢
♥ الباب السادس: الشم ٢٣٥
♥ محتويات الكتاب ٢٣٧



تحرير قلب

قال قلبي وهو يرزح تحت الأغلال:

اتركيني يا نفس..

أرهقتني ذنوبك.. أفقدتني صوابي.. أهلكتني عيوبك

زادت من عذابي.. ضاقت عليَّ الأرض

واختَنَقْت.. اختنقت

من طول غيابي

يا نفس..

كم طمحتُ إلى الخير.. وهممت بإجابة داعي الله

وكدتُ أضع قدمي في قطار الصالحين

وأمضي معهم في طريق النور

فحرمتِني.. وحُلتِ بيني وبين النجاة

أما آن لك أن ترحميني.. وتدعيني أنجو

فكّيني من أسارك.. أطلقيني من قيدك المرير

أما أنتم يا أعوان نفسي:

أيتها الغفلة الجاثمة .. أيتها الشهوة العارمة .. أيتها القسوة الغالبة

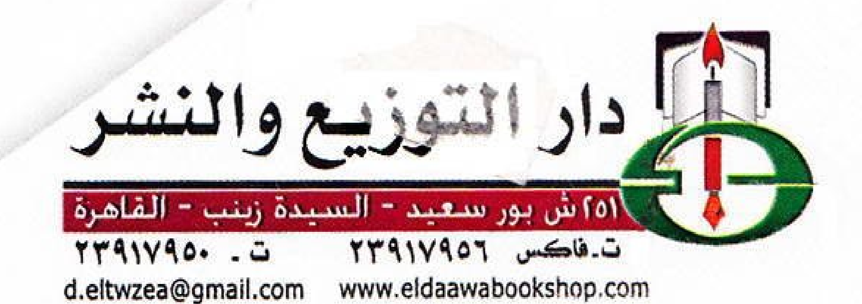
ارحلوا عني إلى الأبد .. غادروني إلى غير رجعة

لم يعد لكم عندي موضع قدم

موتوا بغيظكم

قد ردَّ الله إلي روحي.. وعافاني في ديني.. وأذن لي بذكره.

سلسلة رُدَّ إليَّ روحي (١)


دار التوزيع والنشر
٢٥١ش بور سعيد - السيدة زينب - القاهرة
ت.فاكس ٢٣٩١٧٩٥٦ ت. ٢٣٩١٧٩٥٠
d.eltwzea@gmail.com www.eldaawabookshop.com





www.ibtesama.com